ابداع جديد... لاحداث وليد وضخم!

الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة

أن نزدهي بما لدينا من إبداع، فهذا حق ينهض على صدق، لا اغترار فيه، لأنه كائن، والكائن منه يتخلق الذي يكون، وتلك هي قصة طموحنا، حين جئنا وفي الحفنتين ريّ للشجرة المباركة، شجرة الثقافة، فسقيناها بتوجيهات كريمة، ورعيناها، وأحطناها بالبذل والعناية والتشجيع، حتى ضربت جذورها في الأرض، وارتفعت هالتها الخضراء في الأعالي، وامتدت غصونها، لتفيء بنعمائها على أسرة الفن، علماً، وأدباً، كلمة ولوحة، نغماً ونقشاً، إلى آخر الذي لا آخر له، وهو الابداع، قل سحره، يتداخ ويتداح، دوائر مابين الأرض والسماء، تتشكل لوناً، وتتمرأى فتنة،

* كلمة الدكتورة نجاح العطار في حفل افتتاح الموسم الثالث للفرقة السيمفونية المحدثة.

وتتصاعد ابتهالات هي التي ولدت، يوم ولد هذا الكائن العظيم الذي اسمه الانسان، كي تكون ابتهالاته وسيطاً بينه وبين خالقه، صلاة فيها المناجاة، ودعاء فيه الرجاء، أن يأخذ بيده، ويبارك خطوته، ويدفع عنه الشر، ويجلب له الخير، فينبت زرعه، وينمو، ويتطاول، وينعقد ثمراً، به اغتذى، يوم لم تكن النجمة قد انقدحت على النجمة بعد، ويوم النار كانت كموناً، ثم انبعثت، وأضاءت، وأنارت، ونقلت هذا الانسان من عصر الى عصر، في سيرورة البشرية نحو الارتقاء، وصيرورتها مجتمعات تعددت فيها، وتعاقبت، الأنظمة التي عرفها التاريخ، وعرّف بها فخوراً.

إذن الابتهال، موسقاً، كان الهتفة البكر، فيها الاتّساق الذي تمدّى ولا مدى، لأنه الأبعد في المدى، من كل مدى، باعتباره اللحن الأزلي، في النطق الأبدي، ومابينهما من أصوات تناغمت، وتمازجت، وتموّجت، وارتفعت، صانعة لنا، في إيقاعاتها العجيبة، لغة أخرى، هي الأبقى، هي الأنقى، في هرمونيتها التي تلتقطها حاسة السمع، فتنتشي بها، وتألم لها، وتفرح، وتحزن، وتتدرّج في لويناتها الى مالا نهاية، شأنها في ذلك شأن أنشودة الطبيعة، نسمعها، نتأثر بها، ننخطف اليها، نؤخذ بايحائها، نذوب في مخمليتها، نحار بعمق قرارها والجواب، حين هي نسمة هواء، وخرير ماء، وهدهدة موجة، وفي التعالي، نحو العلى، عصفة ريح، وزئير عاصفة، وهدير رعد، وصبيب مطر، ولكل منها دورها، وفرادتها، في الأحادية والجمعية، صدحة صادح باهر، وعزف جوقة متكاملة، نحسها، في الانسجام التام، كأنها وتر واحد، ونغمة واحدة.

هكذا كانت نشأة الموسيقا، بنت نشأة الصوت، وكان الابداع، في عباءته التي منها خرجت الآداب والفنون، هو الجامع لها، والناظم سلكها، ولا أدّعي أن الإبداع في هذا البلد العزيز كالروح، والذي اسمه سورية، لم

يكن حين جئنا، فالابداع، في بلدنا، له تاريخ، منذ قديم الزمن، وفي كل الحضارات التي قامت على أرضنا، وعاشت فيها، وترسخت في تربتها، إنما أؤكد، والحاضر شاهد، أن هذا الابداع لم يتحول الى كل، وهذا الكل الى شمول، وهذا الشمول إلى نهضة، إلا في الربع المنصرم من تاريخنا، أي منذ كان التصحيح باباً، دخلته المؤسسات جميعاً، في دستورها والقانون، وولجته المنظمات، في اتحاداتها وتشكيلاتها، وكذلك جازت عبره آدابنا والفنون، فكانت نهضتنا، على هذا النحو، متكاملة في كل مجالاتها.

إننا اليوم، وفي هذا الحشد المهيب، نرى، ونسمع، ابداعات الفرقة السيمفونية العربية السورية وهي تتقدم نحو التكامل والتوطد، عاماً بعد عام، مشمولة، كما نهضتنا الثقافية كلها، برعاية القائد المعلم الباني، المكافح حرباً وسلماً، المنتصر حرباً وسلماً السيد الرئيس حافظ الأسد، الذي يرجع اليه الفضل في انشاء معهد الفنون المسرحية، والمعهد العالي للموسيقا، ويقترب، بعناية منه، ودفع، وتشجيع موعد افتتاح المجمع المسرحي ودار الأوبرا، في ساحة الأمويين بدمشق.

إن إحداث الفرقة الوطنية العربية السيمفونية، قد ترافق، وواكب المسيرة الثقافية، وقد صارت هذه الفرقة التي نفخر بها، كأحد الانجازات الثقافية الكبرى، معروفة من القاصي والداني، وموضع الاعجاب والتقدير من الجميع، داخل سورية وخارجها، وكذلك موضع الطموح الثقافي الكبير المتحقق، كحدث استثنائي، وكحقيقة حضارية، ودلالة وعلامة، على تطورنا السريع المعجز، الذي، في دوحة نهوضه وإثماره، غدت فروعه وارفة الظلال، تتمدد من الجهات الأربع، في فضاء رحيب، وتشمخ أبداً إلى أعلى فأعلى.

إلا أن الفرقة السيمفونية هي جزء من كل، واذا كان الجزء يقوم مقام

الكل، ويدل عليه دلالة واضحة، فإن ذلك مرده الى أن هذه الفرقة جزء أصيل، من كل أصيل، نعبر عنه، ونعتز بأنه النهضة الثقافية الحقة في سورية، ولشد ما نباهي عندما نتكلم على الجزء والكل معاً، مادامت الثقافة عنواناً ومـتناً، هي الكنز الذي الى نماء دائم، والى حـضـور دائم، وهي، كذلك، برهان دائم، على أننا نسعى، نسبق، ونستبق في مضمار الانجازات الضخمة، ومنها هذا الانجاز الضخم الجديد، من انجازات نهضتنا الثقافية الشاملة. وكي أكون موضوعية تماماً، وصريحة الصراحة كلها، فإن علي أن أعترف، أن الفضل في هذه النهضة الثقافية الشاملة، يعود الى السيد رئيس الجمهورية، ابن شعبنا، وقائد وطننا وأمتنا، فقد جمع في شخصيته، التي هي الى الندارة، والفرادة، والنداوة، والشجاعة، منتمى ومرجعاً وموئلاً، حالتين قل اجتماعهما في شخصية واحدة، هما الثقافة الواسعة، والبسالة الباسلة، التي عزّ لها نظير، بين القادة العظام، في تاريخنا وتاريخ العالم كله، وهذا يفسر حيرة من نحاور، واستغراب من نحادث، من صلابة موقف، فيه حدة الذكاء، ورهافة الحس، ودقة الجواب، وشموخ الافصاح، عن أننا نريد السلم العادل، الشامل، الذي يرد لنا الأرض، والحق، فاذا لم يكن سلماً بهذه الصفات، فإن بقاءنا على وضعنا هو المفضل لدينا. ويأتي هذا القول، الذي فيه الحسم، إباء عزة، وكبرياء رجولة، في وقت تهاوى فيه الآخرون، ومن هنا الحيرة والعجب والدهشة، تتملك من يريدون برهاناً على برهان، في أن الوطن العربي أنجب قائداً، يذهب به الاجتراء، وفي هذه المرحلة بالذات، الى حد أن يترجم فعلاً، ماقاله سيف الدولة سيفاً، والمتنبي شعراً، من أن رجلنا راسخة في موقع النقع، ومن تحت أخمصها الحشر، وبتكثيف في الكلام، وسداد في المنطق، قلما كانا، وقلما سمعا.

إذن الآن، ووسط كل الارتباكات والإحباطات التي يعاني منها الذين تخاذلوا، ينهض زعيم أمة، ليقول باسم أمة: إننا هنا، وعلى العهد، لأن العهد كان مسئولاً، ثم لا يبالي، عن حكمة، برجع الصدى، لأنه يعرفه، وقد مارسه، وتمرس به، وصارت له المعلمية في تحويل سلبه الى ايجاب، بسبب من أننا على حق، والآخرون على باطل.

هكذا، بكل بساطة، وبكل واعية، وبكل احترام للقادة العرب الآخرين، في وسعنا أن نقول: في الوطن العربي حافظ أسد واحد، له قول واحد، ومبدأ واحد، وموقف واحد، وعبثاً كل هذه المناورات والمداورات والتحريفات والتحريضات، التي يلجأ اليها الذين يرغبون، أو يفكرون برغبة، في أن نتزاح عن مبادئنا ومواقفنا، بينما هم يصطنعون التعقيدات المتوالية، ويضفرون حبالها، لتلتف حول عنق مسألة لا لبس فيها، لأن الحق فيها واضح، والباطل فيها واضح أيضاً.

الغرابة، في هذا كله، والمحير، في هذا كله، بالنسبة للمراقبين من عرب وعالميين، هو الجواب على السؤال التالي: كيف يتفرّغ الرئيس الأسد، والقضية العربية، القومية، المصيرية، تستغرق وقته كله تقريباً، لمعالجة الاقتصاد، وجعله مزدهراً، والبناء وإرسائه عميقاً راسخاً، والثقافة، ورعاية نهضتها على النحو الذي هي عليه، والذي ستكون عليه مستقبلاً؟ أقول لهؤلاء جميعاً: إن الجواب على تساؤلهم بسيط، ولعله يختصر في قيام هذه الفرقة السيمفونية، التي صرنا بها، ومعها، في القلب من الشوط الحضاري، الذي تتسابق في مضماره الأمم المتقدمة!.

نعم، هو ذاك، فالموسيقا، كابداع، تتوج الابداع، ولولا نهضتنا الثقافية، ورعايتها، وتوفير وسائل انتاجها ونشرها، لم يكن هذا التتويج، لكل إحداثاتنا الثقافية، التي مانكاد نفرغ من تتويج إحداث منها، حتى نقبل

على تتويج إحداث آخر، وأحسب أنني أنوب عن الجميع، حين أوجز فأقول: شكراً أيها القائد! وأنوب عن الجميع عندما أوجه الشكر الى السيد رئيس مجلس الوزراء، الاستاذ المهندس محمود الزعبي، راعي هذا الحفل، على إسهامه في تقديم كل عون، ومساعفة لهذه النهضة الثقافية، وعمله الدائم والمثمر، من موقعه في السلطة التنفيذية، على تنفيذ السياسات الموضوعة من قبل السيد الرئيس والقيادة السياسية، تنفيذاً خلاقاً، ظهرت نتائجه في كل الحقول.

ويبقى عليَّ أن أشكر الذين سهروا على تكوين الفرقة السيمفونية العربية السورية، والذين شاركوا فيها، ويشاركون، عزفاً وابداعاً، وتنظيماً وقيادة، وعملاً متواصلاً على تطويرها، كما أشكر الذين كرمونا بحضور هذه الحفلة الجديدة، للفرقة الوليدة، كي يشهدوا، ويحكموا بأنفسهم، على مدى تقدم عملها الفني الضخم، ومدى ماينتظرها من تقدم مقبل، مادام الجهد الانساني، في صياغته للابداع، يأتي، أبداً، بابداع جديد، متقدم، متطور، ومستمر في تطوره.

المثل العليا والواقع

عبد اللطيف زرنه جي

المقدمة:

يقول الفيلسوف الصيني كونفوشيوس «على الانسان ان يدرك حتى يريد وان يريد حتى يعمل» أي ان الادراك والوعي هو الاساس وهو أهم ما يحتاجه الانسان والبشرية من أجل الانتقال إلى الحياة الأفضل أو إلى المثل العليا، وإذا أردنا ان نعرف الواقع بأبسط شكل يمكن ان نقول هو كل ما نعيشه ونتعايش معه ونتداوله يومياً من قوانين وأنظمة وأسلوب حياة وقيم وتعامل مع الآخرين والطبيعة مادياً ومعنوياً.

(*) عبد اللطيف زرنه جي: باحث من سورية، عضو الجمعية الكونية السورية، يهتم بالدراسات العلمية والفلسفية، ينشر في الدوريات المحلية والعربية.

كما يمكننا ان نعرف المثل العليا بأنها كل هدف نطمح اليه ونرغب في بلوغه مادياً ومعنوياً وأبسط شكل ومستوى للمثل العليا هو المطالبة بالحياة الأفضل .

يقول أحد العلماء «ان المثل العليا هي كالنجوم نهتدي بها ونسعى للوصول اليها لكن لن نطالها البتة» وتشبه وتمثل المثل العليا نموذجاً من نماذج اللانهاية التي لا يمكن الوصول اليها أو وصفها أو تحديد معالمها وخواصها بدقة .

لقد كان للانسان الأول منذ وجوده على كوكب الأرض واقعه وتطلعاته التي مثلت بالنسبة له المثل العليا في ذاك العصر الغابر وحالياً فان لكل انسان بل لكل أسرة أو مجتمع واقعه ومثله العليا ، بل ان للبشرية جمعاء المتواجدة على الكرة الأرضية واقعها ومثلها العليا المشتركة .

ان المثل العليا ليست جامدة بل متغيرة وتأخذ أشكالاً وادراكاً وطموحات مختلفة من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر ، وعندما يقترب الفرد أو المجتمع أو شعب من الشعوب من المثل العليا تنشأ لديه مثل عليا جديدة أكثر رقياً وأبعد منالاً من المثل السابقة وتمثل المثل العليا عادة قوة شد وجذب للانسان والبشرية تدفعها باستمرار للامام والأفضل والأكثر رقياً أي إلى مراكز متقدمة في العدالة والمساواة والحرية ونحو مزيد من المحبة والخير والجمال والحقيقة .

أما المجتمعات التي ليست لها تطلعات أو مثل عليا فانها سرعان ما تغرق في الواقع وتغوص فيه الى الحضيض فتنتهي حضارتها وتنقرض شعوبها .

١) التناقضات العالمية الاقتصادية والاجتماعية :

يقدر عدد الأجيال التي مرت على الكرة الأرضية منذ ظهور الانسان بنحو ٤٠ ألف جيل ولم يعان جيل من الاجيال السابقة أو عصر من العصور ما يعانيه هذا الجيل وهذا القرن رغم كل تقدمه وتطوره وما أحدثه من ثورات

كبيرة في مجال العلم والتكنولوجيا والمعلومات فهو يعاني من مشاكل جمة وتناقضات حادة وتدهور في القيم الانسانية وتفتت في البنية التحتية وفي كل مكونات الحياة وكأن العالم بأجمعه يتنافس من سيحرز قصب السبق في تدمير الأرض هذا الكوكب الجميل محط أنظار العوالم الأخرى وموضع افتتان جميع رواد الفضاء بلا استثناء بل نتسابق في العالم أكثر على تدمير وسحق الانسان والطبيعة والبشرية.

يبدو ان القنابل الذرية لم تدمر هيروشيما وناغازاكي في اليابان فحسب بل حملت بشكل مبكر بين جنباتها بذور تدمير شامل للمثل والقيم الانسانية والطموحات البشرية من مبادئ ونظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

لقد كان متوسط دخل الفرد في أوروبا في القرن الثامن عشر ٢١٠ دولاراً سنوياً ومتوسط دخل الفرد في الدول النامية ١٧٠ دولاراً أي ان الفرق ٤٠ دولاراً سنوياً واذ بعد مرور ١٠٠ سنة أي في القرن التاسع عشر أصبح متوسط دخل الفرد في أوروبا ٥٥٠ دولاراً بينما تراجع متوسط دخل الفرد في الدول النامية الى ١٦٠ دولاراً سنوياً واليوم نجد متوسط دخل الفرد في بعض الدول المتقدمة يصل الى ٢٩ الف دولارا مثل اليابان، بينما يقابله دخل فرد في الدول النامية ما دون ٥٠٠ دولار سنوياً، بل ان متوسط دخل الفرد في دولة مثل موزامبيق لم يتعد ٧٢ دولاراً سنوياً عام ١٩٨٩ (حسب احصائيات البنك الدولي) بل الأكثر فداحة من ذلك ان نصف سكان الكرة الأرضية يقل متوسط دخل الفرد منهم حالياً عن ٥٠٠ دولار سنوياً أي بمعنى آخر فان الفجوة الاقتصادية والاجتماعية هي في اتساع مستمر بلا توقف اذ بينما كان متوسط الفرق بين دخل الفرد في الدول المتقدمة والدول النامية ٤٠ دولاراً سنوياً، في القرن الثامن عشر كما وجدنا أصبح حالياً أكثر من ٢٨ ألفاً.

قام البنك الدولي في عام ١٩٨٩ بتصنيف دول العالم ٢٠٢ دولة وفق اسلوبين فتوصل إلى أربعة مستويات: معتمداً في الأسلوب الأول على الناتج

القومي الخام الاجمالي بغض النظر عن عدد السكان في كل دولة فكانت النتيجة على النحو التالي:

الدول	الناتج القومي الاجمالي السنوي	عدد الدول	الناتج القومي الاجمالي السنوي لمجموعة الدول ٪ مليار دولار
دول غنية جداً	فوق ٨٠ مليار دولار سنوياً	٣٠	١٦٨٩١
دول غنية نسبياً	٥ - ٨٠ مليار دولار سنوياً	٥٨	١٤٣٦
دول فقيرة نسبياً	١ - ٥ مليار دولار سنوياً	٥٨	١٤٩
دول فقيرة جداً	دون ١ مليار دولار سنوياً	٥٦	١٦
المجموع		٢٠٢ دولة	

التصنيف الثاني أخذ بعين الاعتبار متوسط دخل الفرد السنوي فكان على النحو التالي:

الدول	مجال متوسط دخل الفرد السنوي	عدد الدول
دول غنية	يزيد عن ٨٠٠٠ دولار سنوياً	٤٦
دول غنية نسبياً	٢٠٠٠ - ٨٠٠٠ دولار	٤٤
دول فقيرة نسبياً	٥٠٠ - ٢٠٠٠ دولار	٦٥
دول فقيرة جداً	دون ٥٠٠ دولار	٤٧
المجموع		٢٠٢

واذا كان الناتج القومي الخام الاجمالي لدولة مثل الولايات المتحدة الاميركية ٥١٦٥,٨ مليار دولار عام ١٩٨٩، فان ما يقابله في دولة مثل جزر

القمر لا يتعدى ١٩٨ مليون دولار وفي دولة أخرى مثل توكولا و٣ مليون دولار.

وإذا اردنا ان نكون أكثر دقة ونوزع شعوب العالم الى ٥ شرائح متساوية كل منها يشكل خمس سكان العالم أي حوالي ١ مليار انسان، فان توزع الدخل القومي للكرة الارضية الخام والاجمالي والذي قدر بنحو ٢٠ ألف مليار دولار ١٩٨٩ يكون على النحو التالي:

الدول	عدد السكان	النسبة المئوية للسكان	النسبة المئوية للدخل القومي
دول غنية جداً	١ مليار انسان	٪٢٠	٪٨٢,٧
دول غنية	١ مليار انسان	٪٢٠	٪١١,٧
دول متوسطة	١ مليار انسان	٪٢٠	٪٢,٣
دول فقيرة نسبياً	١ مليار انسان	٪٢٠	٪١,٩
دول فقيرة جداً	١ مليار انسان	٪٢٠	٪١,٤

(تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٢)

ان التناقضات الاقتصادية لم تعد بين دول الشمال ودول الجنوب بل تخطت ذلك إلى شمال وجنوب في كل دولة ومجتمع على حدة بما في ذلك الدول الغنية وكأن دول العالم أصبحت عبارة عن مجموعة أعداد كبيرة من المغانط لكل مغناطيس (أي دولة) شماله وجنوبه أي شمال غني وجنوب فقير، فعلى سبيل المثال يتوزع الدخل القومي في الولايات المتحدة الاميركية على النحو التالي:

١٪ من الاسر الاميركية تستأثر بـ٣٧٪ من ثروات البلاد بينما ٩٠٪ من سكان الطبقات الدنيا لا تحصل على أكثر من ٣١٪ من هذه الثروات، لذا لا عجباً ان نرى أكثر من ٣٥ مليون فقير في أمريكا وأكثر من ٨٥ مليون انسان

بمستوى الأمية وبالمقابل نجد أيضاً التناقضات واضحة في الدول النامية حيث يقدر توزع الدخل في الدولة النامية الواحدة بالمتوسط وفق ما يلي:

الفئـة	النسبة المئوية للسكان ٪	نسبة الحصة من مجموع الدخل القومي ٪
الاولى (الأسر الغنية جداً)	٪٢٠	٪٥٠
الثانية (الأسر الغنية نسبياً)	٪٢٠	٪٢٠
الثالثة (الأسر المتوسطة)	٪٢٠	٪١٤
الرابعة (الأسر الفقيرة)	٪٢٠	٪٩
الخامسة (الأسر الفقيرة جداً)	٪٢٠	٪٧

أي أن دخل الأسرة الفقيرة جداً لا يتعدى ١٤٪ من دخل الاسرة الغنية جداً، لكن هناك بعض الدول التي توزع الدخل بشكل أكثر عدالة وانصافاً بين الناس مثل اليابان التي تتمتع بأهم سمة تميزها هي ان ٩٠٪ من السكان متوسطو الدخل، بينما ١٠٪ هم الاغنياء والفقراء فقط وتسعى نحو مزيد من تخفيض نسبة ١٠٪ وان أعلى راتب في الشهر مثل راتب مدير الشركة وادنى راتب مثل عامل خدمات لا تتعدى النسبة بينهما ٧ الى ١.

كما أن النظم الاشتراكية سابقاً أو الصين حاضراً لم تكن تعاني من تناقضات فاضحة في متوسط دخل الفرد وأن أعلى راتب شهري وأخفض راتب في الصين الشعبية لا يتجاوز عادة نسبة ٥ الى ١ أما اذا دخلنا في تفاصيل أدق وأعمق نجد أن بعض الأفراد في العالم سواء في الدول المتقدمة أو الدول النامية يزيد دخله على الدخل القومي السنوي لدولة بكاملها مثل جزر القمر أو دولة توكولاو، وان دخل شركة من شركات متعددة الجنسيات يزيد عن الدخل القومي السنوي لدولة كبيرة مثل اندونيسيا والتي يزيد عدد سكانها عن ١٨٠ مليوناً، بل ان كثيراً من الدول يزيد دخلها السنوي عن

مجمل الدخل السنوي لقارة مثلاً ان دخل كلاً من أمريكا، المانيا اليابان، فرنسا، انكلترا، ايطاليا، كندا يفوق دخل. جميع دول قارة أفريقيا التي يزيد عددها عن ٥٠ دولة ومساحتها أكثر من ٣٠ مليون كم٢ ويسكنها ٧٠٠ مليون انسان وسيصبح عدد سكانها ١٦٠٠ مليون عام ٢٠٢٥ والعجيب ان أي قرن لم يشهد زيادة وتراكماً في الأموال مثل القرن العشرين.

رغم ذلك يبقى لكل من الدول الغنية همومها ومشاكلها وكذلك للدول الفقيرة، فالدول الغنية تعاني كثيراً من الركود الاقتصادي والتنافس المحموم في الانتاج والتسابق للسيطرة على الأسواق العالمية ومن التضخم والبطالة والدول الفقيرة تعاني بشكل أشد من الفقر والجهل والمرض وصعوبة تأمين فرص عمل لأجيالها أو تأمين الحد الأدنى من مستوى الحياة الكريمة وإذا أضفنا لكل ما جاء سابقاً وضع القيود الجمركية والعراقيل على دخول البضائع المصنعة من الدول النامية إلى الدول الغنية الصناعية وفرض قيود اضافية على تصدير العلوم والتكنولوجيا الحديثة الى الدول النامية قد حرم هذه الدول من الشيء الكثير وعاد بها القهقرى إلى مستوى الحياة ما قبل عام ١٩٦٠ رغم التزايد السكاني الكبير لديها.

إذ ان أكثر من ٩٠٪ من التزايد السكاني العالمي حالياً يتم في الدول النامية وان عدد السكان فيها يزداد ١ مليار انسان كل حوالي ١٢ سنة، ومما يزيد الأمور تعقيداً هو تدني المساعدات المالية والفنية بشكل مستمر، لقد طالبت منظمة الامم المتحدة مراراً وتكراراً بأن تخصص الدول المتقدمة الغنية ١٪ من مجمل دخلها القومي للدول الفقيرة ووضعت استراتيجية للوصول إلى هذا الهدف عام ١٩٨٠ لكن دون جدوى ثم تنازلت الامم المتحدة إلى قيمة مساعدات أدنى بحيث تكون ٠,٧٪ لكن ذلك لم يتحقق أيضاً.

إذا أردنا ان نعرف شيئاً عن مساعدات الدول الغنية بين الأعوام ٩٧٠/ ٩٩٠ فهي كما يلي:

- المجموعة الأولى وتضم دولاً مثل هولنده، البلدان الاسكندنافية،

لم تصل نسبة المساعدات منها للدول الفقيرة ٢٠ , ٠٪ من دخلها القومي.
- المجموعة الثانية مثل فرانسا، ايطاليا وصلت مساعداتها ١٥ , ٠٪
- المجموعة الثالثة : أمريكا لم تتعد المساعدات ٢٤ , ٠٪ - ٢٨ , ٠٪
- المجموعة الرابعة : اليابان فقد وصلت مساعداتها إلى ٣٢ , ٠٪

وإذا أردنا على سبيل المثال ان نجري اسقاطات وتحليلات على مساعدات أمريكا خلال ٤٥ عاماً ماضية بين أعوام ١٩٤٨ ولغاية ١٩٨٩ نجد أنها قد وصلت إلى ٤١٢ مليار دولار منها ٢٨٠ مليار دولار للدعم الاقتصادي لمختلف الدول التي تعتبرها صديقة بالنسبة لها و١٣٢ مليار دولار للدعم العسكري حيث وزعت وفق ما يلي :

- اسرائيل : ٤٦ مليار دولار معونات رسمية والمبلغ الاجمالي وصل الى مليار دولار تقريباً بمعدل ٢٠٠٠ دولار لكل طفل أو امرأة أو رجل أو مسن سنوياً.

- أوروبا : عما في ذلك مشروع مارشال / ٤٧/ مليار دولار وذلك من أجل اعادة بناء أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية.

- أمريكا اللاتينية: ٢١ مليار دولار ل٢١ دولة.

- أفريقيا : ٣ , ١٦ مليار دولار، حيث لم يتعد حصة الفرد الواحد ٣ دولار سنوياً.

- دول الشرق الأوسط وجنوب آسيا: ١٠٠ مليار دولار.

- دول شرق آسيا: ٦٧ مليار دولار معظمها لشؤون عسكرية.

بالاضافة لتلك المشاكل والهموم أضيفت للدول النامية هموم جديدة مثل تراكم الديون اذ بينما كانت ديون الدول النامية الخارجية / ٧٠/ مليار دولار عام ١٩٧٠ تجاوزت عام ١٩٩٣ أكثر من ١٥٠٠ مليار دولار وعلى سبيل المثال فان ديون افريقيا حالياً تشكل ١٠٦٪ من مجمل دخلها القاري وان ديون دول امريكا اللاتينية تتعدى ٣٧٪ من مجمل دخلها القومي، ناهيك عن انخفاض أسعار المواد الاولية التي تتعمدها الدول الغنية والتي

ترغب ان تكون الدول النامية ليست سوى دول مصدرة للمواد الأولية ومستهلكة للمواد المصنعة، على سبيل الامثلة:

- في عام ١٩٦٠ كان من الممكن شراء ٦,٣ طن من البترول بثمن طن من السكر الا أنه في عام ١٩٨٢ لم يصبح من الممكن شراء أكثر من ٠,٧ طن من البترول ثمن طن من السكر.

- في عام ١٩٥٩ كان ممكن شراء بثمن ٢٤ طن من السكر تراكتور ذي قوة ٦٠٠ حصاناً، الا انه في نهاية ١٩٨٢ أصبح من الضروري تأمين ١١٥ طناً من السكر من أجل شراء نفس التراكتور.

- في عام ١٩٥٩ كان يمكن لواحد طن من أسلاك النحاس من الدول النامية شراء ٣٩ أنبوبة أشعة اكس من أجل الاستخدام الطبي، الا أنه في نهاية عام ١٩٨٢ أصبح الطن لا يشتري سوى ثلاثة أنابيب وحالياً لا يمكن شراء حتى أنبوب واحد.

من الجدير بالذكر ان توزيع المساعدات ليس عادلاً ولا يتم بحسب الحاجة ولكن وفق الانتماء والمصلحة العامة للغرب وغالباً ما يكون على شكل أموال ويجب على الدول الممنوحة شراء بضائع بثمنها من الدول المانحة، أو عبارة عن تقنيات أصبحت متخلفة، أو مواد غذائية ودوائية فاسدة.

لقد أصبحت الدول النامية ازاء هذا الوضع المشين تكرس أكثر من ٢٥٪ من دخلها للحصول على النقد الاجنبي، كما أثبتت الاحصائيات إلى أنه كلما ارتفعت الديون ١٪ على الدول النامية فانه يترتب عليها دفع ٣,٥ مليار دولار زيادة سنوية، كما ثبت أنه كلما زادت ديون الدول النامية أو حصولها على قروض جديدة تهرب منها أموالاً أكثر باتجاه الغرب.

لقد اعترف البنك المركزي المصري في تقريره عام ١٩٨١ بأن البنوك الاجنبية وشركات المتعددة الجنسيات قد ادخلت إلى مصر ١,٤ مليار دولار وبالتالي كانت هي المستفيدة الأكبر وليست مصر.

. تقدر الأموال العربية المودعة في الغرب حالياً بأكثر من ٦٧٠ مليار دولار لا يوجد ما يقابلها في الدول العربية .

ان الدول النامية لم تعد قادرة على الحصول على مساعدات خارجية وعلى قروض دولية أو من بنوك عالمية التي أصبحت بدورها شحيحة وذات شروط قاسية جداً للمنح، فمثلاً ان البنك الدولي أصبح يشترط على الدول التي ترغب في الحصول على قروض شروطاً مجحفة تعجيزية مثل :

١) تخفيض العملة المحلية .

٢) تجميد الأجور أو تخفيضها والغاء الحد الأدنى لها .

٣) عدم ربط الأجر بأسعار المواد والسلع .

٤) تخفيف نفقات الحكومة على القطاعات الخدمية مثل التعليم، الصحة، محو الأمية . . . الخ .

٥) تخلي الحكومات عن دعم السلع الاساسية وممارسة سياسة التقشف، فقد تخلت مصر عن دعم ١٣٨ سلعة أساسية في السنوات الاخيرة .

٦) تخفيض عدد العاملين في الدولة وايقاف التوظيف فمثلاً تحتاج الهند سنوياً إلى احداث / ٩/ مليون فرصة عمل جديدة حتى تستمر الحياة لديها بشكل طبيعي بينما يطالبها البنك الدولي من أجل منحها قروضاً جديدة الغاء / ٢-٣/ مليون فرصة عمل قائمة حالياً في كل من القطاع العام والمشترك والخاص سنوياً .

٧) التوقف عن اقامة مشاريع واستثمارات جديدة .

٨) بيع القطاع العام للقطاع الخاص، واكتفاء الحكومات بالاشراف على أمن الدولة والسياسة الخارجية والتنسيق بين الجهات المختلفة وجبي الضرائب وسن القوانين والانظمة .

٩) فتح الاسواق أمام السلع الاجنبية والشركات المتعددة الجنسية .

١٠) تضاف لذلك مجموعة شروط أخرى؛ لقد أجبرت الحكومة

الهندية في تموز عام ١٩٩١ على وضع ٤٧طن من الذهب في خزائن مصرف انكلترا ارضاء لطلبات الدائنين الاجانب.

بالاضافة لكل ما ذكر فان منظمات وأجهزة ودوائر الامم المتحدة وخبراءها كانت في الماضي تناصر الفقراء والدول النامية وتقدم دراسات وحلول لكثير من مشاكل هذه الدول لكنها باتت بين عشية وضحاها عميلة في يد البنوك الاجنبية تنفذ مآرب الحكومات الغربية والشركات المتعددة الجنسيات وأصبحت تقدم وصفات للدول النامية على حد زعمها ناجعة في خروج هذه الدول من مآزقها بينما هي في الحقيقة السم الزعاف الذي أصبح يفتك بالدول النامية ويغرقها أكثر فأكثر في همومها ومشاكلها حتى غدت مستعصية.

نستطيع في عجالة ان نحدد ضمن اطارات عامة التحديات التي تواجه الدول النامية بالبنود التالية:

١) تزايد النمو السكاني وعدم القدرة على استيعابه اذ على سبيل المثال فان نسبة عدد العاطلين عن العمل بين الشباب في الدول النامية تتراوح بين ٢٧ - ٧٢٪ والدول النامية بحاجة إلى ٤٤ مليون فرصة عمل جديدة سنوياً لأبنائها وقدرت الحاجة الكلية بين ١٩٨٠ و٢٠٠٠ بـ٨٨٠ مليون فرصة عمل وحسب تقديرات اليونسكو فانها بحاجة على الأقل أيضاً إلى ٧٥٠ مليون مسكن جديد في الفترة ذاتها وإلى بناء عشرات الآلاف من المدارس سنوياً وهكذا.

٢) انخفاض الدخل القومي ومتوسط دخل الفرد بوجه عام لدى الكثير من الدول النامية وعدم القدرة على الادخار وبالتالي عدم القدرة على الاستثمار الفردي أو الوطني.

٣) تراكم الديون الداخلية والخارجية وصعوبة تسديد أقساط هذه الديون أو فوائدها.

٤) انخفاض أسعار المواد الأولية التي يعتمد اقتصاد كثير من الدول

النامية عليها، مثلاً ان دولة النيجر التي تشكل ٧٥٪ من صادراتها مادة اليورانيوم تحتل حالياً المرتبة ١٧٩ بين الدول في متوسط دخل الفرد حيث لا يزيد عن ٢٦٠ دولار سنوياً وهي حالياً عاجزة حتى عن تسديد رواتب وأجور الموظفين والعمال لديها.

٥) نهب الغرب المتواصل لخيرات الدول النامية ولاسيما الشركات المتعددة الجنسيات التي يبلغ عددها حوالي ٢٩ ألف شركة ولها ١٧٠ ألف فرع موزعة في كثير من الدول النامية تقوم جميعها بامتصاص وشفط ما تبقى من خيرات الدول النامية وتحولها باتجاه الدول الغنية الصناعية (تزيد أرباحها السنوية من الدول النامية عن ٥٠٠ مليار دولار).

٦) تقوم الدول الغنية بتصدير مشاكلها ونفاياتها للدول النامية بما في ذلك الاغذية والأدوية الفاسدة والنفايات الخطرة والصناعات السامة والامراض الخطيرة مثل الايدز وغيره.

لقد قدمت منظمة اليونكتاد دراسة عام ١٩٨١ إلى مؤتمر دول عدم الانحياز المنعقد عام ١٩٨٣ تحدد هذه الدراسة كم من الوقت ستحتاج شعوب الدول النامية وبخاصة شعوب البلدان الأكثر فقراً للوصول لدخل الفرد الحالي في البلدان الرأسمالية المتطورة إذا ما استمرت وتأثر النمو لدى الدول النامية على وضعها الراهن وكانت خلاصة الدراسة ما يلي:

الدولة	الناتج القومي الاجمالي لكل مواطن من الدول المتقدمة ١٩٨٠ بالدولارات	البلدان النامية	البلدان النامية الأقل تطوراً
الولايات المتحدة	٩٨٩٠	عام ٢٤٠٧	عام ٦٠٠٧
المانيا الاتحادية	١١٠٩٦	عام ٣٤٦٣	عام ٦٥٠٨
فرنسا	٩٢٨٩	عام ٢٣٧٩	عام ٥٧٥٧
اليابان	٩٠٩٧	عام ٢٣٧٠	عام ٥٦٧٧
انكلترا	٥٦٢٠	عام ٢٢٠٨	عام ٤٢٣٣

أي ان الدول الأكثر فقراً وطبقاً لمعدلات نموها الحالية فانها تحتاج من ٢٠٠٠ سنة إلى ٤٠٠٠ سنة أو أكثر في بعض الحالات للوصول إلى مستوى متوسط دخل الفرد المحقق في الدول المتقدمة حالياً.

لقد أصبحت الدول النامية في وضع لا تحسد عليه ولا نصير لها ولم يعد يبقى منها كما يقول الشاعر إلا العظم والروح والجلد وباتت حكومات بعض الدول النامية عاجزة حتى عن الاتيان وتحقيق أبسط الانجازات ومجابهة أصغر التحديات، اذ كيف ستقوم بذلك وليس لديها موارد مالية أو تقنيات حديثة، أو أسواق خارجية ولا تقدم لها أية أنواع من المساعدات الفنية أو المالية من الدول الأخرى.

بذلك غدا العالم ولاسيما الدول النامية مؤلفاً من خليط عجيب من التناقضات والتحديات تتمثل بالصورة المشوهة التالية:

١) يزيد عدد الجائعين والمحرومين عن ١ مليار انسان بينما يعاني أكثر من ٢٥٪ من سكان امريكا لكافة الاعمار من زيادة في الوزن.

٢) يفتقر أكثر من ٢٠٠٠ مليون انسان لمياه الشرب النقية.

٣) لا يتوقع أكثر من ١٧٠٠ مليون انسان ان يعيش ٦٠ عاماً.

٤) يفتقر أكثر من ١٥٠٠ مليون للعناية الطبية.

٥) يصل عدد العاطلين عن العمل ولاسيما بين الشباب إلى ١ مليار انسان.

٦) يصل عدد الاميين إلى ٩٠٠ مليون انسان.

٧) يوجد أكثر من ٢٠٠ مليون طفل خارج المدارس.

٨) عدد الأطفال الذين يعملون ٢٠٠ مليون ومنهم من يعمل في صناعات خطيرة.

٩) عدد الذين يطلبون العمل في الخارج أكثر من ١٠٠ مليون انسان.

١٠) عدد الذين يعتمدون على الحطب لتغطية احتياجاتهم الحيوية أكثر من ١٥٠٠ مليون.

١١) نصف سكان الكرة الأرضيـة يقل دخل الفـرد منهم عن ٥٠٠ دولار ومن بينهم أكثر من ٨٠٠ مليون لا يصل متوسط دخل الفرد لديه إلى ١٥٠ دولار سنوياً.

١٢) / ١٤/ مليون طفل يموت سنوياً بسبب أمراض سهلة العلاج وكأن بالعالم الثالث يرمى بقنبلة ذرية من مستوى قنبلة هيروشيما كل / ٣/ أيام أي أكثر من ١٢١ قنبلة ذرية في كل عام.

لهذا فان العالم حالياً أحوج ما يكون سواء بالنسبة للاغنياء أو الفقراء ولمصلحة الجميع إلى المثل العليا المنقذ الوحيد وإلى عشرات بل آلاف من الفلاسفـة والحكماء وإلى مئات الملايين من الخيرين من أجل تصحيح الحالات الشاذة التي تقود العالم نحو الدمار الشامل، ان العالم احوج ما يكون إلى نظام عالمي جديد ليس بالشكل الذي تطرحه الدول الغنية أو تحاول فرضه بل نظام عالمي جديد كما تطرحه الشعوب ويحقق أمانيها نظام يستطيع ان يحقق العدالة والحرية والانصاف ومستوى من المعيشة معقولاً، ان أكثر من ٢٠ ألف مليار دولار الذي هو دخل الكرة الأرضية السنوي حالياً لو وزع بشكل منصف ولمصلحة الجميع لكان نصيب كل فرد في العالم من طفل وامرأة ورجل وعجوز ٤٠٠٠ دولار سنوياً على الأقل كافية لتحقيق المعجزات فمتى يصحو هذا العام المجنون ويعود لرشده.

- البيئة التلوث:

ما أجمل الأرض، هذا ما قاله رواد الفضاء جميعهم بلا استثناء وكلّ منهم كان يتوق للعودة بحنين جارف اليها بالرغم من أهمية الرحلات الفضائية.

يالله ما أجمل الطبيعة عندما يسير الانسان بين ربوعها وينعم بأحضانها ويتمتع بجمالها وسحرها ويستنشق الهواء العليل ويشاهد الشلالات والمياه العذبة تتدفق من جبالها أو ينابيعها وما أروع موارد الأرض عندما تقدم لنا الغذاء والكساء والسكن الآمن وكل ما يحتاجه الانسان من

مستلزمات لبقائه وتطوره وزراعته وصناعته، لكن بالمقابل هل حاول الانسان حقيقة الحفاظ على الطبيعة وديمومتها وسخائها وحنانها الذي لا ينضب؟ الجواب: بالواقع، لا وبخاصة في القرن العشرين وبشكل حاد في النصف الثاني منه، لقد استهلك الانسان موارد الطبيعة باجحاف في هذا القرن أضعاف ما استهلكه منها خلال القرون الماضية. ان ما بنته (أي الطبيعة) خلال مئات ملايين السنين من الوقود الاحفوري فان الانسان سيستهلكه خلال ١٠٠ - ١٥٠ عاماً. ولا أحد يتصور كيف ستكون حياة البشرية بعد الانتهاء من الوقود الاحفوري الذي لن يسبب نضوبه أزمة طاقة حادة فحسب ولكن سيؤثر بشكل جوهري على الحياة برمتها ولاسيما حياة الانسان والحيوان والنبات التي تعتمد في بيئتها ووجودها بشكل أساسي على مادة الفحم، بالاضافة لذلك فان البشرية تستهلك من المعادن أضعاف مضاعفة عما تم في القرون السابقة ويقدر استهلاك البشرية حاليا من الموارد المعدنية بـ١٥ مليار طن سنويا، وإذا بقي الوضع على حاله فان الاعمار المقدرة لبعض موارد الكرة الارضية ستكون وفق الجدول رقم / ١/ التالي:

جدول رقم / ١/

المـادة	معدلات الاستهلاك الحالي		حسب معدلات الاستهلاك عام ٢٠٣٠	
	حسب المتوفر تجارياً سنة	الاحتياطي المتبقي سنة	حسب المتوفر تجارياً سنة	الاحتياطي المتبقي سنة
الالمونيوم	٢٥٦	٨٠٥	١٢٤	٤٠٧
النحاس	٤١	٢٧٧	٤	٢٦.
الموليبدن	٦٧	٢٥٦	٨	٣٣
النيكل	٦٦	١٦٣	٧	١٦
البلاتين	٢٢٥	٤١٣	٢١	٣٩
الفحم	٢٠٦	٣٢٢٦	٢٩	٤٥٧
النفط	٣٥	٨٣	٣	٧

لقد تضاعف التصنيع في العالم / ٥٠/ مرة خلال ١٠٠ عام وان ٨٠٪ من هذه الزيادة قد تمت منذ عام ١٩٥٠ حتى الوقت الحاضر كما ازداد استخراج الثروات المعدنية من / ٥/ مليار طن عام ١٩٥٠ وليصل الى / ١٢/ مليار طن في أواسط السبعينات، لقد أدى استنزاف الثروات المعدنية بكميات كبيرة وغير عقلاني الى اطلاق غاز الفحم في العالم بشكل هائل بحيث اصبح يطلق ٩ , ١ طن من غاز الفحم بالمتوسط لكل انسان سنوياً وهناك بالمقابل ٣ , ٢ طن في اوروبا وفي الولايات المتحدة أكثر من ٥ طن أي المجموع نحو ١٠ مليار طن سنوياً، أضف لذلك ما تم تدميره من طبقة الاوزون وتلوث الهواء والماء والتربة والغذاء.

تقدر الفضلات الناتجة عن الانسان والزراعة والصناعة بـ ١٤٠ طن لكل فرد سنوياً أي ما يعادل ٧٧٠ مليار طن من الفضلات للجميع، وجزءاً كبيراً من هذه الفضلات سامة حيث تقدر بمليون طن يوميا أي حوالي ٣٦٠- ٤٠٠ مليون طن سنوياً منها ٧٠ مليون طن من النفايات النووية نصيب امريكا و ٥٠ مليون طن الاتحاد السوفيتي السابق و/ ٣٥/ مليون طن اوروبا تصل نفقة دفن طن من المواد السامة في افريقيا / ٢٠٠/ دولار وفي اوروبا ٢٠٠٠ دولار على الاقل لذلك هناك مساعي حميمة لنقل النفايات للدول النامية، كما يقدر انه في عام ٢٠٠٠ ستكون حجم النفايات المشعة على النحو التالي:

- امريكا ٦ , ٣ مليون م٣
- الاتحاد السوفيتي السابق ٥ , ١ مليون م٣
- فرنسا ٨٣٥ ألف م٣
- انكلترا ٥٧٠ ألف طن.

لكي ندرك مدى تدمير الطبيعة اذكر ما جاء في مجلة العلم والحياة الفرنسية أن امريكا استخدمت مادة «البيلوشرام» وهي من فصيلة «البريدينات» التي يمكن ا ن تقضي على النباتات اذا استخدمت بمعدل ٦٠

غراماً لكل هكتار ولكن الاميركين أمطروا كل هكتار من الارض الفيتنامية خلال ١٠ سنوات بين ١٩٦٥ - ١٩٧٥ ما يصل معدله ١,٧ كغ وقد بلغ مجموع ما اسقط ٧٢ طناً من المواد الكيميائية الخطرة والمبيدات الحشرية، وبالرغم من اعادة زراعة نصف المساحات المدمرة من الاشجار المسمومة ما زال تلوث البشر والطبيعة مستمراً على حد سواء، ولقد اختفى ٧٠ ألف هكتار من أشجار المنغروف في تلك البلاد.

لقد قال العالم «نبتين ديسو» في مؤتمر قمة الأرض إنَّ الكرة الأرضية بحاجة لنفقات تصل إلى ١٢٥ مليار دولار سنوياً على الأقل من أجل ازالة التلوث ولمدة لا تقل عن ٧ سنوات. هذا يجب ان لا ننسى بالاضافة لذلك النشاطات العسكرية ومدى تأثيرها على تدمير البيئة، فلقد بلغ عدد التجارب النووية في العالم في الفترة من ١٦ تموز ١٩٤٥ وحتى ٣١ كانون الأول ١٩٨٨ / ١٧٩٠/ تجربة منها:

- ٩١٠ تجربة نووية اميركية ومن هذه التجارب تجربة قنبلة نووية حرارية (هيدروجينية) عام ١٩٥٤ بزنة ١٥ ميغا طن ت ن ت أي أقوى من القنبلة الذرية التي القيت على هيروشيما بـ١٠٠٠ مرة
- ٦٣٦ تجربة نووية قام بها الاتحاد السوفيتي سابقا
- ٣١ تجربة نووية تمت من قبل الصين
- ٤١ تجربة نووية تمت من قبل انكلترا
- ١٧٢ تجربة نووية تمت من قبل فرنسا
- /١/ تجربة نووية تمت من قبل الهند

والجدير بالذكر أنه يوجد في العالم حالياً قنابل نووية وصواريخ حاملة لمواد نووية تقدر بأكثر من مليون قنبلة من مستوى قنبلة هيروشيما وهي كافية لقتل ١٠٠ مليار انسان أي مجموع البشر «الاحياء منهم والاموات»، وهي تعادل بمجموعها اكثر من ١٦ ألف ميغا طن من مادة ت ن ت. هذا ناهيك عن مئات المفاعلات النووية الموزعة في جميع انحاء الارض والتي تمثل قنابل

موقوتة لا يعرف أحد متى ستنطلق من عقالها، بالاضافة لذلك فان الدول المتقدمة تسعى جاهدة للتخلص من النفايات النووية سواء بالاتفاق مع الدول النامية أو عن طريق خداعها بل تحاول خداع بعضها بعضاً فلقد اكدت روسيا منذ أيام انه منذ ١٩٨٧ ولغايته جرت ٩٦ محاولة لإدخال المواد السامة الخطيرة إلى روسيا تقدر بـ٣٤ مليون طن من قبل شركات المانية، فرنسية، اسبانية، سويسرية اميركية، كندية وغيرها.

ان تدمير البيئة لا يجري على الأرض فقط من قبل الدول الغنية وهي الأكثر تدميراً والأكثر مسؤولية (يبلغ نصيب امريكا ثلث التلوث العالمي ولكن أيضا من قبل سكان الدول النامية أما نتيجة الجهل أو الحاجة أو مرغمة على ذلك.

ان المساحة الاجمالية لليابسة في العالم تقدر بـ١٣٥٠٠ مليون هكتار، ٥٩٪ منها أي ٨ آلاف مليون هي أراض صحراوية ومالحة جداً ومغطاة بالثلوج والجبال ويوجد حوالي ١٥٠٠ مليون هكتار من الأراضي المزروعة أي تشكل ١١٪ من مجمل اليابسة، وتبلغ مساحة الأراضي الأخرى الصالحة للزراعة والمتوفرة بـ٢٤٢٥ مليون هكتار كحد أقصى يمكن لو أحسن استخدامها اطعام ١٢ مليار انسان اضافي، ومن الممكن زيادة الانتاج الزراعي في الدول النامية بمعدل ٤٪ سنوياً وذلك في حال تحسين أنظمة الري وزيادة استخدام الاسمدة والمبيدات الحشرية وتطوير المكننة واستعمال الأنواع المحسنة من البذور، لكن ذلك كله اذا كان يحتاج إلى ٥٧ مليار دولار عام ١٩٩٠ غدا حالياً بحاجة إلى ٧٨ مليار دولار سنوياً تصرف سنوياً حتى عام ٢٠٠٠.

هناك عوامل تمنع هذا التقدم الزراعي في الدول النامية اذ بالاضافة للحاجة الماسة للمال (علماً بأنه غير متوفر) هناك تآكل التربة وفقدان الخصوبة وتردي جزء كبير من الأراضي الزراعية لاسباب عديدة منها:

- قطع الغابات.

- الاستخدام السيء للأراضي الزراعية .
- زيادة التصحر .
- التآكل الذي تسببه الامطار والرياح والفيضانات .
- التزايد السكاني الكبير في الدول النامية وغيرها من العوامل الهامة .

أي يتطلب بالاضافة للمال بذل الجهود الكبيرة وتوفير الاحتياجات اللازمة .

لقد أثبتت التجارب العلمية بأن الطبيعة تحتاج من ١٠٠- ٤٠٠ سنة لانتاج طبقة نباتية جديدة بسمك ١ سم، وتقدر دراسة صادرة عن الفاو أن ٣٥٪ من الأراضي الافريقيـة تعاني من أضرار شديدة بسبب التآكل والفيضانات أو الملوحة، بالاضافة لما ذكر تحتل المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية حوالي ١/ ٥ مساحة اليابسة والصحراء تبتلع سنوياً ٦ مليون هكتار جديد من الأراضي القابلة للزراعة وهذا يعني في نهاية المطاف فقدان أكثر من ١٠٠ مليون هكتار من الأراضي الزراعية بين عامين ١٩٨٣- ٢٠٠٠ .

كما أن الأراضي المروية حسب تقديرات منظمة الفاو تفقد زراعياً سنوياً ١٢٥ ألف هكتار بسبب الملوحة والقلوية أو التحول إلى مستنقعات أي بمعنى آخر سيتم فقدان ٣ مليون هكتار من الأراضي المروية حتى عام ٢٠٠٠ .

أما فيما يتعلق بمساحات الغابات ولاسيما في الدول النامية فقد كانت تقدر بـ ١٢٠٠ مليون هكتار غير أن بين عامي ١٩٠٠- ١٩٦٥ أزيلت الاشجار من نصف مساحة الغابات في الدول النامية وتخسر الاشجار حالياً من ١٥- ٢٠ مليون هكتار كل عام أي اذا بقي قطع أشجار الغابات في الدول النامة على هذه الوتيرة فستزول خلال ٨٠ عاماً القادمة ورغم أن الجهود الرامية إلى التشجير هي جهود ضعيفة نسبياً ولا تصل إلى مستوى عشر ما تحتاج إليه البلدان النامية وستبقى عاجزة لأن بعض الغابات يعود عمرها إلى ١٥٠ مليون سنة، أهم الأسباب لازالة الغابات يعود إلى ما يلي :

١) استخدام الأخشاب من أجل الحاجات اليومية ولاسيما في التدفئة والطهي ويقدر استخدام الاخشاب لهذه الغاية بـ٩٠٪ من الاشجار المقطوعة وتغطي حاجات أولية لـ٢ مليار انسان.

٢) استغلال الغابات كمصدر للربح.

٣) الطلب المتزايد على الأخشاب من الدول المتقدمة من أجل الصناعة.

وحسب توقعات دراسات أجريت في أمريكا ان مساحة الغابات ستتقلص في البلدان المتطورة بنسبة ٥,٠٪ حتى عام ٢٠٠٠ بينما سيصل التقلص في البلدان النامية إلى ٤٠٪. وأيضاً حسب معطيات الفاو كان انتاج الخشب من أجل الصناعة في عام ١٩٧٥ يقدر بـ١٥٥ مليون م٣ وستكون الحاجة إلى ٣٢٥ مليون م٣ في عام ٢٠٠٠ كذلك استخدمت الدول النامية ١٤٢٠ مليون م٣ من الاخشاب كفحم وحطب في عام ١٩٧٨ ما كانت لتستخدمها لو توفر لديها مصادر طاقة أخرى بديلة أو أموال لشراء الطاقة من الخارج ولأنقذت الشيء الكثير وحافظت على الطبيعة بشكل أفضل وعلى مصير ومستقبل الانسانية لقد اثبتت الكثير من الدراسات أن الغابات الاستوائية التي تغطي حالياً ٧٪ من مساحة اليابسة على كوكب الأرض يعيش فيها ٦٠٪ من أنواع الحيوانات والنباتات في العالم، حيث يقدر عدد أنواع الحشرات لوحدها بـ٥-٣٠ مليون نوع وينقرض سنوياً أكثر من ١٧٥٠٠ نوع من الحيوانات والنباتات لا يمكن ان تعوض ثلث هذه الغابات في البرازيل حيث يدمر في كل ثانية ما يعادل مساحة ملعب كرة قدم وتعطي هذه الغابات نصف أوكسجين العالم ويكمن في جوفها ٢٠٪ من احتياجات المياه الحلوة في الأرض ان أهم ما في الحياة تلك الأراضي الزراعية وهذا التنوع البيئي الذي لا يقدر بثمن ولو ان مراقباً فلكياً يرصد الأرض من كوكب آخر لقال «تباً للانسان على الأرض كم هو أحمق ومخرب وأرعن، فجميع النباتات والحيوانات تتقيد بنواميس الطبيعة الا هو يتمرد عليها

ويعاندها ويعيث في الأرض فساداً، حيث ينفق امواله وطاقاته في غير مواضعها ومكانها الطبيعي، أما آن لهذا الانسان ان يبلغ سن الرشد فيتوقف عن هذه المراهقة وعن هذا التخريب المدمر الذي سيكون في نهاية المطاف تدمير ذاته وتدمير الطبيعة، وكل من حوله حيث لا ينفع الندم ولا تفيد التوبة».

انني عندما ادعو للعودة للطبيعة والحفاظ عليها لا أعني بذلك التخلي عن العلوم والتكنولوجيا ورفاهية الانسان، بل ادعو الى بذل مزيد من الجهد من أجل تخفيض استنزاف موارد الطبيعة وخيراتها وترشيد استهلاكها والتوفيق بين رغبات وحاجات الانسان واحتياجات الطبيعة وديمومتها، على سبيل المثال لقد استطاعت اليابان تخفيض وزن أول حاسب الكتروني تم بناؤه في عام ١٩٤٦ من ٥٠ طناً إلى ١٠ غرامات فقط، كما استطاعت تخفيض ثمنه من ٢٢ مليون دولار الى ١٨ دولار فقط ويقوم الحاسب الجديد بنفس وظائف ومهام الحاسب القديم، هذا هو الابداع المنشود.

اين نحن من المثل العليا التي تعطي للانسان حقه وللطبيعة حقها وتحكم التوافق بينهما؟، أين نحن من تلك المثل العليا التي تحقق الحياة الابدية الأفضل للجميع؟، ان ذلك بلا شك من مسؤوليات الجميع وليس عليها بعسير ان ارادت.

- الحروب والنفقات العسكرية:

يبدو منذ وجود أكثر من انسان على وجه الأرض ظهرت الخلافات والنزاعات والحروب وكانت الحروب في أولها محدودة العدد والعدة وكذلك محدودة الخسائر وغالباً ما كانت تجري من أجل التنازع على الصيد أو الحصول على المياه أو الدفاع عن الوطن أو الشرف أو بهدف السلب والنهب، لكن هذه الحروب أخذت طابعاً متصاعداً ولم تعد تجر بين القبائل أو بين الدول المجاورة فحسب لكنها امتدت الى اماكن بعيدة وأخذت أزماناً أطول وخسائر أكبر وطابعاً استعمارياً، تشير بعض الاحصائيات إلى أنه حدث في الأرض قرابة ١٥ ألف حرب وصراع خلال ٥٥٠٠ سنة ماضية،

بمعدل ٢ - ٣ حروب سنوياً، وقد قتل فيها أكثر من ٣٥٤٠ مليون انسان أي قرابة ٨٠٪ من عدد سكان العالم حالياً، ولم يعش البشر في حالة وئام وسلام الا في غضون ٢٩٢ سنة فقط، كما تشير هذه الاحصائيات إلى أن الحروب في أوروبا قد غطت نصف تلك الحروب، حيث هلك في:

- القرن السابع عشر ٣,٣ مليون انسان
- القرن الثامن عشر ٥,٢ مليون انسان
- القرن التاسع عشر ٥,٥ مليون انسان

كما شهد القرن العشرين حربين كونيتين، الحرب العالمية الأولى والتي امتدت بين عامي ١٩١٤ - ١٩١٨ وشملت ثلثي الكرة الأرضية وجرت المعارك في كل من أوروبا وآسيا وأفريقيا وحمل السلاح فيها ٥٠,٥ مليون انسان وسببت في قتل ٩,٥ مليون انسان وجرحت وشوهت ما يقارب ٢٠ مليون انسان وهلك ١٠ مليون انسان من الجوع والمرض وساهمت فيها ٣٣ دولة ووقعت على أراضي ١٤ دولة وقد بلغت التكاليف كما قدرت في ذاك الوقت بـ٣٦٠ مليار دولار، بينما الحرب العالمية الثانية وقعت بين عامي ١٩٣٩ - ١٩٤٥ واشتركت فيها ٦١ دولة جرت هذه الحرب فوق أراضي ٤٠ دولة ووصل تعداد الجيوش إلى ١١٠ مليون انسان وبلغت الخسائر اليومية ٢٥٢٠٠ قتيل (بينما لم يتجاوز عدد القتلى ٦٥٠٠ قتيل يومياً في الحرب العالمية الأولى) وقد قتل فيها ٥٠ مليون انسان ٢٧٪ منهم في ساحات القتال وخسر الاتحاد السوفيتي السابق بمفرده ما يلي: ٢٠ مليون قتيل وتدمير ١٧١٠ مدينة و٧٠ ألف قرية و٦ مليون مبنى وخلفت وراءها ٢٥ مليون انسان بدون مأوى وخسر فيها الاتحاد السوفيتي أيضاً ٣٠٪ من ثرواته الوطنية وقدرت تكاليف هذه الحرب بين ٣٣٠٠ - ٤٠٠٠ مليار دولار بالاضافة لذلك اندلعت حروب محلية ونزاعات بلغ عددها ٣٦ في ٤١ بلدا عام ١٩٨٦ و٣١ نزاعا عام ١٩٩٠ و٣٠ نزاعاً عام ١٩٩٢ ويقدر عدد الحروب التي تمت بعد الحرب العالمية الثانية بمجملها بقرابة ١٥٠ حرباً وبلغ عدد

ضحاياها ١٠ مليون انسان، تقول الكاتبة «روزا لوكسبمورغ» «لم يثبت التاريخ لنا أكثر من ان جميع الحروب والحضارات التي قامت حتى الآن كان عمادها الدم وجماجم الفقراء بدءاً من الملايين التي سحقت تحت حجارة الفراعنة ووصولاً إلى الملايين الافريقية التي شرب فراعنة رأس المال في أوروبا وأمريكا نخب حضارتهم المزيفة بجماجمها في أسواق النخاسة والتي ستبقى جرحا غائراً في ضمير البشرية».

ان البشرية والمثل العليا والقيم الاخلاقية والانسانية ترفض بوجه عام الحروب رغم أنّ لها في بعض الحالات ما يبررها مثلاً، ان كفاح الوطن العربي بأي اسلوب كان سواء حرباً أم سلماً هو أسلوب مشروع من أجل استراد الأراضي المحتلة واستعادة الحقوق المغتصبة، لكن هناك الكثير من الحروب لم يكن لها مبرر ولا طائل وكان يمكن تجنبها حتى من بينها الحرب العالمية الأولى والثانية، لقد مضى الانسان بجنونه وتهوره وطمع الدول الغربية عموما قدما باتجاه المزيد من التسلح والنفقات العسكرية، حيث تجاوزت نفقات التسلح الرقم الخيالي ٦٠٠٠ مليار دولار ابتداء من الحرب العالمية الثانية وحتى عام ١٩٨٠ وهي تعادل مجمل الناتج القومي الاجمالي للكرة الأرضية من أغنياء وفقراء في عام ١٩٧٥، وتقدر النفقات المطلوبة بين عامي ١٩٨٠ و٢٠٠٠ رقماً خيالياً ثانياً يصل الى ١٥٠٠٠ مليار دولار.

نجد في الشكل رقم / ١/ النفقات العسكرية العالمية بين عامي ١٩٤٨ - ١٩٨٠، كما نجد في الشكل رقم / ٢/ التجارة العالمية للاسلحة وفي الشكل رقم / ٣/ حصة العالم الثالث في اجمالي النفقات العسكرية كنسبة مئوية، كما نجد أخيراً في الشكل رقم / ٤/ اتجاهات الانفاق العسكري اللامعقول في العالم، يقدر عدد الجيوش حاليا في العالم بحدود ٢٥ مليون انسان منها ١٥ مليون انسان في الدول النامية، كما تتكدس الاسلحة التقليدية والنووية بكميات كبيرة تقدر بحوالي مليون قنبلة ذرية من حجم قنبلة هيروشيما واذا اخذنا بعين الإعتبار ان ٤٥ غراما من مادة ت ن ت

كافية لقتل الانسان وان المتوفر حالياً يزيد عن ١٦ ألف ميغا طن ت ن ت تكفي لقتل البشرية عدة مرات أي لقتل ما بين ١٠٠ – ٢٦٠ مليار انسان على الأقل، علماً بأن سكان الكرة الأرضية حالياً قرابة ٥,٥ مليار انسان، ان الصاروخ MX يحمل عشرة رؤوس نووية مستقلة قدرة كل منها ٦٠٠ ك طن من مادة ت ن ت أي ما يعادل ٥٠ قنبلة ذرية من حجم القنبلة الذرية التي اسقطت على هيروشيما، بل هناك قنابل نووية حرارية تصل قدرتها الى ٥٠ ميغا طن ت ن ت تعادل كل منها ٥٠٠٠ قنبلة ذرية مثل قنبلة هيروشيما، أليس هذا هو الجنون والانحطاط بعينه؟ يقدر عدد الذين يعملون بشكل مباشر أو غير مباشر بنشاطات عسكرية بـ٢٠٠ مليون شخص وهذا الرقم يصل الى ثلاثة أمثال عدد المدرسين والاطباء في العالم بأسره، بل يقدر عدد العلماء والمهندسين الذين يعملون في تطور البحث العلمي العسكري بأكثر من نصف مليون انسان ويصل الانفاق العسكري السنوي حالياً الى ٩٠٠ مليار دولار، علماً بأن النفقات العسكرية ليوم واحد كافية لتحقيق برنامج القضاء الكلي على الملاريا في العالم، ان تكاليف تدريب العسكريين في الولايات المتحدة تمثل اكثر من ضعف ميزانية التربية والتعليم لـ٣٠٠ مليون طفل في سن الدراسة في دول جنوب آسيا، كما ان تكلفة نموذج لقاذفة حديثة يعادل رواتب ٢٥٠ الف مدرس خلال سنة أو بناء وتجهيز ٧٥ مستشفى ذات ١٠٠ سرير لكل منها، وان ثمن غواصة نووية مثل ترايدانت تعادل تكلفة انشاء ٤٠٠ ألف منزل يمكن ان تستوعب ٢ مليون انسان، وهل يعقل ان يكون في البلدان النامية جندي واحد مقابل كل ٢٥٠ مواطنا بينما طبيب واحد لكل ٣٧٠٠ مواطن، كما يقابل كل ١٠٠ ألف مواطن في الكرة الأرضية ٥٥٦ جندياً و٨٥ طبيباً ويقدر نصيب الجندي الواحد في العالم من النفقات العسكرية بـ١٩٣٠٠ دولار بينما النفقات العامة المخصصة لمجالات التعليم والتربية لا تتعدى ٣٨٠ دولار لكل طالب في المدارس العامة.

ان الدول النامية مغلوبة على أمرها مهضومة حقوقها وعليها ان تدفع

الأموال الكثيرة من أجل شراء الاسلحة للدفاع عن نفسها فهي توظف ٩,٥٪ من اجمالي ناتجها القومي للنفقات العسكرية، في حين تخصص ١٪ للصحة العامة و٨,٢٪ للتعليم الاساسي وصدق أو لا تصدق ان ما ينفق على الشؤون العسكرية في يوم واحد يكفي لاطعام شعب أفريقيا بكامله، ان ٢,٥ مليار دولار التي يمكن ان ينفقها العالم على الشؤون العسكرية في اليوم تكفي لانقاذ:

- /١٥/ مليون طفل من الموت
- /٢٠٠/ مليون طفل من الجوع
- /٦٠٠/ مليون طفل من الفقر

فكم هو جميل ورائع ان تنفق المخصصات للشؤون العسكرية على الشؤون الاجتماعية والتعليمية والثقافية والصحية، وما أروع ان تعيش البشرية في سلام ما تبقى لعمر هذا الكوكب الجميل جغرافيا والمقدر بـ/١/ مليار سنة. وما أعظم ان تردد البشرية مع شاعر الهند العظيم طاغور دعاءه «اللهم اجعلني أحب الناس جميعاً كما أحب نفسي وأن أحاسب نفسي كما أحاسب الناس جميعاً» ما أحوجنا إلى مثل عليا حقيقة تنقذنا من هذه الأوضاع المأسوية المتردية التي تسود العالم حالياً والتي اذا استمرت سوف تحرق الاخضر واليابس وسيكوى الجميع بنارها ولن يبقى في النهاية لا أرض ولا وطن ولا انسان.

أهم المراجع

- المثل العليا والواقع د. محمد عبد السلام
- دليل العالم ١٩٩٢ د. عبد الرحمن حميدة، د. ساطع محلي
- أزمة العالم (الازمة الاقتصادية والاجتماعية العالمية) فيدل كاسترو
- نظام النهب العالمي ترجمة غازي أبو عقل
- العالم الثالث وتحديات البقاء (عالم المعرفة ١٠٤) تأليف جاك بوب ترجمة أحمد فؤاد بليع
- مختارات من المعلومات الدولية وغيرها

ثورة الزنج في العصر العباسي

عبد القادر الفياض

إن ديمومة القهر والظلم والفقر والحرمان، سيؤدي بالضرورة الى نمو بذور ثورية في أرض خصبة تؤتي أكلها في يوم قد لا يطول موعده.

إن سوء الإدارة في الدولة العباسية، وهدر الأموال، والإكثار من العبيد والغلمان والجواري، أعطى نتائج سلبية كانت عواقبها وخيمة وخطيرة فكثرت الفتن والثورات وكان أخطرها ثورة

عبد القادر الفياض: باحث من سورية، يهتم بالدراسات التاريخية والإجتماعية، ينشر في الدوريات المحلية والعربية. من مؤلفاته «فصيحات العرب وبليغاتهم»

الزنج. . . ؟ الزنج الذين يكسحون السباخ وبلغ تعدادهم حوالي ثلاثمائة ألف انسان» مقاتل في العراق بعد تنظيمهم في جيش الزنوج.

مؤسس حركة الزنج: أبو انكلاي.

زعم أنه: «علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب».

وزعم أيضاً أن اسمه «علي بن محمد بن عبد الرحيم ونسبه في عبد قيس». وادعى أنه «علي بن عبد الله بن محمد بن الفضل بن الحسن بن عبيد الله ابن العباس بن علي بن أبي طالب».

وقال عن نفسه بأنه «عمر العلوي أبو الحسن» يحيا به عمر المقتول بناحية الكوفة[1] كان يحاول مؤسس حركة الزنج اثبات صحة نسبه الى البيت العلوي، لكسب عطف الناس ولتكون دعوته مشروعة ضد العباسيين، ولكن أعماله كانت عكس مايدعيه؟

المؤرخون:

أطلق المؤرخون عليه اسم الخبيث، أو صاحب الزنج لكثرة الأسماء التي كان يدعيها، وأجمع المؤرخون بأنه فارسي من قرية ورزنين خارجي المذهب. ذكر صاحب سير أعلام النبلاء عنه فقال: «كان منجماً طرقياً ذكياً حرورياً ماكراً، داهية، منحلاً، يتستر بالإنتماء إليهم، وإلا فالرجل دهري فيلسوف زنديق»[2].

أما صاحب مروج الذهب فيقول: «إنه دعي آل أبي طالب «ينكرونه» وكان من أهل قرية من أعمال الري يقال لها ورزنين، وظهر من فعله مادل تصديق مارُمي به من يرى رأي الأزارقة من الخوارج لأن أفعاله في قتل النساء والأطفال وغيرهم من الشيخ الفاني وغيره ممن لايستحق القتل يشهد بذلك»[3].

والمؤرخ المسعودي ينفي عن صاحب الزنج النسب والإنتساب الى البيت العلوي ويذكر الحادثة التالية التي يقطع بها الشك باليقين فيقول:

«وبلغ من أمر عسكره أنه كان ينادي فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من ولد هاشم وقريش وغيرهم من سائر العرب وأبناء الناس، تباع الجارية بالدرهمين والثلاثة، وينادي عليها بنسبها: هذه ابنة فلان الفلاني لكل زنجي منهم العشرة والعشرون والثلاثون: يطؤهن الزنج، ويخدمن من النساء الزنجيات، كما تخدم الوصائف ولقد استغاثت الى صاحب الزنج امرأة من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب كانت عند بعض الزنج وسألته أن ينقلها منه الى غيره من الزنج أو يعتقها مما هي فيه فقال لها هو مولاك وأولى بك من غيره»(٤).

سلوكه:

قال صاحب الزنج أبو أنكلاي «ولقد عرضت علي النبوة فأبيتها لأن لها أعباء خفت أن لا أطيق حملها «المنتظم ١٢/ ١٢٥».

كان له منبر في مدينته المختارة يصعد عليه ويسب عثمان وعلياً ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة، وهذا رأي الخوارج الأزارقة «النجوم الزاهرة ٣/ ٤٨». كان حصيلة ماقتله من المسلمين ألف ألف وخمسمائة ألف مابين شيخ وشاب ذكر وأنثى «النجوم الزاهرة ٣/ ٤٨».

قتل علي بن يزيد العلوي صاحب الكوفة «النجوم الزاهرة ٣/ ٣١».

كل أعماله تنفي عنه صفة الإنتساب الى الإسلام أو العرب أو الى البيت العلوي؟.

انطلاقة صاحب الزنج:

في سنة «٢٤٩هـ» ادعى بمدينة هجر في البحرين بأنه علي بن عبد الله . . . بن أبي طالب» ودعا الناس الى طاعته واتبعه كثرة من أهلها وأحلوه بمحل نبي، وجبى الخراج ونفذ فيهم حكمه واختلف معهم ورحل عنهم الى الإحساء ونزل على بني الشماس من التميم، وكان يصحبه أتباعه، يحيى بن محمد الأزرق البحراني، وسليمان بن جامع، وفي كل مكان يحل به يدعي النبوة أو علم الغيب، وكان يقصد الناس الذين يسودهم الجهل والفقر،

وقال لأهل البادية «إنه يجابه عمر العلوي أبو الحسن المقتول بناحية الكوفة) فخدع أهلها فأتاه منهم جماعة كثيرة.

وفي سنة (٢٥٤هـ) قدم البصرة ونزل في بني ضبيعة فاتبعه منهم جماعة كبيرة ومنهم علي بن أبان المهلبي، وكان بها فتنة بين طائفتين البلالية والسعدية، وطمع في استمالة إحداها، ولكنه فشل في طلبه.

ودخل الى بغداد ومعه صحبه، وانتسب الى محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد فزعم أنه ظهر له آيات عرف بها مافي ضمائر أصحابه ومايفعل كل واحد منهم فاستمال جماعة من أهل بغداد منهم جعفر بن محمد الصومالي وغيره»[٥].

وفي سنة (٥٥هـ) عاد صاحب الزنج للبصرة وكانت الفوضى تعيث بها بعد أن هاجمت البلالية والسعدية في شهر رمضان سجون البصرة وأُطلق كل من فيها وانضم اليه بعض من هوب من السجن لصلته بهم، ونزل بقصر القرشي على نهر يُعرف بعمود ابن المنجم وأظهر أنه وكيل لولد الواثق في بيع السباخ فأقام هنالك[٦] مع صحبه.

الوسط الزنجي:

يقول صاحب سير أعلام النبلاء عن ظهور صاحب الزنج في البصرة سنة (٥٥هـ) «ظهر في البصرة واستغوى عبيد الناس وأوباشهم فتجمع له كل لص ومُريب وكثروا فشد بهم على أهل البصرة وتم له ذلك واستباحوا البلد واسترقوا الذرية وملكوا . . . واستفحل بلاؤه وطوى البلاد، وأباد العباد وكاد أن يملك بغداد . . . وزاد جيشه على مئة ألف ولولا زندقته ومروقه لاستولى على الممالك[٧]».

لقد نشط صاحب الزنج في الوسط الزنجي الذين يكسحون السباخ في حقول البصرة وهذا الغلام ريحان أحد غلمان السورجين يقول «كنت موكلاً بغلمان مولاي أنقل لهم الدقيق فأخذني أصحابه فساروا بي إليه وأمروني أن أسلم عليه بالآمرة ففعلت، فسألني عن الموضع الذي جئت منه فأخبرته،

وسألني عن أخبار البصرة فقلت لاعلم لي، وسألني عن غلمان السورجين وعن أحوالهم ومايجري عليهم فأعلمته فدعاني الى ماهو فأجبته فقال: «احتل فمن قدرت عليه من الغلمان وأقبل بهم إلي ووعدني أن يقودّني على من آتيه به واستحلفني أن لا أعلم أحداً بموضعه وأن أرجع إليه وخلىّ سبيلي[٨]».

ويقول الغلام الزنجي ريحان عن تجمع الزنج «ومازال يدعو غلمان أهل البصرة ويقبلون إليه للخلاص من الرق والتعب فاجتمع عنده خلق كثير، فخطبهم، ووعدهم أن يقودهم ويملكهم الأموال، وحلف لهم بالأيمان أن لايغدر بهم، ولايخذلهم، ولايدع شيئاً من الإحسان إلا أتى به إليهم».

ويقول ابن الأثير «فأتاه مواليهم، وبذلوا له عن كل عبد خمسة دنانير ليسلم إليه عبده، فبطح أصحابهم، وأمر كل من عنده من العبيد فضربوا مواليهم أو وكيلهم وكل سيد خمسمائة سوط ثم أطلقهم فمضوا نحو البصرة[٩]».

وكانت هذه بداية ثورة الزنج، بأن الزنوج جلدوا بالسياط أسيادهم وتمردوا عليهم وتجمعوا حوله، فانتقل عبر نهر دُجيل ثم نهر ميمون واستقر بهم هناك.

غارات صاحب الزنج: «البداية»

بعد أن تجمع الزنوج حوله، انطلق بهم سنة (٢٥٥هـ) يهاجم المحمدية، والقادسية، والجعفرية.

المحمدية: أغار الزنج على المحمدية ومعه أحد قادته فتح الحجام، فلما نزلها وافاه جيش الخليفة العباسي في أربعة آلاف مقاتل، انهزموا بعد معركة قصيرة فقتل منهم جماعة ومات بعضهم عطشاً وأسر منهم وأمر صاحب الزنج بضرب أعناقهم[١٠].

القادسية: ثم أغار على القادسية، فنهبها أصحابه، ثم هاجم بالسيب داراً لبعض بني هاشم وانتهبوا السلاح منها، واصطدم بالبصريين فقاتلهم

يحيى بن محمد البحراني وأخذوا سلاحهم[١١]. ويحيى من قادة الزنج.

. **الجعفرية**: ثم أسرى صاحب الزنج الى الجعفرية فوضع في أهلها السيف فقتل أكثرهم وأتى منهم بأسرى، فأطلقهم، واصطدم بجيش للبصريين بقيادة عقيل، وانتصر عليه، ثم توجه الى قرية المهلبية وأحرقها و أفسد كل شيء وعاث بها[١٢]. واصطدم بجنود الجيش العباسي وقُدر بأربعة آلاف بمعركة كانت على نهر الريان فانتصر بها الزنج بعد معركة طاحنة[١٣]. كما وقعت معركة أخرى بقيادة الزنجي علي بن أبان. والعباسي الزينبي الذي يقود خلقاً كثيراً، وانتصر عليهم الزنج[١٤]، وانتهبوا سفناً للحجاج[١٥] وأخذ صاحب الزنج يبث العيون في كل مكان، وما أن علم بقوة عباسية أو بسفن بخارية انطلقت عصاباته تهاجمها وتأتي بها[١٦] وهاهو يغير على قرية ميزران فيحرر الزنوج ويفرقهم على قواده وينتهب القرية[١٧].

البصرة: وفي سنة (٢٥٥هـ) حدثت عدة معارك بين الفرنج وأهل البصرة، وانتصر فيها الزنوج عدة مرات، وانتصر البصريون مرة وقتلوا أحد قادة الزنج محمد بن سالم[١٨]. وكان الزنوج يعتمدون في معاركهم على عنصر المفاجأة والخديعة، فإن يوم البيداء[١٩] كانت خسارة أهل البصرة فيه كبيرة، وبث الزنوج الرعب في قلوب الناس وكتب الناس الى الخليفة المهتدي يطلبون النجدة فوجه اليهم جعلان التركي مدداً وأمر أبا الأحوص الباهلي بالمسير الى الأبلة والياً وأمد بقائد من الأتراك يُقال له جُريح، وأما صاحب الزنج فإنه انصرف منتصراً بقواته الى سبخة أبي مُرة، وبث قواته في كل اتجاه للغارة والنهب[٢٠].

مركز الخلافة:

قتل الخليفة المهتدي بالله، وتمت البيعة للمعتمد على الله خليفة وذلك يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة (٢٥٦هـ) وفي عهده كانت حرب دامية تشن ضد ثورة يعقوب الصفار، وضد ثورة صاحب الزنج في آن واحد، وكان الخليفة الجديد في ظل هذه الظروف الصعبة مشغوفاً بالطرب

وغلب عليه معاقرة الخمرة واللهو، ولاهم له إلا الغناء والرقص والندامى. . . ؟ولكن كان شقيقه الموفق رجلاً حازماً ذا خبرة وحنكة، قاد المعارك وابنه أحمد أبو العباس بدراية وعناية فائقة.

في هذه الفترة نقل صاحب الزنج مركزه من السبخة التي كان بها ونزل بنهر أبي الخصيب، وأخذ أربعة وعشرين مركباً من مراكب البحر وأخذوا منها أموالاً كثيرة لاتحصى[٢١] الى بلدة الخيزرانية وتجمعوا ثم تعرضوا لقوات ابراهيم بن سيما وقت العشا الآخرة وكانت المعركة بينهم طاحنة وانتصر الزنوج وخسر ابراهيم[٢٧].

تخريب البصرة:

وفي شوال من سنة (٢٥٧هـ) أزمع صاحب الزنج على دخول البصرة والجد في اخرابها لضعف أهلها وهلعهم أمام فظائع الزنوج الذين أصبحوا يشكلون قوة عسكرية هائلة بعد أن دمروا القرى المحيطة بالبصرة.

أوكل صاحب الزنج مهاجمة البصرة الى محمد بن يزيد الدرامي البحراني، بعد أن أعد جيشاً كبيراً من الزنج والأعراب البدو فأناخوا بالقندل ووجه اليهم سليمان بن موسى الشعراني وهو من قادة جيش الزنج، ثم أعد علي بن أبان جيشه وضم إليه مجموعة من البدو، وأمره صاحب الزنج بإتيان البصرة من ناحية بني سعيد كما أمر يحيى بن محمد البحراني بإتيانها بجيشه مما يلي نهر عدي وضم إليه مجموعة كبيرة من البدو الأعراب، وأطمعهم في النهب والسلب.

فدخلت قوات الزنج وفق الخطة المرسومة وجوبهت بقوات قاومت، ولكن كانت مقاومتها دون المستوى المطلوب، وطلب القائد العباسي (بُغراج) الأمان للبصرة من قائد الزنج ابراهيم بن يحيى المهلبي، فنادى منادي ابراهيم المهلبي الزنجي، من أراد الأمان فليحضر دار ابراهيم المهلبي، فحضر من أهل البصرة من سمع النداء حتى ملأوا الرحاب فلما رأى ابراهيم المهلبي اجتماعهم انتهز الفرصة لئلا يتفرقوا فغدر بأمانه لهم

وأمر أصحابه بقتلهم فقتل ذلك الجمع ولم يسلم منهم أحد.

ودخل قائد الزنج الآخر علي بن أبان المهلبي الجامع فأحرقه، وأحرقت البصرة في عدة مواضع منها المربد، وزهران، وغيرهما، واتسع الحريق من الجبل الى الجبل، وعمها القتل والنهب والإحراق، وقتلوا كل من رأوه بها فمن كان من أهل الغنى أخذوا ماله وقتلوه، ومن كان فقيراً قتلوه لوقته وبقوا كذلك على هذه الحال عدة أيام، ثم أمر يحيى بن الأزرق البحراني أن ينادى بالأمان فلم يظهر أحد، ومن المعروف عن هذا القائد الزنجي حبه للقتل، وبعد هذه المذبحة انتسب صاحب الزنج الى يحيى بن زيد وعدل انتسابه الى عيسى بن زيد[٢٨]. . . . وذلك تغطية لجرائمه.

ويعقب صاحب تاريخ الخلفاء على هذه الجرائم فيقول: «وقُتل في يوم واحد بالبصرة ثلاثمئة ألف إنسان»[٢٩].

أما صاحب مروج الذهب، فيشرح الحالة المعاشية التي وصل اليها سكان البصرة بعد خرابها عدة مرات من قبل الزنوج فيقول: «فكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها، والفئران، والسنانير فأفنوها حتى لم يقدروا منها على شيء، فكانوا إذا مات الواحد منهم أكلوه، ويراعي بعضهم موت بعض ومن قدر منهم على صاحبه قتله وأكله، وعدموا مع ذلك الماء العذب»[٣٠]إنها صورة مؤلمة ومؤذية؟.

وكان رد الدولة العباسية أن أرسلت قوات الى البصرة واشتبكت مع قوات الزنوج ولكنها لم تصمد طويلاً أمامهم، وهربت القوات العباسية وذلك سنة (٢٥٧هـ) ودخل الزنج معسكرهم ونهبوا وطاردوهم الى القرى المجاورة مثل قرية الجامدة وغيرها فأوقعوا بها ونهبوها وسفكوا من الدماء مااستطاعوا وعادوا بقيادة زعيمهم يحيى البحراني الى نهر معقل[٣١].

الخيزرانية:

في سنة (٢٥٨هـ) كانت معركة طاحنة بين الزنوج، بقيادة علي بن أبان المهلبي وبين الجيش العباسي بقيادة منصور بن جعفر، وكانت أرض المعركة

في قرية الخيزرانية، فانتصر فيها منصور على الزنج وعلى رأسهم أبو الليث الأصفهاني وغنم منهم وقتل، فانتقم علي بن أبان لهزيمته من بلدة كرنبا فقتل واليها وأكثر أصحابه، ولما بلغ منصور الخبر، هاجم الزنج في الخيزرانية، وكانت معركة دامية، واستشهد فيها منصور وشقيقه خلف بن جعفر، وتفرق الجيش العباسي وانتصر الزنوج(٣٢)

الموفق بالله:

في سنة (٢٥٧هـ) أحضر الخليفة المعتمد على الله شقيقه الموفق بالله، من مكة الى سرَّ من رأى وعـقـد له على الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن، وبغداد والسواد، وواسط، وكور دجلة، والبصرة، والأهواز، وفارس.

والموفق لم يل الخلافة، ولكنه أشرف على تصريف أمورها، وكان من رجال السياسة والإدارة والحزم، ويقدومه أفل نجم الزنج بفعل الضربات الشديدة التي أنزلها بهم بالرغم من انشغاله بإخماد فتن كثيرة في طول البلاد وعرضها.

وفي شهر ربيع الأول من سنة (٢٥٨هـ) عقد الخليفة المعتمد لأخيه الموفق أبي أحمد على ديار قنسرين، والعواصم وخلع عليه وعلى قائد آخر هو عبد الرحمن بن مفلح. في شهر ربيع الآخر، وسيرهما الى حرب الزنج في البصرة.

وفي يوم الأربعاء لاثنتي عشرة بقيت من جمادى الأولى من سنة (٢٥٨هـ) اشتبكت قوات «مفلح» مع قوات الزنج وكانت المعركة طاحنة أصيب بها مفلح إصابة خطيرة، ووقع الذعر بين قواته الذين تفرقوا بكل اتجاه، وطاردهم الزنج وأعملوا بهم السيف وحملوا رؤوسهم وأكلوا لحومهم.

أما الموفق العباسي فكان في موقع آخر في الإبلة وجمع شتات الجيش المنهزم، ثم سار الى نهر أبي الأسد وعسكر به استعداداً للمعركة.

وحدثت اشتباكات بين الزنج والقوات العباسية ولكنها لم تكن

حاسمة، وقع خلالها القائد الزنجي يحيى البحراني أسيراً وكان جريحاً، وأرسله الموفق الى سامراء وقتل هناك وحزن عليه الزنج حزناً شديداً[٣٣].

واسط:

ترك الموفق معسكره الى نهر أبي الأسد لسوء مناخه على صحة جنوده، فأقام في مكان يقال له «باذاورد»، وأمر بتجديد الآلات، وإعطاء الجند أرزاقهم وإصلاح الشمريات، والشذا، حتى أصبح جيشه بكامل عدته وعتاده، وحدد مواقع الهجوم على قوات الزنوج المتمركزة حوالي ضفاف نهر أبي الخصيب وغيره، وانطلق جيشه حتى اصطدم بالزنج، وقصد الموفق ناحية من المعركة وكان حوله قلة من عسكره، وحميت المعركة ووقع القتلى وكثر الجرحى وتمكن القائد الموفق من احراق منازل الزنوج، واستنقذ من النساء جمعاً كثيراً، وعلم أن الحزم في المحاجزة، فأمر أصحابه بالرجوع الى سفنهم على مهل وتؤدة بعد أن فقد من جيشه أكثر من مئة شهيد. وعاد الموفق الى معسكره وأعاد تعبئته وتشكيله من جديد، وصادف ذلك اليوم أن هبت النار في معسكره وكانت الريح عاصفة، فرحل منه الى واسط ثم عاد الى سامراء واستخلف على واسط محمد بن المولد لحرب الزنج[٣٤].

الأهواز:

إن قوات الزنج لم تنقطع عن مهاجمة الأهواز من سنة (٢٥٦هـ) وحتى سنة (٢٥٩هـ) وفي هذه السنة من شهر رجب هاجمها علي بن أبان بجيش من الزنوج وتصدى له أصعجور بقرية دشت ميسان بجيش عباسي، وكانت المعركة طاحنة قتل فيها أصعجور غرقاً في النهر ودخل الزنج الأهواز فأقاموا يفسدون فيها وينهبون وعادوا الى صاحب الزنج يحملون الرؤوس، والأسرى والغنائم، وفي شهر ذي القعدة من سنة (٢٥٩هـ) أمر الخليفة المعتمد بتعيين قيادات لحرب الزنج وكانت على الشكل التالي:

آ ـ قائد الأهواز ـ عبد الرحمن بن مفلح.

ب ـ قائد البصرة ـ اسحاق بن كنداجيق.

جـ- قائد باذاورد- ابراهيم بن سيما .

وفي الأهواز أعد عبد الرحمن بن مفلح جيشه، وهاجم الزنج، وكان يقودهم علي بن أبان، وعرف طريقة الزنوج في القتال، فأوقع بهم خسائر فادحة وأسر منهم خلقاً كثيراً، وانهزم الزنج بقيادة علي بن أبان مخلفين وراءهم القتلى والجرحى والأسرى.

أما دور إسحاق بن كنداجيق في البصرة فكان هو قطع الميرة عن الزنج لمحاربتهم من ناحية اقتصادية.

أما قوات الزنج، فقد هاجمت قوات القائد العباسي ابراهيم بن سيما في باذاورد فتزعزت قوات ابراهيم الذي أعاد تشكيل قواته واشتبك مع الزنج فهزمهم وهرب قائدهم علي بن أبان ودخل الآجام حتى انتهى الى نهر جي، وهاجمهم عبد الرحمن ابن مفلح وأحرق المنطقة التي دخلوا فيها، فخرجوا منها هاربين فأسر منهم أسرى، وسار عبد الرحمن يلاحق قائد الزنج الهارب مع فلول جيشه حتى دخل الى نهر السدرة وأوقع به هناك خسارة فادحة، وعسكر عبد الرحمن في بلدة لنبان، فكان هو وابراهيم بن سيما يتناوبان المسير الى عسكر صاحب الزنج فيوقعان به (٣٥).

المتمردون:

في سنة (٢٦٢هـ) جمع بين المتمردين ضد الدولة العباسية مصلحة التعاون والتنسيق بينهم وهم:

آ- يعقوب الصفار: الثورة الصفارية.

ب- صاحب الزنج: ثورة الزنج.

جـ- محمد عبيد الله هزار مرد: ثورة كردية.

وكان محمد هزارمرد يمد خيوط اتصالاته مع الزنج وجماعة يعقوب الصفار ويطمئنهم بأنه معهما، وأصبح هزار مرد ثقة لهما فاعتبره الصفار ممثلاً له على كور الأهواز، وصاحب الزنج طلب منه أن يسلم له كل ماتحت يده حتى يثق به، فوافق الكردي، وأرسل له صاحب الزنج أحد قادته وهو

علي بن أبان مع قوة كبيرة من الزنوج، وأمدهم الكردي بمساعدات، وانطلقوا نحو بلدة السوس بخوزستان، ولكن القائد العباسي أحمد بن ليثويه اعترضهم واشتبك معهم بقوة من الجيش فأنزل بهم ضربات موجعة وقتل منهم وأسر جماعة.

وانطلق أحمد بن ليثويه وجيشه حتى نزل سابور، وتحرك جيش من الأكراد والزنج الى بلدة تستر وهي مدينة عظيمة بخوزستان، وهناك اشتبك الجيش العباسي بقيادة أحمد بن ليثويه، بقوة الأكراد وهزمهم، ثم وقعت معركة ثانية له مع قوات الزنوج، وقتل منهم مقتلة كبيرة، وجرح قائد الزنج علي بن أبان، وألقى نفسه في النهر وركب سُمرية ونجا من الموت. وكان أحمد بن ليثويه وقواته يلاحقان القوات المتمردة[٣٦]. بعدئذ جرت معارك عدة منها: عسكر مكرم، جنبلاء، رامهرمز، متوت، واسط، طهثا وسوق الخميس جعل العباسيين يدركون شدة خطر الزنج ويصممون على التخلص منهم وهنا بدأوا هجومهم الحقيقي.

الهجوم العباسي:

في شهر صفر سنة (٢٦٧هـ) قدم الموفق بالله من بغداد الى واسط فوصلها في ربيع الأول وكان يقود جيشاً أحسن تعبئته، فلقيه ابنه أحمد أبو العباس وأخبره بحال جنده وقواده فخلع عليهم جميعاً ورجع أبو العباس الى معسكره بالعُمر، أما القائد الموفق فنزل على نهر شداد وأعطى أوامره بالإستعداد للهجوم بعد إحكام خطته، ونقل معسكر أبو العباس من العمر الى شرقي دجلة بازاء فوهة نهر بردودا وولاه مقدمة الجيوش وأمره أن يسيرها بكامل السلاح مع نخبة من عسكره الى فوهة نهر مساور وسار الموفق يوم الثلاثاء لثمان خلون من ربيع الآخر من سنة (٢٦٧هـ) الى نهر مساور ثم انطلق الى مدينة المنيعة من سوق الخميس، وسلك بالسفن في نهر مساور، وسارت الخيل بإزائه شرقي النهر، حتى جاوزوا نهر براطق الذي يوصل الى المنيعة، وأمر بتصبير الخيل

وتصبيرها في الجانبين وأمر ابنه أحمد أبو العباس بالتقدم بالشذا بعامة الجيش ففعل .

وكان صاحب الزنج وقادته والزنوج على علم بتحركات الجيش العباسي وأخذوا كل الحذر والاستعداد للحرب، وما أن تقدم الجيش العباسي حتى اصطدم بالجيش الزنجي وكانت الحرب بينهما شديدة، ولكن الموفق وافاهم والخيل من جانبي النهر وبعد معركة قصيرة انهزم الزنوج، ودخلت القوات العباسية مدينة المنيعة فقتلوا فيها خلقاً كثيراً وأسروا أعداداً كثيرة وغنموا ماكان فيها وهرب قائد الزنج سليمان الشعراني ومن معه وتبعه القائد الموفق بالله الى البطائح، ففرق منهم أعداداً في النهر ولجأ الباقون الى الآجام.

وعاد الموفق الى معسكره من يومه واستنقذ من النساء المسلمات زهاء خمسة آلاف امرأة سوى من ظفر من الزنجيات، وأمر الموفق بحفظ النساء وحملهن الى واسط ليدفع بهن الى أهلهن، ثم بكر الى مدينة المنيعة وأمر بهدم سورها وطم خنادقها وإحراق مابقي من السفن، وحملوا معهم الشعير والأرز والطعام فأمر ببيع ذلك وتوزيعه على الجند.

وعندما علم صاحب الزنج بنتائج المعركة خارت قواه وانحل بطنه حينما وصل أحد قادته سليمان الشعراني وأخبره بالتفاصيل وماجل بمدينته المنيعة، وعمم الأمر على قادته وجيش الزنوج بالحذر والإنتباه، بينما كان القائد الموفق يرسل العيون خلفهم والاستطلاع بشكل دائم وينصب الكمائن للزنوج، فأتاه من أخبره أن قائد الزنج سليمان بن جامع بقرية الحوانيت، فسار الموفق حتى وافى قرية الصينية وأمر ابنه أحمد أبو العباس بالتقدم بالشذا والشمريات في النهر الى الحوانيت مختفياً فلم يشاهد قائد الزنوج سليمان بن جامع بل رأى جمعاً من الزنج مع قائدين خلفهم سليمان بن جامع لحفظ غلات كثيرة، فحاربهم أحمد أبو العباس، ودام القتال الى أن حجز الليل بينهما، واستأمن للقائد العباسي أحد الزنوج، فأخبره عن سليمان بن جامع أنه مقيم بمدينته التي سماها المنصورة، فعاد أبو العباس وأخبر والده

بالخبر فأمره بالمسير إليه فسار حتى نزل بلدة بردودا فأقام لإصلاح عتاده وسلاحه واستكثر من الآلات التي يسد بها الأنهار ويصلح بها الطريق للخيل[٣٧].

طهثا ـ المنصورة:

وفي سنة (٢٦٧هـ) لعشر بقين من ربيع الآخر غير الموفق العباسي مواقع جيشه فرحل عن بردودا متجهاً الى طهثا وجيشه يتقدم في السفن والبر حتى وصل قرية الجوزية، وعقد جسراً على نهر مائي فعبّر خيله عليه، ثم انتهى الى قرب سور مدينة قائد الزنج سليمان بن جامع «المنصورة» وماأن شعر الزنوج بهذا الجيش يتقدم إليهم حتى شنوا الهجوم عليه وكانت المعركة بين الجيشين حامية الوطيس وكانت خسائر الطرفين متساوية وحجز الليل بين الجيشين، وقُتل أحد قادة الزنوج الأثرياء ابن هندي الحيامي، وأخذ كل جيش يستعد للمعركة الفاصلة، ولكن الزنوج أصبحوا في موقع الدفاع، والجيش العباسي في موقع الهجوم، وفي يوم السبت لثلاث بقين من ربيع الآخر من سنة (٢٦٧هـ) عبأ القائد العباسي جيشه وجعله كتائب يتلو بعضهم بعضاً فرساناً ورجالة، وأمر بالشذا والشمريات أن تمخر عباب نهر المنذر الذي يشق مدينة المنصورة الى نصفين، وأرسل قوات الاستطلاع وكمّن الكمائن، وصلى وابتهل الى ربه بالنصر ولبس كامل سلاحه وأمر ابنه أحمد أبو العباس أن يتقدم الى سور المدينة مع جنوده، ولم يستطع الزنوج الصمود أمامهم ولكن المدينة كانت محصنة بخمسة خنادق، وأمام كل خندق سورٌ فبدأت تسقط تحصينات المدينة بعد أن دخلت القوات العباسية عن طريق النهر، وأغرقت سفن الزنج وقُتل أعدادٌ كثيرة منهم وهرب الزنوج باتجاهات مختلفة.

نتائج المعركة:

تحطيم إحدى مدن الزنوج المحصنة التي يأوي إليها الزنج، كثرة خسائرهم في الرجال والسلاح والمال، والأسرى، استنقذ الجيش العباسي من مدينة الزنوج أكثر من عشرين ألفاً من النساء والأولاد أمر القائد العباسي

بإعادتهم الى أهليهم وأكثرهم من الكوفة وواسط والقرى المحيطة بهم، حمل الجيش العباسي كل ماوجد في المدينة من سلاح وعتاد ومال أمر بصرفه على جنوده، وأرسل قوة تبحث عن سليمان بن جامع فلم يظفر به ولكنه أسر بعض نسائه وأولاده، واستأمن بعض الزنوج فأمنهم وضمهم الى جيشه، ولقد أذاع خبر الانتصار وطلب الى سكان مدينة طهثا بالعودة اليها آمنين(٣٨).

تحرير الأهواز:

كان عام (٢٦٧هـ) عام شؤم ونكسات أصابت الزنوج وانتصارات للجيش العباسي لقد مر معنا مافعله الزنوج بالأهواز سنة (٢٥٦-٢٥٩هـ) وبعد تحطيم الزنج بمدينة المنصورة قرر القائد الموفق العباسي تحرير الأهواز من الزنج وأعد الخطط اللازمة لذلك، أمر ابنه أحمد أبو العباس أن يتقدمه ويصلح الطرقات المؤدية الى الأهواز وترك ابنه هارون على قيادة عسكره بمدينة واسط، ووضع الكمائن في النقاط الهامة لمفاجئة الزنوج، وكانت تحدث بعض الإشتباكات بين الطرفين بالقرب من نهر أبي الخصيب، كانت الخسارة في الجانب الزنجي. وفي مستهل جمادى الآخرة ارتحل الموفق العباسي وجيشه من واسط حتى أتى بلدة السوس وضم اليه مسرور البلخي وجيشه، ثم رحل الى بلدة عسكر مكرم ووافى الأهواز ثم رحل عنها الى نهر المبارك، فلقيه ابنه هارون يقود جيشاً وذلك في منتصف رجب، وهنا استكمل الموفق قواته فأعطى أوامره الى ابنه أحمد أبو العباس بالمسير الى صاحب الزنج ومحاربته في موقعه على ضفاف نهر أبي الخصيب، ووقع اشتباك بين الطرفين، فكانت خسائر الزنج كبيرة، واستأمن إليه أحد قادة الزنج، وعاد أحمد أبو العباس بالظفر، بينما شعر قائد الزنج بالخطر يدور حوله فجمع قادته علي بن أبان حضر من الأهواز وخلفه جيشه الذي بلغ تعداده ثلاثين ألفاً، ولحق به محمد بن يحيى الكرماني، كما حضر بهبود ابن عبد الوهاب، وقد أصابهم الذعر جميعاً، وبذلك أصبحت مواقعهم خالية

من المقاومة مما مكن الموفق من السيطرة عليها، وأخذ كل ماخلفه الزنج من سلاح وعتاد، واستسلم زهاء ألف جندي زنجي في الأهواز تركهم علي بن أبان حماية هناك، فأمنهم الموفق وأجرى عليهم الأرزاق.

كما أنذر الموفق العباسي، الكردي محمد هزار مرد الذي تعاون مع الزنج بأن يقدم إليه طائعاً، فقدم وعفا عنه الموفق، وقدم المعونة من الأموال والعساكر لدعم جيش الموفق، وفي بلدة الإبلة تمكن الجيش العباسي من طرد الزنج وأسر أكثر من ألفي شخص، وأوقع بهم، وانطلق الجيش بقيادة بنصر ليلتقي بجيش الموفق على نقطة معينة بالقرب من نهر المبارك وبذلك تجمع الجيش العباسي بقوة كبيرة.

رسالة الموفق:

أراد الموفق أن يضع حداً للمعارك والخسائر بين الطرفين فكتب الى صاحب الزنج كتاباً يدعوه فيه الى التوبة والإنابة الى الله تعالى مما ارتكب من سفك الدماء وانتهاك المحارم وخراب البلدان، واستحلال الفروج والأموال وادعاء النبوة والرسالة، وبذل له الأمان، فوصل الكتاب إليه فقرأه ولم يكتب جوابه(٣٩).

ويكون الموفق بهذه الرسالة قد أخذ براءة ذمة من التاريخ لحقن الدماء والعفو عند المقدرة، ولكن صاحب الزنج غاص في الإساءات حتى قمة رأسه فلم يعد يستطيع التراجع، أراد تحرير العبيد، فجعل السادة عبيداً، وجعل النساء الشريفات إماءً، ودمر وخرب، ولم يكن في ذهنه أكثر من ذلك؟ واعتبر الموفق عدم رد جواب صاحب الزنج، يعني الإستمرار في القتال، ولم يبق أمامه إلا محاصرته في مدينته التي بناها وسماها «المختارة» والقضاء على هذا البلاء العظيم.

المختارة:

في العشرين من رجب سنة (٢٦٧هـ) قاد الموفق الجيش بنفسه يصحبه ابنه أحمد أبو العباس حتى وصل مدينة صاحب الزنج المختارة، واستطلعها

بنفسه ورأى تحصيناتها بالخنادق والأسوار، وغور الطريق اليها، وماعلى سورها من الدفاعات مثل المجانيق والعرادات والقسي وسائر الآلات، وكثرة الزنوج الذين أعدهم للدفاع عن مدينته، فأمر ابنه أحمد أبو العباس بالتقدم الى سور المدينة والرمي على حماة السور بالسهام، فتقدم أبو العباس حتى ألصق شذواته بمُسنّاة قصر صاحب الزنج، وكان رد الزنوج عليه شديداً بحجارة المجانيق والمقاليع والسهام، وثبت لهم أبو العباس واستسلم له من الزنج مقاتلة في سُميريتين، فأمنهم وأحسن إكرامهم وخلع عليهم وأمر بإدنائهم الى موضع يراهم فيه نظراؤهم، وكان ذلك من أنجع المكائد، فلما رآهم الباقون من الزنج، رغبوا في الأمان وتنافسوا وابتدروا اليه فصار الى الموفق عدد كثر في ذلك اليوم من أصحاب الشمريات فعممهم بالخلع والصلات وكان رد فعل صاحب الزنج بأن أعطى أوامره أن يُرد أصحاب الشمريات الى نهر أبي الخصيب، ووكل بفوهة النهر من يمنعهم من الخروج كما أمر بهبود بن عبد الوهاب وهو من شر قواده أن يخرج بشذواته لمقاتلة أحمد أبو العباس والقضاء عليه فبرز له أبو العباس وكان القتال بين الطرفين شديداً، وكان أبو العباس أكثر صبراً، فانهزم بهبود قائد الزنج حتى وصل الى فناء قصر صاحبه بعد أن أصابته طعنتان وجُرح بالسهام، وأوهنت أعضاؤه بالحجارة وقد أشرف على الموت واستأمن لأبي العباس شذاة بمقاتليها فأمنهم وأحسن إليهم، ورجع الى معسكره بالنهر المبارك بعد أن أوقع بالزنوج، واستقبله والده، كما استقبل كثيراً من الزنوج الذين قدموا إليه وطلبوا الأمان فأمنهم وأثبت أسماءهم مع أحمد أبو العباس وأقام في معسكره يومين ثم نقل عسكره لست بقين من رجب من سنة (٢٦٧هـ) الى نهر جطي وأقام به الى منتصف شعبان لم يقاتل(٤٠)...؟

سياسة جديدة:

أدرك القائد الموفق بخبرته وتجربته أن الحرب قد تطول مع الزنج وتكلف أموالاً وطاقات كبيرة، فلجأ الى بذل الأمان لمن يستسلم من الزنوج

لكي يضعف قوة صاحب الزنج العسكرية المدافعة وبذلك يتمكن من دق عنقه، كما قام ببناء مدينة بالقرب من مدينة صاحب الزنج تحت مراقبته وعلى تماس معه وكانت خطة الموفق مُحكمة، لأنه سيحكم الحصار العسكري والإقتصادي على عاصمة الزنوج المختارة، وأصبح من السهل القضاء عليهم لتجمعهم في مدينة واحدة، وهنا أمر الموفق جيشه بالزحف وتطويق المختارة وكان تعداده حوالي خمسين ألف مقاتل، فأمر بالمنادي أن ينادي بالأمان للناس كافة ماعدا صاحب الزنج، وكتب الأمان في رقاع ورماها في السهام ووعد فيها بالإحسان والعفو، واستأمن في ذلك اليوم من منتصف شعبان سنة (٢٦٧هـ) خلق كثير فخلع عليهم ووصلهم ونجحت خطته واعتبر ذلك نصراً عسكرياً، وأعاد تشكيل قواته ورتب عسكره وقواده وعين لكل كتيبة قائداً ومكاناً لتتمركز فيه وتحافظ عليه وكتب الموفق الى كافة مرافق الدولة العباسية في عمل الشمريات والشذوات والزوارق الكبيرة، والإكثار منها ليضبط بها الأنهار ويقطع الميرة عن مدينة صاحب الزنج، وكتب الى عماله في النواحي بحمل الأموال والميرة في البر والأنهار الى مدينة الموفقية، وأمرهم بإنفاذ من يصلح للإثبات في الديوان للتسجيل وضبط القيود والموارد، وأقام ينتظر شهراً، فوردت اليه الميرة متتابعة وجهز التجار صنوف تجاراتهم المختلفة الى المدينة الموفقية واتخذت فيها الأسواق ووردتها مراكب البحر، وبنى فيها المسجد الجامع وأمر الناس بالصلاة فيه، فجمعت هذه المدينة من المرافق وسيق اليها من صنوف الأشياء مالم يكن في مصر من الأمصار القديمة، وحُملت الأموال، وأدرت الأرزاق.

وأشرف أحمد أبو العباس على حراسة الأنهار، وشدد في تضييق الخناق على الزنوج فبلغ عدة من استأمن خلال سنة (٢٦٧هـ) من شهر رمضان حوالي خمسين ألفاً من الزنوج، كما تم قتل الزنجي حندل الذي كان يكشف رؤوس المسلمات ويقلبهن تقليب الإماء[٤١].

لقد نجح الموفق في خططه السياسية والعسكرية والاقتصادية ضد

الزنوج، واستطاع تفكيك صفوفهم من داخلهم، فقادة صاحب الزنج إستأمن أكثرهم للموفق فأكرمهم بينما صاحبهم باع نساءهم وأمتعتهم، رغم أنه وجيشه يعيشون في حصار اقتصادي وعسكري، وتفكك داخلي يرعبهم وأصبح مستقبلهم على كف عفريت، ومع هذا كان يدفع بقادته الذين هم موضع ثقته مثل شبل بن سالم، وعلي بن أبان وغيرهما لكي يفكوا الحصار عن مدينته، ولكنهم باءوا بالفشل ودارت بينهم وبين العباسيين معارك طاحنة في كل مرة يخسر الزنوج فيها الأسرى والقتلى، وأراد صاحب الزنج مهاجمة الموفقية بأعداد كبيرة من جيشه، وعلم الموفق بخطة الزنج من زنجي استأمنه، وكانت معركة شديدة وطاحنة بينهما، وخسر الزنج جنودهم بين قتيل وجريح وغريق وأسير، وكانت حصيلة المعركة خسارة سفنهم بين صغيرة وكبيرة حوالي اربعمائة التي استولى عليها الجيش العباسي، ثم ألقوا برؤوس الزنوج بالمجانيق الى داخل المدينة، وعرضوا أمامهم الأسرى بالسفن، فأصابهم الخوف والهلع، فأراد ابن صاحب الزنج أنكلاي النجاة بنفسه أو الاستسلام فمنعه والده وكل ذلك كان تحضيراً للضربة الأخيرة في شهر شوال من سنة (٢٦٧هـ)[٤٢].

الهجوم على مدينة صاحب الزنج

بعد الحصار الإقتصادي والعسكري وهروب جماعات الزنج زرافات ووحدانا الى مدينة الموفق ومعسكره، أصاب صاحب الزنج وقادته خلل ودوار من المصير الذي ينتظرهم، فقرروا الدفاع المستميت، وأمام هذه الحالة قرر الموفق الهجوم والحسم، وفي يوم الأربعاء لست بقين من شهر ذي الحجة من سنة (٢٦٧هـ) أعد الموفق خططه لاجتياح المختارة، وأمر ابنه أحمد أبو العباس بالمسير الى النهر الغربي بالشذوات، والشمريات، والمعابر، وبدأ هجومه، واشتبك مع الزنوج بقيادة علي بن أبان، ثم جاءتهم امدادات زنجية بقيادة سليمان بن جامع، وكانت المعارك شديدة بدأت من بكرة الى العصر وكان الظفر لأحمد أبو العباس، وطلب الأمان اليه جماعات كثيرة من

الزنوج فأمنهم، كما هاجم لهم مراكز متفرقة هنا وهناك وقضى عليهم.

وبنفس التاريخ يوم الأربعاء لست بقين من شهر ذي الحجة من سنة (٢٦٧هـ) وزع الموفق جيشه على مداخل المدينة ليضطر الزنج الى توزيع قواتهم، وقصد الموفق الى ركن من أركان المدينة وهو أحصن مافيها، وقد أنزله صاحب الزنج ابنه أنكلاي وبعض قادته الأشداء للدفاع عنه بمعدات كثيرة ومختلفة، وأمر الموفق عسكره باجتياز هذا الركن المحصن الذي يفصل بينه وبين السور نهر الأتراك وهو نهر عريض كثير الماء وكان الهجوم جريئاً وشديداً وكان الدفاع يقابلهم بضراوة ولكن قوات الموفق وصلت السور وتمكنت من إلقاء السلالم والتسلق فوق السور وأشعلوا النار بمعدات المقاومة ونصبوا علماً من أعلام الموفق العباسي، فانهزم الزنج، واسلموه بعد قتال شديد، وكان أحمد أبو العباس يهاجم المدينة من جهة ثانية بقواته، وتمكن جنوده من فتح ثغرة ودخلوا منها وتصدى لهم الزنوج بقيادة سليمان بن جامع فقاتلهم حتى ردهم الى مواضعهم، بينما استمر الفعلة من عسكر الموفق في فتح ثغرات في السور في عدة مواضع، وتمكنوا من نصب جسر فعبر عليه الجند من ناحية الموفق وانهزم الزنوج وعسكر الموفق يضعون السيف فيهم حتى انتهوا الى نهر ابن سمعان، وقد صارت دار ابن سمعان في أيدي عسكر الموفق فأحرقوها ووصلوا حتى بلغوا ميدان صاحب الزنج الذي فر مع جيشه وكان ذلك مع مغيب الشمس، فأمر الموفق جيشه بالعودة الى معسكرهم وكانوا في قمة النصر وكانت نتائج المعركة: استأمن كثير من الزنوج وقادتهم، وقتل أعداد كثيرة منهم، وتشرد قواتهم واحراق معداتهم، وفتح ثغرات في سور مدينتهم المحصنة والدخول إليها، وهرب الزنوج باتجاه نهر الأمير، والقندل، وعبادانا، وهرب جماعة من البدو الأعراب الى البصرة وأرسلوا يطلبون الأمان، فأمنهم الموفق، وقائد زنجي يدعى ريحان بن صالح المقري(٤٣). وقائد آخر يدعى جعفر بن ابراهيم المعروف بالسحان، فحمل في شمرية الى إزاء قصر صاحب الزنج فكلم أصحابه وأخبرهم أنهم

في غرور وأعلمهم بما وقف عليه من كذب صاحب الزنج وفجوره فاستأمن عقب ذلك من قواد الزنج وتتابع الناس في طلب الأمان.

استراحة المقاتل:

بعد الاجتياح لمدينة المختارة وتخريب سورها عاد الموفق وجيشه الى معسكره في مدينة الموفقية وأقام لايحارب الى شهر ربيع الآخر وهو يكمل استعداداته والزنوج يهربون اليه يطلبون الأمان، واستغل صاحب الزنج هذه الفرصة فأعاد تجميع ماتبقى من قواته وتحصين مدينته من جديد، وسد الثغرات في سورها المتهدم، وكل مايعمله لايمكنه من الإفلات من قبضة الموفق الذي أحكم الحصار عليه، وفي منتصف شهر ربيع الآخر من سنة (٢٦٨هـ) قصد الموفق المختارة، وفرق قواده وكتائب جيشه على جهاتها، وعزز كل كتيبة بالنقّابين ومعهم المعدات لهدم السور، وأعطى أوامره بهدم السور، والى الرماة أن يحموا بالسهام من يهدمه وينقبه، وأن لايدخلوا المدينة بعد الهدم، ومـا أن انكشفت المدينة أمامهم، دخل جنود الموفق واشتبكوا مع الزنوج الذين انهزموا أمامهم فأحرقوا بعض المواقع الحصينة وقتلوا وأسروا، واختلفت بهم بعض الطرق، واصطدموا بكمائن الزنوج فأوقعت بهم، ثم عاد الموفق وجيشه الى معسكره ووجه لوماً شديداً لهم لمخالفة أوامره، والإفساد عليه من رأيه وخططه وتدبيره(٤٤).

المهربون والزنوج:

المهـرب يبحث عن الربح في كل الظروف العادية والخطرة، لجني الأرباح الوفيرة فبالرغم من الحصار العسكري والإقتصادي الذي ضربه الموفق على الزنج في مدينتهم المختارة، كان البدو (الأعراب) يحملون الميرة من أطراف البصرة الى صاحب الزنج، فعلم الموفق بذلك فأوقع بهم وقتل منهم جماعة وأسر الباقين، وغنم كل ماكان معهم، وأرسل الى البصرة من أقام بها لمراقبة أعمال التهريب وقمعها، ثم علم القائد الموفق بأن قوماً من بني تميم يجلبون الميرة الى صاحب الزنج فأرسل اليهم أحد قادته فاشتبك معهم

وقتل أكثرهم وأسر جماعة منهم فحمل الأسرى والرؤوس الى مدينة الموفق فأمر بهم الموفق فوقفوا بإزاء عسكر الزنج، وكان فيهم رجل يسفر بين صاحب الزنج والبدو بجلب الميرة لهم، فقطعت يده ورجله وألقي في معسكر صاحب الزنج وأمر بضرب أعناق الأسرى، وانقطع التهريب بذلك عن صاحب الزنج بالكلية فأضر بهم الحصار وأضعف أبدانهم فكان الأسير أو المستأمن يقول بأنه لم يأكل الخبز منذ زمن طويل، وأمام هذه الحالة هرب كثير من الزنوج الى القرى والأنهار البعيدة يطلبون القوت، ومنهم من قدم الى الموفق يطلب الأمان فأمنهم وأحسن إليهم، أما الذين هربوا فأمر مجموعة من قواد المستأمنة الزنج بقصد تلك المواضع ودعوة من بها إليه فمن أبى قتلوه، فقتلوا من قاوم وأحضروا من استأمن، فلما كثر المستأمنون في مدينة الموفق، عرضهم فمن كان ذا قوة وجلد أحسن إليه وخلطه بعسكره ومن كان ضعيفاً أو شيخاً أو جريحاً، كساه وأعطاه دراهم، وأمر به أن يحمل الى مدينة صاحب الزنج فيلقى بها، ويؤمر أن يذكر مارأى من إحسان الموفق للزنوج الذين استأمنوا إليه.

وجعل الموفق وابنه أحمد أبو العباس بلا زمان قتال الزنج تارة هذا وتارة هذا وذلك بعدم إعطاء فرصة لصاحب الزنج بالإستقرار، وإبقاء الزنوج الذين معه في حالة من الاضطراب والقلق والتوتر وهذا يزيد في إرهاقهم من كافة النواحي، وأثناء المعارك المتواترة بين الطرفين، جرح أحمد أبو العباس وبرأ من جراحه، وقتل قائد الزنوج بهبود بن عبد الوهاب، وكان لفقده فجيعة عند صاحب الزنج[٤٥].

المختارة عاصمة الزنوج:

كانت هذه المدينة محصنة بموانع طبيعية بالإضافة الى السور الذي يحيط بها، أضف أن الرياح كانت تحرك الأمواج بقوة عاتية، فيحرك السفن الصغيرة من شذوات وسمريات باتجاه معاكس بعيداً عن موقع المعركة، وأحياناً تقع في قبضة الزنج، وكان الجانب الغربي لمدينة المختارة كثير الأدغال

وتحميه غابات النخيل ومسالكه صعبة، فأمر الموفق بقطع قسم منها، وإصلاح المكان، وأن يعمل له الخنادق والسور ليأمن فيه الحراسة الليلية. وجعل حماية العاملين فيه نوباً على قواده، بينما جنوده يهدمون السور من كل أطرافه.

وفي سنة (٢٦٩هـ) بدأ الموفق هجوماً جديداً على المختارة في عدة اتجاهات، وكانت بعض قواته الأمامية توسع لجيشه الطرقات والمسالك الصعبة، وتهدم السور من ناحية نهر منكي، وهدم القناطر التي تعتبر ممراً مائياً حيوياً للزنوج ودخلوا المدينة ودافع الزنوج عنها بضراوة شديدة، وكانت قوات الموفق تتقدم بضراوة حتى انتهت الى داري محمد بن سمعان، وسليمان بن جامع وهما من قادة الزنوج، فهدموهما، ونهبوا مافيهما، وانتهوا الى سويقة لصاحب الزنج سماها الميمونة، فهدمت وأخربت، وهدموا دار الجبائي، وانتهبوا مافيها من خزائن، وتقدموا ليهدموا معبدهم، فاشتدت محاماة الزنوج عنه، وأمر الموفق ابنه العباس باقتحامه واحضار الأدوات كافة، وأخيراً تمكنوا من الوصول اليه وهدموه، وأخذوا منبره الى القائد الموفق، كما حُملت دواوين صاحب الزنج وبعض خزائنه، وبينما المعركة تدور في كل اتجاه من المدينة ويشرف على إدارتها الموفق العباسي، أصابه سهم في صدره، رماه به الزنجي قرطاس الرومي، وذلك لخمس بقين من شهر جمادى الأولى سنة (٢٦٩هـ) فستر الموفق الأمر وعاد لمدينته وبات، ثم عاد الى الحرب على مابه من ألم الجراح بقوى عزيمة جيشه، فزاد الجرح في علته وعظم حتى خيف عليه ونُصح بالعودة لبغداد ولكنه رفض واحتجب عن العسكر مدة ثم برأ من علته ونهض لحرب صاحب الزنج وكان ظهوره في شهر شعبان من سنة (٢٦٩هـ)[٤٦] حاول صاحب الزنج استغلال فترة نقاهة الموفق من الجرح الذي أصابه، ومن ثم مرض المفاصل فبقي شهر شعبان، وشهر رمضان وأياماً من شوال، ومع هذا وقعت عدة اشتباكات مع الزنوج كان أهمها معركة نهر أبي الخصيب حول القنطرتين، وتم احراقها من

موضع السفن المحملة بالنفط تحتها واشعالها، واستبسل أنكلاي وعلي بن أبان وسليمان بن جامع بالدفاع عن القنطرة، ولكن جنود الموفق استطاعوا دحرهم، وقتلوا أعداداً كثيرة وأسروا وغرق منهم في النهر ومنهم تمكن من الفرار(٤٧).

إحراق قصر صاحب الزنج:

كانت سنة (٢٦٩هـ) تنذر بنهاية الزنوج والفوضى التي أحدثوها في طول البلاد وعرضها، وهم يقاتلون بشراسة فبعد أن كانوا عبيداً أصبحوا سادة، وأصبح السادة عبيداً، وشريفات العرب أصبحن إماءً لهم، وملكوا القوة وهم يدافعون عن مصالح ومكتسبات أصبحت ملك أيديهم؟

في شهر شعبان من سنة (٢٦٩هـ) أعاد الجيش العباسي هجومه على المختارة وانتهوا الى بعض قصور الزنج فأحرقوها وانتهبوا مافيها واستنقذوا عدداً كثيراً من النساء المسلمات وقتلوا وأسروا وفتح الزنوج المياه على الخنادق والسباخ المحيطة بالمدينة لشل حركة هجوم الجيش العباسي واستبسل الزنوج حول قصر صاحبهم فكانوا يلقون بالحجارة والرصاص المذاب على الجيش العباسي لكن القائد الموفق كان قد أخذ كل احتياطاته لذلك تم إحراق قصر محمد الكرنابي بجانب قصر صاحب الزنج، ومايليه من منازل قواد الزنوج ليشغلهم بذلك عن حماية قصر صاحب الزنج، كما أحرقت منازل متعددة لصاحب الزنج، ثم تمكن جنود الموفق من السيطرة على قصر صاحب الزنج وهرب الزنوج وصاحبهم وأشعلوا النار به وانتهبوا مالم تأت النار عليه من الذهب والفضة والحلي واستنقذوا أعداداً من النساء العربيات، اللواتي كان الخبيث يأنس بهن مما كان استرقهن، ودخلوا دار ابنه أنكلاي فأحرقوها، وجرح أنكلاي، واستسلم محمد بن سمعان كاتب صاحب الزنج، وعاد الموفق الى معسكره منتصراً بعد يومين من القتال الشرس مع الزنوج، وأعيدت النساء الى أهلهن(٤٨)، وأطلقوا كثيراً من السجناء وأخذ الموفق بالمسح العسكري الشامل للمدينة بهدم حصونها وأسوارها، ومن الأمكنة

المحصنة قصر ابراهيم بن جعفر الهمداني، دارت حوله معركة شديدة تمكن جنود الموفق من السيطرة عليه واستنقذوا ماكان فيه من النساء وكن عالماً كثيراً فأرسلهن الى أهلهن وانتهبوا كل مافي القصر وأحرقوه واستأمن يومئذ من قادة الزنج عدداً فأحسن إليهم الموفق، ودل بعضهم على سوق عظيمة كانت لصاحب الزنج بالجسر الأول تسمى المباركة، وأعلموه إن أحرقها لم يبق للزنوج سوق غيرها، وخرج عنهم تجارهم الذين كان بهم قوامهم، وأرسل الموفق كتيبة من جيشه الى هذه السوق وبعد معارك شديدة مع الزنوج أحرقوها، وكانت النار تتساقط على الطرفين وهم يتقاتلون[٤٩]. وحجز بينهم الغروب.

مقتل صاحب الزنج:

لم تكن مدينة المختارة أو عاصمة الزنوج مدينة عادية، بل كانت مدينة محصنة وواسعة الانتشار، حتى أن قصور قادته كانت مبنية بشكل قوي وفي مواقع محصنة ومنيعة، لذلك كان احتلال هذه العاصمة بالغ الصعوبة استمر من عام (٢٦٧هـ وحتى ٢٧٠) وكانت المعارك من حي الى حي ومن شارع الى شارع ومن قصر الى قصر، حتى قدم من مصر أحد قادة أحمد بن طولون، وهو لؤلؤ للمشاركة في قمع حركة الزنوج التي كانت بلا أهداف إلا الإنتقام من سادتهم ولقد أصبح تحت أمرة الموفق بالإضافة الى قواته، قوات مصرية، وقوات المستأمنة من الزنوج والذين ساهموا في إيقاع ضربات موجعة بقيادة شبل بن سالم، بصاحب الزنج ومابقى من قادته وجيشه، ولكن الموفق أراد رأس صاحب الزنج، فأمر ابنه أحمد أبو العباس أن يبحث عن صاحب الزنج، كما أمر شبل بن سالم الزنجي ومعه كتيبة من الزنوج، وكانت إشارته لهم بالهجوم أن ينفخ بالبوق ويُحرك علماً أسود اللون من أعلى دار في المختارة، وكان ذلك الزحف يوم الإثنين لثلاث بقين من المحرم من سنة (٢٧٠هـ) وكانت إشارته بالعلم والبوق فزحف الجيش في البر والماء وانتشر في أنحاء المدينة وواجه مقاومة عنيفة في بعض الجيوب،

وتم استنقاذ نساء وصبيان، وأسرى، وظفروا بعيال علي بن أبان وأخويه وأولادهما وعُبر بهم الى الموفقية، وهرب صاحب الزنج ومعه مجموعة من قادته بينهم ابنه أنكلاي وسليمان بن جامع الى ملجأ سري أعده صاحب الزنج على نهر السفياني، وبعد مطاردتهم حجز الليل بين الطرفين، فعاد الموفق وجيشه الى معسكره، وفي الصباح تفقد الموفق قواته، وأعطاهم استراحة يوم وفي اليوم الذي يليه أعطى أوامره لكل قائد وقطعته العسكرية أين اتجاهها ومهامها القتالية، وسار أمامهم؛ ومن حسن حظهم كان صاحب الزنج وبعض قواده وجماعة مقاتلة عادوا معه الى المختارة، ونشبت المعركة ووقع القتل بين صفوف الزنوج، وأسروا سليمان بن جامع أحد قادتهم الأشداء وأتوا به الموفق، كما أسروا ابراهيم بن جعفر الهمذاني، وجد الجميع يبحث عن صاحب الزنج، حتى أتاه البشير ومعه كف ذكر أنها كفه، ثم أتاه أحد جنود لؤلؤ ومعه رأس صاحب الزنج فأدناه منه وعرضه على جماعة من المستأمنة الزنوج فعرفوه، فخر الموفق لله ساجداً وسجد معه الناس، وأمر الموفق برفع رأس صاحب الزنج على قناة وشاهده كل الناس، وكثر الضجيج بالتحميد والشكر لله.

وقبل عودة الموفق طهرّ المنطقة بكاملها من الزنوج، وأمن كل من طلب الأمان، أما قرطاس الرومي الذي رمى الموفق بصدره فقتله أحمد أبو العباس، وأمر الموفق أن يكتب الى أمصار المسلمين بالنداء في أهل النواحي التي دخلها الزنوج بالرجوع الى أوطانهم، وأمن الناس بمقامه بينهم في مدينة الموفقية، وقدم ابنه أحمد أبو العباس الى بغداد يحمل رأس صاحب الزنج ليراه الناس فبلغها لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة (٢٧٠هـ) وكان خروج صاحب الزنج يوم الأربعاء لأربع بقين في شهر رمضان سنة (٢٥٥هـ) وقتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة (٢٧٠هـ) وكانت أيامه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام، وقيل في أمر الموفق، وأصحاب الزنج أشعار كثيرة فمن ذلك قول الشاعر يحيى بن محمد الأسلمي

يقول قصيدة طويلة يخلد بها ذكرى هذه المعركة(٥٠).

أقول وقد جاء البشير بوقعة — أعزت من الإسلام ما كان واهيا
وترجع أمصار أبيحت وأحرقت — مراراً فقد أمست قواء عوافيا
ورد عمارات أزيلت وأخربت — يرجع فيء قد تحرم وافيا
ويشفى صدور المسلمين بوقعة — يقر بها منها العيون البواكيا

الخاتمة

لم تكن حركة الزنوج وتمردهم ثورة بمعناها الحقيقي، فهي تفتقر الى قيم وأهداف حقيقية، تمرد استمر حوالي خمس عشرة سنة، تم فيه بناء مدن محصنة، وخرب اقتصاد البلاد وقتل السكان وأحرق المدن، وسبى الأولاد والنساء، وأحل الفوضى بدل النظام، وأوجد طبقة عبيد جديدة بدلاً من تحرير الجميع، وأكثر من الفقر والفقراء فكانت حركته وباء وبلاء على جميع من أصابهم شره، حتى الزنوج في آخر عهده، باع أرزاقهم وأولادهم ونساءهم لأنهم تخلوا عنه، من يطلق على هذا المعتوه بأنه أراد تحرير العبيد فقط فإنه لم يقرأ سيرة حياته وأعماله التي تقشعر لها الأبدان، فكان عليه أن يصارع السلطة، لا أن يقتل الشعب ويحرق المدن ويسبي النساء، ويخلق طبقة عبيد من سادة العرب ومن النساء الشريفات يصبحن إماء، ويظهر أن الرجل تربى على الحقد والكراهية للعرب ودينهم فوقع أسير أفكاره وحقده، فكانت طموحاته محدودة لاتتعدى طموحات رجل أخرق، ولو كانت تصرفاته عقلانية وله غاية وأهداف واضحة في تحرير العبيد وغيرهم من السلطة العباسية التي كانت كالرجل المريض، فأعتقد أن النجاح سيكون حليفه في إسقاط الدولة العباسية ولتغير وجه التاريخ حينئذ. وأخيراً ابتهج الشعب بقطع رأسه وشعر الجميع بالأمن والأمان، وعادت عشرات الألوف من النساء بعد أن تشردن ودمرت حياتهن الإجتماعية، ومثلهن من الصبيان والسجناء الذين كانوا يرزحون تحت عبء سلاسل الحديد في سجون صاحب الزنج.

هوامش البحث

١ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢٠٥ .
٢ ـ سير أعلام النبلاء ـ ١٣/ ١٢٩ .
٣ ـ مروج الذهب ـ ٤/ ١٨٥ .
٤ ـ مروج الذهب ـ ٤/ ١٩٢ .
٥ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢٠٧ .
٦ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢٠٨ .
٧ ـ سير أعلام النبلاء ـ ١٣/ ١٣٠ .
٨ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢٠٩ .
٩ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢٠٩ .
١٠ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢١٠ .
١١ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢١٠ .
١٢ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢١١ .
١٣ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢١١ .
١٤ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢١٢ .

١٥ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢١٢ .
١٦ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢١٢ .
١٧ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢١٣ .
١٨ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢١٣ .
١٩ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢١٤ .
٢٠ ـ مروج الذهب ـ ٤/ ١٨٠ .
٢١ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢٣٦ .
٢٢ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢٣٦ .
٢٣ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢٣٧ .
٢٤ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢٣٧ .
٢٥ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢٤٢ .
٢٦ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢٤٣ .
٢٧ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢٤٣ .
٢٨ ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢٤٤ .

٢٩ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢٤٦ .
٣٠ـ تاريخ الخلفاء ـ ٣٣٦ .
٣١ـ مروج الذهب ـ ٣/ ١٩٣ .
٣٢ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢٥٦
٣٣ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢٦١
٣٤ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢٩٤
٣٥ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٢٩٥
٣٦ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٣٠٧
٣٧ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٣٤٧
٣٨ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٣٥٠
٣٩ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٣٥٢
٤٠ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٣٥٤
٤١ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٣٥٥
٤٢ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٣٥٩
٤٣ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٣٦٥
٤٤ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٣٦٧
٤٥ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٣٦٧
٤٦ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٣٧٧
٤٧ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٣٨٠
٤٨ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٣٨٢
٤٩ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٣٨٤
٥٠ـ الكامل في التاريخ ـ ٧/ ٣٨٦

المراجع التي استند إليها البحث

١ ـ تاريخ الطبري ـ دار المعارف ـ مصر
٢ ـ الكامل في التاريخ ـ دار صادر ـ بيروت .
٣ـ سير أعلام النبلاء ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت .
٤ ـ مروج الذهب ـ دار التراث ـ بيروت .
٥ ـ تاريخ الخلفاء ـ دار التراث ـ بيروت ١٩٦٩ .

القيم العائلية ودور المرأة

تأليف: جيمس ولسن
ترجمة: أمل حسن

نشهد حالياً تحولاً طويل الأمد واسع الانتشار وعميقاً جداً في البنية العائلية قد يستمر مدة طويلة من الزمن.

هناك وجهتا نظر حول العائلة الأمريكية المعاصرة، الأول وجهة نظر العامة والأخرى وجهة نظر النخبة السياسية. أما وجهة النظر العامة فتعتبرالعائلة المكان الملائم الذي يهييء غرس معظم القيم الأساسية في الأطفال، وعلى الرغم من أن هذه

أمل حسن: ليسانس في اللغة الانكليزية، تعمل في حقل الترجمة، لها العديد من الأبحاث المنشورة في الدوريات المحلية والعربية.

القيم أصبحت أقل متانة في الأعوام الأخيرة جزئياً لأن الروابط العائلية أصبحت أضعف ولأن المتنافسين للتأثير عليها ولاسيما ـ التلفيزون والسينما ـ ازدادوا قوة وفعالية، وأحد الأسباب التي أدت إلى ضعف العائلة هو أن الأطفال باتوا يربون أكثر في عائلات وحيدة الوالدين وغالباً ماتكون الوالدة المراهقة هي المسؤلة عن تلك العائلات، والسبب الآخر هو أن الأبوين يقضيان وقتا أقل مع أطفالهما. ولأن القيم العائلية تعتبر أموراً هامة جداً لذلك كان على المرشحين السياسيين التحدث عنها مع أنه من غير الواضح تماماً ماإذا كان باستطاعة الحكومة عمل الكثير من أجل هذه القيم. إلا أن الأمريكيين يعتقدون بشكل عام أنه من الأفضل للأطفال تحديداً إقامة أحد الأبوين معهم وبدون أي عمل خارجي رغم أن ذلك يعني مردوداً للعائلة أقل بكثير.

مثل هذا الاجماع في الرأي غير موجود بين الباحثين الاجتماعيين أو صانعي القرارات السياسية إلا أنه ظاهراً بذاته فالمعتقدات المتعلقة بالعائلات التي يعدها معظم الناس واضحة فعلياً هي معتقدات متنازع عليها بشكل ساخن بين الناس الذي يتركز عملهم على دراسة او دعم العائلات.

وعلى الصفحة الاولى من صحيفة الواشنطن بوست بدأ مثال واضح حي عن مناقشة النخبة اورد فيه المعلق الصحفي حديث بعض الباحثين الاجتماعيين الذين يؤكدون ان التلاثلات التقليدية ذات الابوين لاتعتبر هامة كثيراً من اجل عملية التطور الصحيح بالنسبة للاطفال كما كان يفترض من قبل. هذا الامر دفع ديفيد بوبينو استاذ علم الاجتماع في جامعة روتجرز الذي كتب على نطاق واسع حول القضيا العائلية لان يرسل الى النيويورك تايمز مقالة يتحدى فيها العلماء الذين كتبوا في صحيفة البوست مؤكداً في الوقت نفسه ان هناك (مجموعات كبيرة) من الدراسات وصلت الى نتائج معاكسة تماماً، وان اهمية الدليل «وبشكل حاسم» تدعم وجهة النظر التي تؤكد ان العائلات ذات الابوين افضل بكثير من العائلات وحيدة الابوين.

لكن مايعتبر قطعياً وحاسماً بالنسبة له لايعتبر بالضرورة كذلك بالنسبة لغيره. فهذه هي جودت ستاسي الاستاذة في علم الاجتماع في جامعة كاليفورنيا ترد في رسالة خاصة في صحيفة التايمز قائلة ان قيمة العائلة ذات الابوين هي (مجرد تعصب في الرأي واسع الانتشار) لكن لاتثبته الدراسات المبنية على التجربة واضافت كذلك ان بوبنيو كان يحاول ان يحول (الحنين الى الماضي المضلل الى حقيقة علمية اجتماعية) هذا وقد سلّم العالمان العائليان اولين سكولنك وعالم الجريمة جيروم سكولنك كذلك اللذان يعملان في جامعة كالفورنيا، بيركلي، انه على الرغم من ان بوبنيو يمكن ان يكون مصيباً الا ان قول ذلك علانية يمكن ان يصم بالعار دونما داع الاطفال الذين لايربون في عائلات مثالية. على اية حال تعتبر اراء ستاسي وسكولنكس تمثل بشكل من الاشكال طريقة التفكير الاكاديمي حول هذا الموضوع. ويكرر كثير من السياسيين والمعلقين على هذه الاقوال ويدفعون الحجة خطوة اخرى الى الامام.

ان العائلات ذات الابوين والتي يعمل فيها الاب وتكون فيها الام ربة بيت لاتمثل فقط التعصب للماضي ومحاولة الرجوع اليه وانما تمثل نوعاً من العائلات اصبحت نادرة الوجود على ارض الواقع، وتؤكد الصحف اليومية بشكل مستمر ان معظم الاطفال لن ينشؤوا في عائلات ذات ابوين والرسالة هنا واضحة ليست العائلة ذات الابوين غير جيدة على نحو خاص للاطفال وحسب بل هي تختفي وتزول بسرعة مذهلة. لكن سواء كانت العائلة ذات الابوين او لم تكن جيدة للاطفال فانه من الخطأ الواضح ان يُصبح هذا النوع من العالات اثراً من آثار التاريخ. وبينما يوجد تزايد كبير في نسبة الاطفال وخاصة السود منهم الذين يمضون معظم سنين شبابهم في عائلات وحيلة الابوين الا ان الاغلبية الساحقة من الاطفال حوالي ٧٣٪ على الاقل - يقطنون في منازل مع اباء وامهات متزوجين، واغلب الامهات في هذه العائلات يعملن خارج المنزل اكثر مما كن من قبل مع ان الغالبية العظمى منهن يعملن دواماً جزئياً.

ان اللغة التي يدور فيها النقاش حول العالات ذات الابوين تفترض ان هناك قيد الرهان شياً اكبر بكثير من عدم اليقين العلمي . فاذا كانت القضية الوحيدة التي اهتم بها الامريكيون هي تأثير العائلات ذات الابوين على حياة الاطفال عموماً فان النقاش لن يتوقف عند هذا الحد الا انه لن يدار على الصفحات الافتتاحية بنبرة الغضب الذي يصعب التحكم به .

وماهو قيد الرهان بالطبع هو دور المرأة بشكل عام . وهذا يعني ان دفاعها عن عائلة ذات ابوين هو دفاعها عن قلق النقاد حول مؤسسة تكون فيها المرأة تابعة لزوجها وملزمة باعمال منزلية روتينية دون ان يكون لديها فرصة متابعة مهنة معينة وتُلقن ان تغرس في اطفالها صحة هذا التنظيم القائم، ان دفاعها عن العائلة التقليدية يعني دفاعها عن النزعة الجنسية بشكل عام، وبما ان العائلات ذات الطرف الابوي الواحد هي الى حد كبير عائلات المرأة فيها سوداء فان نقد مثل هذه العائلات ليس فقط نقداً جنسياًبل هو نقد عنصري كذلك تركز الموضوع الرئيسي في الكتابة حول الزواج وحول العائلات خلال سبعينات وثمانينات هذا القرن حول الحقوق الشخصية، وكما كانت الحكومات لاتعتبر شرعية وقانونية الا بمقدار ماتحترم الحقوق الفردية كذلك الزيجات لم تحترم الا بمقادر ماتعترف بالحقوق وتحترمها ومن خلال هذه المناقشات كلها لم يطرح ماهو الافضل بالنسبة للاطفال بل بدا الاطفال وكأنهم حدث عرضي بالنسبة للزواج الا بمقدار ماتفرض عنايتهم قيوداً وانفعالات على ابويهم وخاصة الامهات منهم .

جملة الادلة :

ان وجهة النظر الفردية المعتمدة على الحقوق في مسألة الزواج هي موضوع نقاش بظروفها الخاصة، الا ان هذه الاسئلة النظرية قد تصبح اعتراضات لاتقهر اذا استطاعت ان تبين ان الاطفال يلحق بهم الا ذى ان تربوا في بيوت توجد فيها الامهات فقط او كانت البيوت مشاعية او الزوجان مطلقين . ومع ذلك فقد فشلت الدراسة الاكاديمية للعائلات خلال

السبعينات من هذا القرن في تقديم جملة ادلة غير قابلة للتحدي تبين ان تلك كانت هي الحالة . حاولت عدة دراسات قياس تأثير العائلات ذات الام فقط على التحصيل المدرسي لاطفالها، وعلى نسبة النجاح في العمل، وعلى السلوك الشخصي، لكن ليس هنالك الكثير من الدراسات التي اكتشفت اما انه لايوجد آثار او ان هنالك آثار غامضة ومميزة، ولقد ادركت للمرة الأولى في مطلع الثمانينات من هذا القرن وذلك عندما كنت انا والعالم النفسي في جامعة هارفر ريتشارد جي هير نستعين بكتب «الجريمة والطبيعة البشرية» كانت احدى مهامي الرئيسية هي تحضير اول مسودة للقسم المتعلق بالتأثيرات على معدلات الجريمة وما كان يدعى البيوت المحطمة ـ توقعت ان مجموعة من الدراسات تبين ان تنشئة الطفل في بيت توجد فيه الام فقط وخاصة الولد يضعه تحت تأثير خطر الشروع في الاجرام. الا انني لم اجد ماتوقعته في الحقيقة ولكي اتحقق مما وصلت اليه اتجهت الحقيقة الشائعة التي تؤكد على ان الرجال الموجودين في السجن يغلب عليهم ان يأتوا من بيوت مهدمة بل ان معظمهم كان لهم آباء مجرمون في الاصل ويرجعون لاصول فقيرة واقليات. وبما ان هذه العوامل. الطبقة، العرق، النزعة الاجرامية عند الاب، المرثية العالية للعائلة ـ تميل لتكون مترابطة لذلك لم يعد واضحاً ما اذا كان للخلفية العائلية اي تأثير منفصل عن الميول او الظروف .

تنوع الاسر:

مع ذلك ومنذ ان كتبت ذلك الفصل فان الادلة على ان العائلات وحيدة الابوين سيئة للاطفال ازدادت كثيراً . ولن نحصل على دليل قاطع لهذه الفرضية مالم يبين علماء الاجتماع وضع الاطفال عند مولدهم هل يتون الى عائلات وحيدة الابوين او الى ابوين معا؟ وماهي الظروف العرقية والاقتصادية المختلفة التي نشؤوا فيها ومن ثم مراقبتهم وهم يكبرون شيئاً فشيئاً . الا انه ولحسن الحظ تجعل العادات والقوانين من هذه التجربة شيئاً متعذراً لهذا السبب فان افضل دليل على ذلك يأتي من خلال دراسات

طولانية تستمر سنين عديدة يتتبع الدارس خلالها الاطفال وهم ينمون ويترعرعون شيئاً فشيئاً في اي نوع من العائلة يمكن تأمينه هناك مثال على ذلك هو: تتبع الباحث النفساني شيبارد كيلام وتلاميذه لسنين عديدة في جامعة هوبكنز مجموعة الاطفال السود الفقراء بدءاً من سن السادسة في منطقة فقيرة جداً في شيكاغو عاش كل طفل من الاطفال داخل نموذج من عدة نماذج عائلية مختلفة بالنسبة الى عدد وانواع البالغين الذين كانوا متواجدين في تلك العائلات آنذاك وتبين من التحريات ان حوالي ثلث العائلات كانت فيها الام هي الفرد البالغ الوحيد وان الثلث الاخر، وجد فيه كلا الابوين (وهناك قسم صغير جداً يوجد فيه الاب فقط) اما ماتبقى فكان يتألف من تجمعات مختلفة تضم الام والاجداد والاعمام والعمات والاخوة والاخوات ومن بالغين مختلفين لاتربطهم اية صلة. هذا وقد تبين ان الاطفال الذين يسكنون مع امهاتهم فقط عندما يصبحون في حوالي الثامنة من العمر كانوا اسوأ عينة من كل العينات الاخرى من حيث تأهيلهم الاجتماعي. اما الذكور بعد العاشرة والذين ينشؤون في بيوت تديرها الامهات فقط (والتي اصبحت تشكل حوالى نصف المجموع الكلي) فهم معرضون للجنوح اكثر بكثير من اولئك الذين يتربون في عائلات تضم بالغين متعددين وخاصة الاب بغض النظر عن الدخل العائلي لتلك العائلة ولعل اهم دراسة اجريت حديثاً حول البنية العائلية هي الدراسة التي اجرتها ادارة الصحة والخدمات الانسانية في الوليات المتحدة سنة ١٩٨٨ وقد تناولت هذه الدراسة كل الترتيبات العائلية لاكثر من ٦٠ الف طفل يعيشون في اسر مختلفة ومتنوعة في كافة ارجاء البلاد، واجريت مقابلات مع الكثيرين من اجل تحديد مشاكل الاطفال في مجال الصحة وفي مجال الدراسة وفي مجال السلوك الشخصي، وادرجت النتائج تبعاً لعمر الطفل، ولجنسه ولعرقه بالاضافة الى دخل الابوين وحالتهم الزوجية.

وكانت النتائج مدهشة. ففي كل مستوى دخل طفل باستثناء الدخل

العالمي جداً اي (مايزيد عن الخمسين الف دولار سنوياً) فان الاطفل من كل الجنسين ومن البيض والسود ومن أصل محلي ايضاً الذين يعيشون مع ام مطلقة او لم تتزوج قط كانوا اسوأ بكثير من اولئك الاطفال الذين يعيشون في عائلات يوجد فيها الابوان معاً، وبالمقارة مع الاطفال الذين يعيشون مع ابوين حيويين منسجمين فان احتمال الطرد من المدارس بالنسبة الى الاطفال الذين يعيشون في عائلات وحيدة الابوين، هو ضعف الاحتمال السابق كما ان لديهم من المشاكل السلوكية والعاطفية اكثر من غيرهم بالاضافة الى مشاكلهم مع اترابهم دخلاً فوق الـ(٣٥) الف دولار سنوياً كما انها موجودة في الاسر التي تكسب اقل من عشرة آلاف دولار سنوياً اما تشارلز موري من معهد الدراسات الامريكية فقد درس الاشخاص الذين تتبعت حياتهم من قبل الدراسة الطولانية المحلية للشباب المسماة (Nlsy) منذ ان كانوا في المدرسة الثانوية الى ان اصبحوا في اواخر العشرينات من اعمارهم او في بداية الثلاثينات) لم تحتفظ هذه الدراسة (Nlsy) بسجلات دقيقة فقط عن المدرسة وعن الاعمال وعن دخل هؤلاء الطلاب الراشدين وحسب بل نظرات كذلك الى البيئة المنزلية التي ربوا فيها اطفالهم واخذت هذه الملاحظات المنزلية بعين الاعتبار الناحية العاطفية والتدخل الابوي في رعاية الطفل وفي اسلوب التنظيم وماشابه ذلك وهكذا من خلال هذه الدراسة امكن تصنيف البيوت من الافضل الى الاسوأ. ولقد قارن موري كذلك الظروف البيتية مع الوضع الاقتصادي للابوين ومع الوضع الشرعي للطفل. فوجد ان نزاعات وخلافات الذين يعيشون اسوأ الظروف البيئية تتأثر بشكل كبير بشيئين الاول اذا كان الابوان متزوجين عندما انجبا الطفل او اذا كانا مستفيدين من مؤسسة رعاية اطفال نظامية فوجد ان طفل المرأة غير المتزوجة والمستفيد من مؤسسة رعاية الاطفال كانت لديه فرصة من ستة فرص للتربية في اسوأ - او لنقل عاطفياً اسوأ - بيئة. بينما الطفل المقيم مع ام متزوجة والذي لم يستفد من رعاية اطفال كانت لديه فرصة واحدة من اصل ٤٢ فرصة لكي ينشأ في بيئة سيئة.

هناك مجموعة من الامور تسبب الاذى للطفل بشكل اساسي هي الفقر، الجوار الفاسد اخلاقياً، الابوان الباردان عاطفياً اللامباليان، بالاضافة لان يكونوا اطفالاً غير شرعيين ومقيمين في مؤسسة رعاية وهذا المقياس ينطبق عموماً على الاطفال البيض والسود على السواء كما ينطبق ايضاً على الام المراهقة وذلك ماوجده عالم الاجتماع فرانك فرنستنبرغ وزملاؤه من جامعة بنسلفانيا عندما رصدوا حياة ثلاثمائة ام مراهقة تعيش في الباليتمور وماوجدوه يؤيد النظرة العامة تماماً وذلك لانه اكتشف ان نسبة فشل واخفاق الفتيات المراهقات اللواتي لديهم اطفال اكبر بكثير من نسبة الفتيات اللواتي يؤجلن موضوع الانجساب وذلك يصح على الفتيات اللواتي لهن نفس الخلفية الاجتماعية والاقتصادية ونفس الاهلية الاكاديمية حيث تميل الاغلبية العظمى من هذه الفتيات للذهاب الى مؤسسة الرعاية اكثر من الدخول الى مؤسسة الزواج المستقرة الثابتة. ووجد كذلك على انه اذا اجريت مقارنة بين اطفال الامهات المراهقات والاطفال الاكبر منهم سناً فستكون النتيجة على النحو التالي: وجود ميل كبير عند هؤلاء الاطفال لخلق المشاكل في المدارس ولاظهار العدائية الواضحة وقلة الانضباط بشكل اكبر بكثير من الاخرين وخاصة الذكور منهم في كل المجتمعات هنالك دائماً مهمات مراهقات وقياساً على المجتمعات الاقل تقدماً يعتبر ذلك هو النمط السائد.

لكن مايعتبر جديداً ومقلقاً في الوضع الراهن للولايات المتحدة هو الازدياد الهائل في عدد الامهات المراهقات وتمركزهن في نفس الاحياء ان فتاة مع طفل واحد هي مشكلة بسيطة وذلك عندما تكون وحيدة او محاطة باحكام بعائلة محددة تزودها بالتوجيه والمساعدة المناسبة من نساء اكبر سناً يعشن معها لكن تصبح المشكلة مختلفة بل أكثر خطورة عندما تكون هناك الالاف من الشابات اللواتي يعشن في نفس الحي وفي ظروف مشابهة او في مشروع سكني شعبي يحاولن فيه ان يقمن اسراً مستقلة لاتعتمد على مؤسسة رعاية.

اعتقد ان الشعب الامريكي مصيب في وجهة نظره تماماً حول العائلات وذلك عندما ينظر الى التزايد الدراماتيكي في عدد حالات الطلاق، والى العائلات وحيدة الابوين والى الاطفال الاشرعيين الذين تزايد عددهم بشكل لافت للنظر في الثلاثين عاماً الاخيرة كل ذلك يزيد من نسبة الانهيار العائلي انهم لايحتاجون الى دراسات معينة تخبرهم ان هذه التجارب والاوضاع سيئة بشكل عام لان هذه الاشياء حصلت معهم شخصياً او انها حصلت مع اناس يعرفون تمام المعرفة قد يكون الطلاق علاجاً ضرورياً احياناً لزيجات متصدعة بشكل فعلي وعلاجاً كذلك للحالات التي يخلقها زوجان مهملان او سيئان فعلاً ـ الا انه بشكل عام يجعل الناس في وضع اسوأ: المرأة تزداد فقراً والاطفال يزدادون تعاسة لان تربية الاطفال تعتبر مسؤولية ضخمة الى حد بعيد غالباً ماترهق جهود وطاقات الابوين وتسبب سحق احد الطرفين معظم الاحيان كما ان الاطفال المولودين خارج نطاق الزوجية هم اطفال من منبت فقير غالباً. وهناك الملايين من الناس يقدمون الدليل القاطع على هذه الحقائق النفسية. فاذا قال العلماء ان هذه الادلة غير مقنعة وغير حاسمة فسوف يسيء ذلك لهم ـ الا انني اعتقد الآن ان العلماء بدؤوا يجدون حقائق محضة تدعم وتؤيد الانطباعات العامة.

يحدث النقاش حول تأثيرات البيئة العائلية نوعاً من الاجماع في الرأي الذي سيظهر عما قريب وفي المستقبل العاجل. الا انه لاتوجد اي اشارة تدل على الاتفاق فيما يتعلق بالموضوع الساخن الاخر في الدراسات العائلية ـ الا وهو موضوع الرعاية النهارية هناك رأي سائد بين علماء نفس الطفل يؤكد ان العناية النهارية غير مؤذية ابداً مع ذلك نجد البروفسور جي بليسكي في جامعة بنسلفانيا والمسؤول عن قسم الحياة العائلية وتطورها والذي كان يشارك في وجهة النظر هذه اصلاً يعود الان للقول ان العناية النهرية تعتبر مؤذية في بعض المجالات لبعض الاطفال وخاصة في السنة الاولى من العمر وفي مقالة انتشرت على نطاق واسع عام ١٩٨٨ اعاد

بيليسكي النظر في كل الدراسات التي تمسح وتقيس تأثير الرعاية غير الامومية على التطور والارتباط الاجتماعي ووصل الى النتيجة التي تؤكد إن الموضوع بالنسبة للكثير من التحذيرات الدخول في الرعاية النهارية في السنة الاولى من العمر ولمدة عشرين ساعة او اكثر في الأسبوع يعتبر «عاملاً خطيراً» في تطوير ترابط غير مأمون الجانب في سن الطفولة او سن القصور، بالاضافة الى انه بسبب الازدياد في العدائية وفي انعدام القدرة على المسايرة ويزيد كذلك من فرص الانعزال الاجتماعي لدى الاطفال الذين هم في سن ماقبل المدرسة وفي السنوات المدرسية الاولى. ناقش بعض العلماء بيلسكي نقاشاً حاداً مبنياً على اسس علمية وقالوا ان الادلة كانت اقل وضوحاً مما اقترح هو شخصياً وان مقياس الانسجام العاطفي الذي اعتمد عليه (اخذ بعين الاعتبار ردة فعل الطفل سواء اكان طفلاً ام طفلة بعد انفصاله عن امه) لم يكن سليماً ابداً. وان اطفالاً ينشؤون على نحو حسن في مجتمعات الرعاية اللاابوية التي هي بشكل شائع وانه مهما توجد آثار سيئة لها (ان كان هناك ايا منها) فانها لاتدوم لكن كثيرين هاجموه سياسياً، بل ان مقالات نقدية علمية حاولت ان تضع حدا لتلك الاراء. وماهو قيد الرهان في هذا الجدال المتعلق بالبنية العائلية ليس فقط الوقائع والتفسيرات بل الفلسفة والسياسة: وإذا كان للرعاية النهارية هذه التأثيرات السيئة اذن على النساء العناية باطفالهن شخصياً في بيوتهن الخاصة. وهذه نتيجة غير صحيحة سياسياً واعتقد ان هناك كثيراً من العلماء يشعرون ان دعم الادعاء بالانهيار العائلي يعني اعطاء المساعدة والراحة المطلوبة للسياسيين المحافظين وللقادة الدينيين الذين ينعون هذا الانهيار كثيراً ويطالبون باعادة تأكيد (القيم التقليدية).

الحرية الفردية:

تضاعف بشكل دراماتيكي عدد حالات لدى المراهقات وتزايد عدد العائلات وحيدة الابوين منذ الخمسينات من هذا القرن، ولعل التغيرات

التي طرأت على الاقتصاد وعلى تقديم منافع الرعاية الاجتماعية تفسر بعض اسباب هذا الازدياد وليس معظمه اوكله. لاشك ان هناك بعض السمات الخاصة بالمجتمع الامريكي بامكانها شرح اسباب هذا التزايد، لكن لان انهيار العائلة ـ الانهيار في الزيجات الدائمة وفي الولادات الشرعية حصل لدى امم كثيرة لذلك ليس بالامكان ان يكون بشكا كلي نتيجة السياسات او المزايا الامريكية الخاصة.

اننا نشهد تغيراً واسعاً جداً وطويل المدى في المحيط العائلي قد يستمر مدة طويلة من الزمن اسباب هذا التغير غير مفهومة بشكل كامل لكن قد تتضمن قوتين اساسيتين: الاولى هي التحول الكبير الذي حصل في الوظيفة الاقتصادية للعائلة والثانية التحول الكبير في الثقافة المحيطة بالعائلة نفسها. حيث ان العائلة لم تعد الوحدة المدبرة للانتاج الاقتصادي كما كانت من قبل وذلك عندما كانت الزراعة هي الشكل الوحيد المسيطر على الانتاج، كما انها لم تعد المصدر الرئيسي القادر على اعالة الكبار ولاعلى تعليم الصغار. بالاضافة الى انها لم تعد قادرة على ممارسة الضبط المناسب لافرادها، ليس ذلك فقط بل ان مجموعات القربى الواسعة (العشائر، القبائل، العائلات الكبيرة والمنتشرة في اماكن عديدة) لم تعد قادرة على ممارسة سيطرتها عل الاسر ـ النواة ـ اصبحت النزعة السائدة في القانون وفي التفكير الفلسي منذ عهد التنوير في القرن الثامن عشر حتى الان تتركز على مسألة هامة جداً هي تحرير الفرد من كل اشكال الوصاية ـ وصاية الدولة، المؤسسات الدينية، العادات القديمة، وضمناً كذلك وصاية الاقرباء، لقد تقدمت هذه الدعوى للتحرر بشكل عرضي وغير مستو انما بشكل غير مؤسف عليه فالنظرية السياسية الليبرالية يمجد الفرد وتدعو الى تقيد الدولة لكنها تقف صامته حيال وضع العائلة، وماكان يثير الملاحظة فعلاً هو كيف استطاعت العائلة ان تبقى على قيد الحياة بعد هذه العملية. وهل كانت هي العرف الاجتماعي المجرد الذي يتصوره بعض العلماء؟ لاشك ان العائلة اخذت وقتاً طويلاً قبل

ان تترك حياة الصناعات الكوخية وحياة المزرعة التي يملكها صاحبها وكانت الضحية الحتمية لنزعة الفردانية والتبريرية لاتجاهات الحياة الحديثة لكن العائلة بالطبع ليست بأي شكل من الاشكال وسيلة انسانية معينة احدثت لتكون قادرة على انجاز بعض الاهداف وقادرة في الوقت ذاته على اعادة الخلق والتشكيل من اجل تحقيق اهداف مختلفة.

مؤسسة شاملة:

هناك حقائق منظمة وجوهرية لكل المجتمعات الانسانية البدائية منها والمتطورة بقيت عشرات الالاف من السنين هي العائلة والقرابة فالعائلة هي نتاج عمليات التطور التي تمت ضد اولئك الذين يرغبون في التخلي عن ذريتهم ولصالح الناس الذين هم مستعدين لرعايتهم ولتقديم هذه الرعاية ضمن انظمة قربى محددة اصلاً وفق سلالات وراثية. فاذا اعتبرت العائلة بشكلها المجرد وسيلة من وسائل الراحة واذا استجابت للظروف الاقتصادية بشكل كامل فسوف يصبح النقاش الدائر حول سلطة العائلة اقل حدة مما هو عليه. سيدعم الليبزاليون تربية الاطفال من قبل (محترفين) عبر الرعاية النهارية وسيدعم المحافظون الطفل في البيت من خلال عائدات الضرائب وسيحدد الليبراليون مشكلة مؤسسة الرعاية كذلك كمؤسسة تتعلق بالفقراء كلياً ويطلبون كحل لمشكلتها هذه رفدها بمكاسب خيرة وافرة اكثر وسيعرفها المحافظون كمؤسسة تابعة ويطلبون المزيد من الفوائد كحل للمشكلة، هذا وسيفترض الليبراليون ان المشكلة تكمن في كون العائلات تملك القليل من المال وسيقول المحافظون ان هذه الاموال القليلة تؤخذ من الدولة. لكن في الوقت الذي ستعتبر فيه المسألة العائلية وهي تنخرط الى حد ما في الصراع الدائر بين السمة العالمية للمجتمع الانساني وبين التحدي الحضاري والثقافي العميق مؤشراً لقوة هذه المؤسسة عندئذ ستأخذ القضية منحى آخر مختلفاً تماماً، فالمرء الذي يؤمن الى حد ما بالتحدي الحضاري-اي مسألة التحرر الفردي ومسألة حرية الاختيار الشخصية يجد نفسه منقاداً لمناقشة موضوع

الشرعية العائلة وتأثيرها والمرء الذي يؤمن بالعائلة نفسها يجد نفسه منقاداً لمناشة بعض اوكل وجوه التحدي الحضاري .

هذا ماجعل النقاش الدائر حول (القيم العائلية) حاداً جداً لان الناس في كلا الاتجاهين يشعرون انها هي المعركة الرئيسية في الحرب الثقافية التي تجتاح الاميركيين الان (او على الاقل النخبة الاميركية) فالقيم العائلية تعني للكثير من الليبراليين اعادة التأكيد على السلطة الذكورية وعلى التقليل من حقوق المرأة المكتسبة بعد عناء وجهد طويل، وبطاقة مرور للابوين المهملين كذلك الذين يسيؤون معاملة اطفالهم بطريقة خالية من التدخل الاجتماعي الحازم وتعتبر القيم العائلية للكثير من المحافظين الخط الرئيسي الوحيد القادر على مقاومة الزيجات الشاذة ومقاومة رعاية الطفل إلبيروقراطية، ومقاومة الثقافة الجنسية الالزامية في المدارس كذلك. والعائلة بالنسبة لبعض المحافظين تعني الحصن الدفاعي ضد فكرة المجتمع المخطط ذاتها .

اما حالياً فيقول الرجال العقلانيون ان الاب او الام المثاليين. سيأخذان بوجهات نظر اقل صراحة من الخيارات الاخرى وبذلك يتفقون مع المحافظين في وجهة نظرهم حول العائلة التي يعتبرونها المؤسسة الرئيسية في المجتمع والتي يصعب استبدالها او حتى تعديلها دون حدوث نتائج مصحوبة بكوارث هائلة ويقفون كذلك مع الكثير من الليبراليين في تأييدهم ان المجتمع يجب الا يربط المرأة بالدور المنزلي او يجعلها خاضعة لسلطة الرجل وان على تلك المؤسسات ان تتعرف وتتغلب على الصعوبات الحالية التي يواجهها الزوجان الشابان وهما يحاولان العيش من دخل واحد ذي مدينة كبيرة، وسوف يتفق معظم الآباء على مسألة واحدة مع المحافظين وهذه المسألة تعتبر المسألة الرئيسية انها رغبة الجميع في وجود قادة سياسيين وفي وجود وسائل اعلام وبرامج تلفزيونية معينة، وصور محفزة تشد من ازرهم في المعركة الجارية حالياً حول ماهية العائلة انها ليست واحدة من مجموعة نماذج حياتية بديلة ولاميداناً للتنافس تناقش فيه الحقوق، ولا حاجزاً رجعياً

قديم الطراز يرفض الحياة الجنسية خارج نطاق الزوجية ولامجموعة من حسابات فائدة الكفلة (انها التزام) لان معظم الناس يعون هذه الحقيقة تماماً فان الضغوطات الثقافية والاقتصادية على العائلة الحديثة لم تدمرها قط .

تتركز المسألة الاساسية في سياسة العائلة على ماإذا كانت هذه السياسة ستقوى ام لا من خلال المنظور الاقتصادي لوظائف العائلة وتشمل في الوقت ذاته حلولاً اقتصادياً كاملة لمتطلباتها . لقد كان المصدر الرئيسي للمشورة المتعلق بالسياسة الاجتماعية المنزلية للرئيس كلنتون خلال حملته الانتخابية هو معهد السياسة التقدمي الذي تصدره بصورة خاصة ايلين خامارك ووليام جالستون حيث كتبا مقالة تحت عنوان التفويض من اجل التغيير قالوا فيها «ان افضل برنامج» لمحاربة فقر الاطفال هو وجود عائلة سليمة ومستقرة وعلى الرغم من ان هذه المقالة لم تهمل المعايير الاقتصادية كالعائدات الضرائبية لكل طفل، وز . يادة الاجور للطبقة الفقيرة فانها ناقشت قوانين الطلاقة وجوب تغييرها من اجل تأمين حماية افضل للطفل بالاضافة الى وجوب تقوية وتعزيز المحاولات والجود الرامية لزيادة مسؤولية الاباء في رعاية اطفالهم، واكدت انه على المرأة الحامل التي تأخذ العقاقير الخضوع الى فحص دوائي دوري وانه يجب فرض ضرائب على مايكسبه الابوان الغائبان واعانة اطفالهما كذلك وطالب الرئيس ايضاً باستعمال نفوذه من اجل التأكيد على اهمية العائلات المترابطة السليمة . مع ذلك يعتبر لب المسألة أو بمعنى اخر اهم سمات الحياة العائلية خارج متناول سياسة الدولة، هذا وتصدق الوثيقة العائلية المتداولة حالياً في الولايات المتحدة في مداها الواسع على الفرص التي تقول ان الشركات الكبيرة منحت لمستخدميها بعض الوقت مما يجعل الدور اسهل قليلاً خاصة بالنسبة لامهات الطبقة الوسطى بينما يخدم هذا القرار الامهات الفقيرات المراهقات على نحو اقل . لن تنحل المسألة الاكثر اثارة للنزاع في مشروع الاصلاح بسهولة الا انه من الصعوبة بمكان تخيل حدوث اي تغير معقول في القوانين الموجودة التي قد

تحدث اختلافاً كبيراً في عدد الاطفال المولودين خارج نطاق الزوجية وقد تساعد عائدات الضرائب الكثيرة الابوين الفقيرين العاملين لكن هل يريد الامريكيون فعلاً امهات وحيدات مع اطفال في الثانية من اعمارهم ان يعملن فعلاً؟ ان التشديد على قوانين الطلاق فكرة جيدة الا انها لن تفعل الكثير من اجل ابوين لم يكونا متزوجين اصلاً.

وقد يكون تحسين نظام جمع المدفوعات المخصصة لدعم الطفل فكرة جيدة ايضاً الا ان هناك الكثير من الاباء الذين يهجرون اطفالهم لايملكون الا القليل من المال الذي يمكن جمعه وفي كل الاحوال فانه من غير المحتمل ان يساعد هذا في وجود اباء ملتزمين. اعتقد ان ثقافة العائلة يجب اعادة بنائها من القاعدة واظن ان معظم الامريكيين يفهمون ويستوعبون بكل وضوح الفارق بين عائلة مستبدة انهم يريدون الاولى ويرفضون الثانية بالتأكيد واظن كذلك ان معظم النساء يستطعن التمييز بسهولة بين الحقوق التي حصلن عليها والواجبات المطلوبة منهن انهن يكرسن الاثنين معاً ولايجدن اي نوع من الصراع الاساسي بينهما عدا مسألة واحدة هي انه لايوجد وقت كاف من اجل انجاز كل شيء وان على المرء ان يختار. وانه لامر خارق للعادة كيف ان معظم الازواج والزوجات يتمسكون بثقافة الحياة العائلية التي يزيدها معظم الناس فيما يعتبرها دهاقنة وسائل الاعلام والاكاديميات اشبه بالحياة الكرتونية لاتصلح الا للسخرية والرفض. الا ان هذه المعركة الثقافية المحتدمة ستلفت الانتباه كثيراً لانها ستكون حرباً ذات عواقب اكثر من اية انشقاقات اخرى قد تفصلنا بعضاً عن البعض الاخر وهذا مايسطره التاريخ عندما يكتب عن ايامنا هذه.

المصدر:

مجلة ديالوغ الامريكية العدد: ١٩٩٤/١٠

المثقّف والجمهور
مَن يتّهم مَن؟

محمد جمال طحان

مقدّمة:

لقد كثُر الحديث في الآونة الأخيرة عن تجسير الفجوة بين المثقّف والسلطة، ولأنّنا لانعتقد بامكانيّة ردم الهوّة بينهما، لا الآن، ولا في المستقبل المنظور، واذا كان تاريخنا قد شهد جسوراً استثنائيّة قامت بينهما، فهي لاتعدو أن تكون جسوراً متحركة وبّلّوريّة وملغومة.

* محمد جمال طحان: باحث من سورية، يهتم بالدراسات الفكرية، له عدد من المؤلفات، ينشر في الدوريات المحلية والعربية.

ودفعاً لأي التباس، سنبدأ بتعريف السلطة كما يريد لها هذا البحث أن تُفهم.

السلطة هي القوّة التي تبدو شرعيّة وعادلة في نظر الذين تُمارس عليهم. وعندما يزول العدل، ينهار الأساس الشرعي للسلطة وتنقلب الى مؤسّسة إرهابيّة منظّمة.

ونحن -هنا- نتحدّث عن السلطة التي تستمد وجودها من مركز قوّة غير مشروعة، وتميل نحو استخدام العنف لفرض سيطرتها. أمّا تلك التي تخدم الشعب وتستمد وجودها وشرعيتها من مصالحه وأهدافه، وتستخدم الديمقراطية في اتّخاذ القرار، فهي غير مقصودة في حديثنا هذا[١].

ولاأريد أن تقفز الى أذهانكم السلطة السياسية فحسب، فما سلطة الحكومة إلاّ واحدة من السلطات التي تقوم باسم الدين أو العلم أو القانون.

حال المواطن العربي:

الانسان في الوطن العربي وليد نظم متقلّبة متراوحة بين التقليد والتحديث يعيش وسط سلطات تتكاتف لقهره وافقاره. والناس فيه يتراكضون لتحصيل احدى السلطتين: السياسية أو الاقتصادية أو كليهما، مما جعل قيم المجتمع العربي- عموماً- تتحدّد في ثلاثة أمور، هي: المال، ثم.. المال، ثم المال.

وأكثر المواطنين يحتقرون الأعمال العلميّة ويتركونها للمطحونين الذين يرهقهم موظّف الضرائب لأن يده لاتطال سواهم.

المهندسون.. والمحامون.. والموظّفون.. والتّجار.. وأرباب العمل، مكتبيّون. والمدرسّون يتحدثون نظرياً عن أفكار لاتطبّق عملياً. ويفاجأ المحامي المتخرّج حديثاً بشرطي يمنعه من حضور استجواب موكّله، خلافاً للوائح القانون الجامعيّة.

(١) يُقارن: محمد عبد الرحمن يونس «النص والسلطة» في دراسات عربية، عدد ١٠/ ١١/ ١٢ آب- ت١ ١٩٩٢، ص٢٨ ومابعدها.

وتصبح الصورة عن المحاضرات والحوارات والكتب أنّها كلام في كلام، والكلام لايطعم خبزاً. أما التقنيّة فنستورد منجزاتها ناجزة من غير أن نفهمها، كما نستورد النتائج النظرية من غير أن نتعلّم المنهج الذي أوصل الغرب اليها.

واذا كان لابدّ- لإكمال صورتنا الحضاريّة- من تحصيل بعض المعارف العامّة، فإنّنا نتّجه فوراً الى الثقافة الاستهلاكية المعلّبة في سوبر ماركت السلطة الاعلانيّة، وننقاد معها ساعين الى تنمية النجاحات الفرديّة، من غير أن ندرك مدى الفائدة التي يجنيها الفرد من خلال العمل للمصلحة العامّة.

ولنلاحظ الهوّة السحيقة بين شعاراتنا وممارساتنا، عبر مثال واحد من عشرات الحالات المنتشرة في وطننا العربي الكبير:

فنحن نطلب من الناس التعلّم، وما أن يحصل الانسان على شهادة جامعية حتى يجد نفسه يبحث لنفسه عن فسحة على أحد الأرصفة، يندب حظّه ويلوم ذويه الذين دفعوه لاكمال تعليمه. والمحظوظ من هؤلاء ينال وظيفة لاتغنيه من جوع ولاتأمنه من خوف، ويعيّن في غير مجال اختصاصه، ثم يفقد معارفه العلمية بالتدريج، ويبقى تابعاً مادياً لسواه، مما يشعره بأنه هامشي، فيفقد الثقة بالعلم وبالدولة ثم يفقد ثقته بنفسه، ويعامل -اجتماعياً- على أنه فاشل، فيلجأ الى الاستكانة واللامبالاة. وهكذا يُضاف الى الأمية الأبجدية رقم خيالي من أميّة المتعلّمين.

لقد تحررت الأقطار العربية على التوالي. بنت قياداتها السياسية دويلات قطرية مغلقة، وبقيت تدور في فلك مستعمرها السابق. وانعكست التجزئة القطرية على المؤسسات والهيئات والأسر العربية، وأمسى كلّ فرد يبحث عن خلاص لنفسه، متوهّما أن الخلاص الفردي ممكن في ظل العلاقات التراتبية الاستبدادية المهيمنة، وانعكس ذلك على الوضع الثقافي، فشاعت اللامبالاة وانتشر الشعور بالاغتراب، واكتسب الناس الكسل، وجهلوا أهمية المشاركة ومنافعها، وتعلّموا على فقدان الثقة بالذات

وبالآخرين، وهجروا العمل وتدافعوا لاحراز الثروات واعتادوا الرياء والكذب والنفاق والاتكالية. من معطف هؤلاء خرج المثقف مترنّحاً يبحث عن هويته. فمن المثقف؟

المثقف والجمهور: محاولة البحث عن مفهوم:

لابد لنا من تحديد مانقصد اليه بالمثقف وبالجمهور لنتمكّن من معرفة العلاقة بينهما.

المثقف اسم عام، لذلك هو لفظ متعدد المعاني، ولايمكن أن نعرّفه بالحدّ التام، ويُكتفى عادة بتعريفه بالحد الناقص، أو بالمثال.

المثقف عند العامّة (أو الدّهماء) هو الخبير في الحياة، الذي يمتلك فطنة في معاملة الناس بصرف النظر عن عامل العلم. والمثقف بحسب المعنى المتداول منذ الغزالي هو من ألمّ بشيء عن كل شيء، تمييزاً له عن العالم الذي يعرف كل شيء عن شيء واحد. أما المعنى المقارب لما يقصد اليه بالمثقف في المعاجم العربية فهو الحذق الفَطِن مقوّم الاعوجاج والمهذّب المتعلّم.

أمّا لالاند وصليبا فيعنيان به، فلسفياً هو من نمت لديه الملكات العقلية أو البدنية. والثقافة عندهما هي مايتّصف به الرجل الحاذق المتعلّم من ذوق وحسّ انتقادي. واذا عُرِّضت الثقافة بحسب اتصالها بالواقع، نجد أنها على ثلاثة مستويات: متخلفة عن الواقع، أو متطابقة معه، أو متقدّمة عليه. كيف إذن نحلّ الإشكال بين هذه المستويات، وأيّها ينتج مثقفين؟

نحن نزعم أن الثقافة زمانيّة لأنّها تتشكّل في الزمان، واذا كان الزمان يقاس بالحركة في المكان، فان الثقافة تتم بالحركة لا بالسكون. ومن هنا يمكننا استبعاد الثقافة المتخلفة عن الواقع لأنها حركة ارتدادية، كما يمكننا استبعاد الثقافة المتطابقة مع الواقع بوصفها سكونيّة. فهل يكون حاملو الثقافة التي تتقدم على الواقع هم وحدهم المثقّفون؟

فاذا كان الجواب نعم، فكيف نميّزهم من سواهم؟ لنلجأ اذاً الى بعض المعايير التي تميّز المثقّف من سواه. هل المثقف هو من يقوم بعمل مكتبي؟

ولكن التجار وأرباب العمل والموظفين يقومون بعمل مكتبي، فهل هم مثقّفون؟ واذا أضفنا معياراً آخر للعمل المكتبي الذهني، هو التحصيل العلمي، فهل تصلح هاتان العلامتان لتمييز المثقّفين؟ ولكن.. أليس هناك فرق بين المثقفين وأصحاب الاختصاص في العلوم التطبيقية؟ بل هل يمكن أن نقول عن أساتذة الجامعة في العلوم الانسانيّة أنهم مثقّفون وأكثرهم لايخرج عن المقررات الدراسية التي برمجها اداريون؟ ما الذي يميّز أساتذة الجامعة أو خريجي العلوم الإنسانية من سواهم؟ إنّهم أناس حصلوا على شهادات من أجل ممارسة عمل تخصصي، وهو لايختلف عن سواه، من أنه اختصاص وحسب.

إنّ المثقّف ليس صفة مهنيّة كالطبيب أو التاجر أو المدرّس، أو الطبيب- التاجر، أو المدرّس التاجر. وحتى أعلى الشهادات لاتمنح المرء صفة المثقّف مالم يجاهد ليتجاوز دائرة اختصاصه بحسب تعريف سارتر له بأنه (انسان يتدخّل فيما لايعنيه[1]) فلايمكن القول إنّ كلّ مختص مثقّف، بينما لابد أن يكون كل مثقّف مختصّاً، لأنه ليس هناك عمل أو اختصاص اسمه (مثقّف). ونحن نقول (مثقّف) تماماً كما لو قلنا (متديّن) التديّن ليس مهنة أو اختصاصاً، لذلك فإنّ الاختصاص لايُكسب صفة الثقافة.

إننا نستطيع أن نفهم كلمات: الفقيه- الباحث- الصحفي- القاضي.. ولايستطيع الانتماء إلى أيّ منها إلاّ من تمتّع بمواصفات محدّدة ومتّفق عليها. ولكن كلمة (مثقّف) ماتزال لاتستدعي الى الذهن صورة محدّدة، ولهذا يستطيع أي منّا ادّعاء حيازتها. ونحن عندما نقول (مثقّف) فان كل السامعين يتصوّرون أنفسهم. أما عندما نقول (مواطن) أو (جمهور)، فان كل انسان يعتقد أنه ليس معنياً بهذه الكلمة، وكأنّ الحديث

(١) سارتر، دفاع عن المثقفين، تر: جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت، ١٩٧٣، ص/ ١٢/ .

يجري عن شخص آخر سواه. فمن هو الانسان العامّي؟ لاأحد يعتقد أنه المقصود، اللهم إلاّ بعض أميي الأبجدية.

ولنلاحظ امتعاض الأطباء والمهندسين عندما نخرجهم من دائرة الثقافة، لأنهم لايقرؤون وتبعاً للمعيار نفسه لايمكننا أن نستثني العمال والفلاحين والتجار من دائرة الثقافة. وماقولنا في الذين لايقرؤون لأنهم يعتقدون أن الثقافة ليست في الكتب، وهم بالكاد يعرفون أن الصومال بلد عربي وأن جهل فعل ماض مازالوا يعيشونه؟ فما العمل اذاً؟ هل نعادي الأخصائيين الذين يقومون بأعمال فكرية، بابعاد صفة الثقافة عنهم؟ وهل نعادي الاداريين والسياسيين؟ وهل نغضب الفلاح والعامل والتاجر والسمسار؟ لا.. إنني أميل، وبحسب المعطيات السابقة، الى قول غرامشي «إنّ كلّ إنسان مثقّف»[1]. وهكذا نخرج جميعنا راضين. ولكن ذلك لايعني أنني أريد تمييع المسألة، وإنما أريد توليد التعريف منكم. نحن أمام عنوان (المثقّف والجمهور) واذا كان كل انسان مثقّفاً فإنّ هذا يضعنا أمام معضلة البحث عن الجمهور.. فمن الجمهور اذاً؟

لابد، لحل هذه المشكلة، من البحث عن معيار آخر نحدّد على أساسه من المثقّف ومن الجمهور. فلنبحث عن المثقّف من حيث وظائفه. هل يمارس كل الناس وظيفة المثقف في المجتمع؟ هل يمكن أن نقول عن انسان يحمل فكرة ما بشكل عشوائي ويستهلكها بحثاً عن سواها، بأنه مثقّف؟ وهل تطلق عليه هذه الصفة كما تطلق على انسان ينشر الفكر بفعالية، ويساهم في ابداعه، يحمل ثقافة لا ليستهلكها، بل ليعيد انتاجها ثم يتجاوزها بانتاج ابداعي؟ لنتّفق -مبدئياً- مع كل انسان بأنه مثقّف، وأنه يمتلك وعياً فردياً فذاً، وليتفق معنا هو أيضاً بأننا نحتاج الى وعي جمعي مرافق. فمن الذي ينتج هذا الوعي؟ فلنبدأ من جديد.

(١) انطونيو غرامشي، قضايا المادية التاريخية، تر: فواز طرابلسي، دار الطليعة، بيروت ١٩٧١، ص/ ١٣١/.

لدينا مفردات:
المعلّم المتعلّم المعلّم المتعالمْ
المعلّم يعلّم، والمتعلّم يتعلّم، والمعلّم قد تعلّم.
المعلّم يرسل، المتعلّم يستقبل، المعلّم يحاور
المعلّم فاعل، المتعلّم منفعل، المعلّم متفاعل
وبالمقابل اذا أعطينا للمثقّف فاعلية يغدو مثقّفاً. فيصبح لدينا:
المثقّف، المتثقّف، المثقّف، المتثاقف
المثقّف يثقّف، المتثقّف يتثقّف، المثقّف قد تثقّف
المثقّف يصدّر، المتثقف يتلقى، المثقّف يحاور
المثقّف فاعل، المتثقّف منفعل، المثقّف متفاعل
وعليه فأنت مثقّف بوصفك مرسلاً، في لحظة التصدير
وأنت واحد من الجمهور بوصفك متلقّياً في لحظة الاستقبال.
والجمهور لغةً هو أشراف الناس، وهو الذي يحضر ليصغي رغبة منه في أن يتقدّم.

وعندما نقول: «جمهور» فاننا نعني به المثقّف المتفاعل، أي المتلقي الذي يعي. ولاأظن أن هناك متلقّياً للثقافة لايعي، وإلا لكفّ عن كونه من جمهورها. ان قلّة حضور جمهور الثقافة الى منابرها، لاتعني بأن الرغبة في الثقافة لديهم انعدمت، ولكن هناك مانعاً منعهم من ذلك، كالركض اللاّهث خلف لقمة الطعام، أو بسبب ضيق أفق المثقّف (بكسر القاف وتشديدها)، أو لاستخدامه لغة مغرقة في التخصص الاصطلاحي، أو لأنه يتحدّث بأمور لاتمسّ واقعهم، أو لأنّ المحاضر ترك دوره وانضم الى قافلة وسائل الاعلام.. الى آخر ماهنالك مما ستتكلم عليه لاحقاً. وبحسب هذا التعريف يغدو مفهوم (المثقّف) هشاً أمام مفهوم (الجمهور)، لأن المثقّف قديكون في السلطة أو على هامشها، وقد يكون انتهازياً أو نفعياً أو ميكيا فيلياً. ولكن جمهور الثقافة هو المقهور الذي يبحث عن مخرج لنفسه ولأمّته، وهو مايزال يحمل في داخله بصيص أمل للتغيير، ولانملك إلاّ أن نحترم موقفه النبيل.

اذاً كلّ انسان مثقّف، وأفضل المثقّفين الجمهور، باعتباره متفاعلاً واذا لم يكن كلّ متعلّم مثقّفاً، ولم يكن كلّ مثقّف مثقّفاً، فإنّ كلّ مثقّف متعلّم وهنا نقوّم عنوان موضوعنا فيصبح (المثقّف والجمهور).

ومن جهتي فأنا أفضّل أن أثقّف قليلاً، وأن أكون واحداً من الجمهور دائماً، أو إنني كذلك فعلاً.

أمّا مصطلح المثقّف أو الانتلجنسوي فاننا سنتركهُ للمعنى السلبي للكلمة، وهذا سيتضح من خلال المقارنة بين المثقّف والمثقّف اضافة لما طرحناه من اختلاف حول المفهومين من خلال عاملي الارسال والتلقّي.

إن المثقّف هو الذي يقرأ الواقع وينقده، ثم يعيد تشكيله عبر أسئلة الوجود المقلقة، ناشداً التقدّم، قد يكون المثقّف مع احدى السلطات، ولكن المثقف لايستطيع إلاّ أن يكون مع الجماهير، لأن الذي ينخرط في صفوف السلطة يكف عن كونه مثقّفاً، لأنه بحسب موقعه السلطوي- يعزّز الواقع المتخلّف، فكيف يدعم التخلّف ويدّعي العمل من أجل التقدم والجماهير؟

فالمثقّف بهذا المعنى هو المثقّف المتعلّم المعارض الفاعل الذي يتّخذ موقفاً ويدافع عنه أما المثقّف السلطوي أو السلبي أو الانتهازي، وإن كنا لاننكر عليه ثقافته، فاننا سنترك الحديث عنه لسوانا، لأنه لايعنينا، ولانعوّل عليه في عملية تجسير العلاقة بين المثقّف والجمهور لصالح الوطن والمواطن.

-إن التثقيف فن، والمثقّف فنّان والفنان محتجّ يريد أفضل مايمكن أن يكون. لذلك يرفض الواقع، ويركّز على السلبيّات فيه، لأنه يرى أن الشيء الجيّد هو شيء طبيعي لايمنّ به أحد علينا.

إنّ الفنان يُظهر جمال الواقع الطبيعي، كما يُظهر قبح الواقع المستحدَث سلطوياً، يظهره عبر أداء جمالي يدعونا الى نبذه. وهو بذلك مفكّر حرّ، يخدم الفكر الحرّ الخالي من طموح سلطويّ، مناهضاً كل الظروف التي تجعله مستبداً أو مستبَداً به، رافضاً تبوأ أيّ مركز سلطويّ، لأنه يعدّ أيّ اعتداء على أيّ حرية اعتداء يمسّ كرامته هو قبل أن يمسّ سواه، فكيف يمكنه تمثيل دور قاهرية من

غير أن يكفّ عن كونه مثقفاً مبدعاً؟ فان تكن هذه هي مواصفات المثقّف، فكم من المثقّفين يوجد لدينا؟ وماهي حالهم؟ وماسبب فتور العلاقة بينهم وبين الجمهور؟ وهل هناك مشكلات خاصة بالمثقّف بوصفه مثقفاً يحاول اختراق جدار السلطة تمهيداً لهدمه؟

حال المثقّف والجمهور :

لقد حاولنا فيما مضى وصف واقع المواطن العربي في سجنه الكبير، كما حاولنا تحديد مصطلحي المثقّف والجمهور، على الأقل كما يردان هنا وقبل تحديد دور كلّ منهما، سنحاول أن نرسم صورة واقع المثقّف ثم واقع الجمهور لنرى من يتّهم من؟ وذلك ضمن اطار قانوني نعيشه (المواطن متّهم حتى تثبت براءته).

إنّ المثقّف يرى نفسه لاينتمي الى رابطة ثقافيّة، كما لاينتمي الى فئته الاجتماعية التي انحدر منها، لذلك يعاني الاغتراب ويدين السلطة والجمهور ونفسه، ويتبادل مع زملائه الاتهامات بغير احترام. فكيف يثق الجمهور بمن لايحترم سواه كدليل ضمنّي على عدم احترامه لذاته.

إنّ مثقّفينا -كمواطنيهم- يعتقد الواحد منهم أن نجاح الآخر يعني فشله[1]. وبالتالي فهو في صراع مع مثيله، ونحن -عموماً- لانتقد، بل نكتفي بالتشهير ببعضنا. وكثيراً ما أعرض عن التصريح بآرائي لأنني لاأريد فض العلاقة الثقافية والحميمية بيني وبين الآخرين. فاذا مااجتمعت بمثقّفين ذوي اتّجاهات مختلفة، بدءاً من أقصى اليمين وانتهاء بأقصى اليسار، فانّ التصريح بوجهة نظري لابد أن يعني أنني سأخسر الفرقاء الذين لايوافقوني عليها لأننا -الى الآن- لم نتعلّم كيف نتّفق على الاختلاف، ونربأ بأنفسنا عن الطائفية والتعصبية والشلليّة. ونتجاهل أن أيّاً منّا لايستطيع أن يكشف إلاّ عن حيّز ضئيل من الحقيقة، من غير أن يستطيع أحد الادّعاء بحيازتها

(١) ينظر: هشام شرابي، مقدمات لدراسة المجتمع العربي، الأهلية للنشر، بيروت ط٥، ١٩٨٥، ص/ ٩٢.

وحده وقد يبدو المثقف تقدمياً في محيط زملائه الجامعيين مثلاً -ورجعياً في محيط أسرته. وعلى ذلك يلاحظ لديه انفصام وازدواجية في السلوك، مما يصرف الجمهور عنه. والمثقّف يخاف من ابداء الرأي بحريّة، ولايبقى مصراً على مواجهة السيء أو الشر أو القبح، فكيف يريد من الجمهور أن يفعل ذلك واذا نظرنا الى بعض المثقفين في مكان ما، نراهم ناقدين محلّلين موضوعيين، فاذا مامُنحوا خمس دقائق في الاذاعة أو التلفاز، نجدهم ينقلبون بطريقة ميكانيكية الى مدّاحين مبشّرين.. تعجبهم سلطة ما، وبرامجها، والتقدّم الذي تحقق بفضل فلان خلال فترة وجيزة. ثم نراهم في اليوم التالي يعانون الأمرّين من أجل الحصول على الرغيف، أو يُضطرّون الى القيام بأعمالهم على ضوء الشموع.

كما أن المثقّف -عموماً واجمالاً- يستعمل عادة لغة اختصاصية تغرق في استخدام مصطلحات لايفهمها الجمهور، وهو بذلك يماثل الانسان الذي يتحدّث بأسلوب زئبقي عبر جمل غامضة يصعب ربطها، بحيث تكون محصّلة خطاب أو مقابلة تلفزيونية تمتد ساعتين هي: لاشيء.

مما يجعل الجمهور ينحسر شيئاً فشيئاً ويمتنع عن الاصغاء لمثقّف لايقول مايريد قوله ببساطة ووضوح.

والمثقّف قد يأخذ دور السلطة الأبوية أو السياسية، فما أن يصعد الى منبر ما حتى يبدأ في الوعظ. وكثيراً مانستخدم الوعظ التهديدي قائلين: قال فلان المسؤول (الذي أضحى سائلاً في الواقع) كذا.. وعلينا الالتزام بأقواله لأنّ سلطته عليا وملزمة. ثم نعلّق الشعارات المحذّرة: بأمر من البلدية ممنوع رمي النفايات في الشارع، وممنوع استخدام الزمور، بأمر من شرطة المرور -فاذا أردنا التوعية، ما الذي نفعله.. نرهب.. نرفق مطالبنا الإصلاحية بترهيب من مصدر عال.

واليكم مثلاً واقعياً: في قصر العدل بحلب.. وفي منتدى المحامين، حيث لايدخل المكان عادة إلاّ محامون، كتبت في احدى الزوايا لافتة تقول:

لاترم أعقاب السجائر على الأرض. أولاً: محامون ولايلتزمون.. ولننتبه: مثقّفون ذوو عمل علميّ لايلتزمون بالنظافة. ولننتبه: محامون يخاطبون بلهجة آمرة (لاترم) ولننتبه: مثل هذه اللافتات التي لاتوضع إلاّ لمن يفك الخط بصعوبة.. كتبت لمحامين، ثم كتبت (لاترم) بالياء، ولم يعترض أحد المحامين عليها، لاأدبياً ولاأخلاقياً ولانحوياً، وكأن الأمر لايعنيهم.

إنّ الوعظ لايجدي لمكافحة الرشوة -مثلاً- في مجتمع تنمّي فيه وسائل الاعلام، وهيئات التخطيط، والعلاقات الاجتماعية، الجشع اللامحدود.

إنّ المسألة أكبر من ذلك بكثير، إنّ الشيء اللازم هنا هو التوعية، المترافقة بامكانية التطبيق، بعيداً عن الخطاب الوعظي العقيم. ومن المثقّفين الذين لايخرجون عن الأسلوب الوعظي هم بعض خطباء المساجد الذين لاينفكون يعظون الناس بالوعد والوعيد، بالترغيب والترهيب، للفوز بالنعيم وتجنّب الجحيم. ان مثل هذا الأسلوب يلامس العاطفة لا العقل، إنّه يخاطب الشعور فيحس المتلقّي برهة من غير أن يقنعه. ولهذا نجد المصلّي ما إن يخرج من المسجد حتى تعاوده نوبة الاستغلال والتناحر والصراع لحيازة السلطات الدنيوية.

إنّ الهدف الأساسي من خطبة الجمعة هو توعية الناس وتبصيرهم بأمور دينهم ودنياهم إنّ المسجد جامع تتضح أبعاد كونه جامعاً، يوم الجمعة، حيث يسعى ملايين الناس اليه، في لحظة واحدة، لينصتوا بخشوع.

ومن هنا تأتي أهمية هذه الوسيلة العظيمة من وسائل التوعية. جمهور غفير يذهب ليتلقى مسلماً مستسلماً حيث لايفكر إلاّ القليلون منهم بالتلقّي النقدي، وحينذاك يكون الوقت مناسباً لأن يرتفع المثقّف -الخطيب عند الله وعند الجماهير بأن يتحدث اليهم عن أسباب معاناتهم ويحاورهم في سبل التخلّص منها.

وهذا الأسلوب الخطابيّ -إن لم يصدر عن متعمّم- قد يعطي انطباعاً

للجمهور بأن صاحبه متعجرف متعال وبأنه يعد نفسه من النخبة التي تختلف عن الرعاع. وتتعزز تلك الصفة فيه حين يبدو جاداً في بعض آرائه، وحين لايترك مجالاً للحوار، وحين ينأى بنفسه عن المشاركة بالنشاطات الاجتماعية، فيقطع صلته بذويه ومعارفه، ويتعامل مع الناس على أنهم موضوع للتحليل من غير أن يتواصل معهم ويدرس مشكلاتهم عن قرب.

كما أنَّ المثقَّف، خاصة بوصفه مبدعاً، يلاحظ أنه قد لايتحمل نقداً ولايصغي اليه. فاذا ماوجّه اليه نقد سرعان ماينقلب الى انسان بدائي. لابأس، يمكنك أن تتصرّف كشاعر، ولكن هذا لايعني أن تتعالى على الجمهور وأن تتّهم نقّادك بالدونية وبنقص الاطّلاع. إنّ الجمهور لن ينتظر خيراً من رجل لايحمل من الشعراء إلاّ نظرفهم، في حين أن المبدع كلما علا شأنه ازدادت شفافيته، ازداد ابداعاً ورفعة واتّصالاً بالناس.

كما على المثقّف أن ينفي عن نفسه صفة النخبة أو الأنتلجنسيا، لأن هذا الوصف ينفّر الجمهور منه، ذلك الجمهور الغارق حتى أذنيه بالنخبة السياسية، والنخبة العسكرية، والنخبة الفنيّة، والنخبة الاقتصاديّة.

فهل تنقصه النخبة الفكريّة أيضاً؟ هل هو بحاجة الى نخبة أخرى تتعالى عليه وتخاطبه بلغة لايفهمها؟ لاأظن ذلك. بل على المثقفين أن يوصلوا الأفكار والمفاهيم المجرّدة الى الجمهور بلغة واضحة مفهومة لاتحتمل اللبس أو التأويل، آخذين بعين الاعتبار خصوصية الجمهور الذي يخاطبونه. حقاً، إنّ المبدع اليوم محاط إمّا بمشكلة الوضوح ومعاداة السلطة أو بمشكلة الرمزية ومقاطعة الجمهور الذي لايقوى على حل الألغاز.

ومع ذلك، على المثقّف أن يدخل في لعبة التمرير على الرقيب محاولاً الحفاظ على لغة وأسلوب فنيين من خلال رفع سويّة الجمهور واستطلاع رأيه لتحقيق فريد من التواصل معه. وإلا، أليس غريباً أن يستخدم المثقّف -أحياناً- لغة غير مفهومة في مخاطبة الجمهور، مادام الخطاب موجهاً اليه أصلاً؟ ومافائدة مايقال -حينئذاك- اذا كان لن يعيه إلاّ..

متخصصون، كأن يحدّثني عن الفرق الكيماوي بين الزيوت المهدرجة وغير المهدرجة من غير أن يسمي لي المواد التي عليّ تناولها حتى لا يضاف إليّ فقر الدم الى فقري الجيب والحريّة. إنّ فعالية المثقّف تقاس بمدى قدرته على جذب الجماهير والتعبير عنها بشكل حقيقي، والجمهور لن يقتنع بالمثل العليا، مالم يجد بعداً عملياً سريعاً لها. ومن أجل اقناعه وكسب مشاعره، لابد من تحويل الأفكار الى صور واضحة تتصل بحاجاته ليصبح للأفكار بعد عمليّ، ويقتنع -حينذاك- بأهميّة التطوير، ولكي يكسب المثقّف ثقة الجمهور، لابد له من الابتعاد عن أهل السلطة، ومراكز القوى. وكلما ابتعد عنهم كسب الناس وتأكّدوا من أنه لايشارك في عملية الخصي الفكري الذي يصيبهم، لأنهم مدركون أنه لايستطيع أن يكون ودوداً وديمقراطياً إلاّ مثقفاً بلا سلطة وبلا مراكز قوى تسانده. إنه مثقف يقف في وجه أعداء الناس معبّراً عنهم ومتصدّراً -باسمهم ولأجلهم- عملية الرفض القاطع للنتانة. وهو المنوط به -على امتداد الوطن العربي- بناء ماهدمته السياسة القطرية التي ترسّخ التجزئة وتسعى الى تدعيمها.

وقد يتساءل المثقّف: نحن نتكلّم، ولكن من يصغي الينا؟

نحن نتكلم ونناقش ونحلّل ونضع الحلول ولانلقى صدى جهودنا لدى الجمهور، وكأننا نكتب لبعضنا أشياء نعرفها جميعاً، فلماذا نرهق أنفسنا، خاصة، وأننا محاصرون عربياً وسياسياً وتربوياً واقتصادياً. فكل قطر يمنع مايشاء من الصحف والمجلات، وكثير من الحكومات العربية تريد أن تصنع من كل مواطنيها نسخة واحدة تمجّد باسمها، فاذا ماأبدعنا استعملت معنا أساليب الترغيب والترهيب، كما أنّ الأعراف السائدة تتجنّب الابداع وتحذّر من تناوله أو تداوله وتشجّع التلقي التلقيني.

هذا فضلاً عن أنّنا منهمكون، كلّ بعمله أو اختصاصه مما يشغلنا عن انتاج الثقافة أو تلقّيها. وقد يرتاب المثقّف بالجمهور، لأنه يرى الناس عادة تبارك الأقوى، فلماذا يناضل من دون أن يلقى قوى جماهيرية تدفعه وتحميه.

هكذا يجد المثقّفون أنفسهم وحيدين فيتحولّ اندفاعهم الى مايسمّونه القرف من مواصلة تنظيف المستنقع منفردين، ويفضّلون الانسحاب ضاربين للجمهور أروع الأمثلة على اللامبالاة، ثم يبدؤون بتوجيه التهم اليه مبتدئين بوصفه باللامبالاة وانعدام التفاعل، اذ يترك الناس المثقّف يواجه مصير جرأته بنفسه من تهميش واقصاء، غير مدركين أن السلطة عندما تهمّش المثقّف أو تقصيه، فانّها تقصي معه كل الفئات التي ينتمي اليها أو يدافع عنها، وعندما تغتاله فانّ ذلك يعني قطع لسان الأمة، ومن البديهي أنّ الوعي يحتاج الى انسان يقبل بتحمّل المسؤولية، أمّا الذي يؤثر السلبيّة، فانّه عندما يواجه فشلاً، يلقي اللّوم على القدر أو الظروف، ممّا يزيد من تواكله فيعجز عن مجابهة سلبيات الواقع ويستسلم الى الاستكانة واليأس، ويعمل على الهرب من الواقع عن طريق ثقافة الاستهلاك.

ومع مرور الأيام ارتبطت الجماهير برجل الدين -الخطيب- الداّعية، ولم تعد تميّز بينه وبين عالم الدين- المثقّف، الذي هو وحده المؤهّل للانضمام الى قافلة حاملي لواء التوعية، عبر ايمانه بأنّ الاسلام دين العقل وليس دين الدروشة والخرافات التي يتخفّى خلفها مثقفو المنتفعين المتفعون.

وماالذي يفعله الجمهور أمام عطاء المثقّف؟

إنّه يستقبل المعلومات بشكل أفقي من دون انتقاء أو حوار أو تفاعل إنّه يخزّن المعلومات(1) لينضمّ الى قافلة مدّعي الثقافة الذين يذكرون لك من أسماء الكتب والكتّاب. في حديث قصير ما قد يفوق مايقرؤه طالب جامعي خلال سنيّ دراسته. وما النتيجة التي يمكن الخروج بها بعد ذلك؟ لاشيء.. مجرد كومبيوتر رديء الصنع. واسمحوا لي بتعبير لم أجد أفضل منه لوصف حالتنا الثقافية أو التعليمية عموماً.. إنّ المتلقي الذي يتمتع بذاكرة قوية (يتقيّأ) المعلومات بعد أن يسمعها، من غير أن يُعمل فكره فيها،

---

(1) ينظر الحديث عن (التعليم البنكي) عند باولو فرايري، تعليم المقهورين، تر: يوسف عوض، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٨٠، ص٤٩-٦٣.

إنّه فرّاخ للمعلومات، وبهذا يخدم السلطوي الذي يحرص على بقاء الثقافة في حالة دائرية ويحول دون تحويلها الى ابداع ومشاركة، وذلك لمعرفته بأن انتشار المشاركة الثقافيّة ستفضي بالضرورة الى مشاركة اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة لاتلبث أن تسحب الكرسي الذي يجلس عليه المستغلّون. ويتبع ذلك كله أن الجمهور لايقرأ وهو في أحسن الأحوال، يرهق نفسه بحضور بعض الندوات والمحاضرات، يتلقّى ماتيسّر له من معلومات ثمّ ينصرف متذمّراً من أنّ المثقّف قد أورد بعض الكلمات والمصطلحات الصعبة ليبرهن لنا أنّه (مثقّف). هذا في حين أنّ جمهور الثقافة لابد له من أن يحاول امتلاك بعض المفاتيح المعرفيّة ليتمكّن من التواصل مع المثقّف، وليشارك من ثمّ، في عمليّة الارتقاء الثقافي لشعبه.

وقد يحجم الجمهور عن التواصل لارتيابه بكل مايدور حوله، ظانّاً أنّ الحوار يبقى محصوراً في اطار المتنفّذين الذين لايريدون من الحوار سوى كشف المعارضة أمام السلطوي، تمهيداً لتسليمها اليه واستلام المكافأة. وعلى العموم، فإنّ الجمهور لاوقت لديه للقراءة ومتابعة التطوّرات التي تحدث في العالم، إنّه مواطن مسحوق يلاحق لقمته في فضاء سلطات تدفعه ليرهق.. ثم تروّج له الاستهلاك، ليبقى يلاحق حاجات اصطناعيّة- مصطنعة. ويغفل عمّا يدور من حوله، لاتريد السلطة أن تتيح وقتاً للجمهور كي يفكّر، ولهذا فانّ كثيراً من الناس هم جمهور بالقوة جمهور كانت، ما إنْ تتاح له فرصة الشعور بالثقة تجاه المثقّف حتى يدرك أهميّة الثقافة التي لاندّعي أنها بديل الخبز، ولكنها ضرورية من أجل الحصول عليه غير مغموس بدم الأصدقاء.

دور المثقف:

إنّ العلاقة القائمة اليوم بين المثقّف والجمهور، هي في أحسن الأحوال، علاقة مجاملة. ولاينكر أحد أنّ كلاً منهما يحتاج الى الآخر ويحتاج من الآخر أكثر من المجاملة، بحيث يمدّ كل منهما يده ليعاهد الآخر على التفهّم والتفاهم لبدء علاقة العمل الموحّد من أجل خير الانسان.

فاذا بدأنا بدور المثقّف ليمدّ جسراً من ناحيته باتّجاه جمهوره، نلاحظ أن دوره يتوزّع على صعد ثلاثة :

أولاً- دوره مع نفسه بأن يكون صادقاً معها في كل مايقوله ومايفعله بحيث يتيح لها الانسجام الداخلي.

ثانياً- دوره مع زملائه بأن يتعاون وإيّاهم عبر حوار متواصل يفضي الى تحسين العلاقة بينه وبينهم ليعمل واياهم كفريق.

ثالثاً- دوره مع الجمهور بأن يكسب ثقته ويبادله عملية التفاعل لتوسيع الذاكرة الثقافية حتى ينقرض تعبير الدهماء أو العامّة الذين لايرون ولايسمعون ولايتكلّمون.

إنّ النجاح على هذا المستوى، هو الطريق الوحيدة التي تفضي الى استعادة كرامة المواطن وحريته، وتمكّنه من التواصل مع العالم، على اعتبار أن الحضارة مكسب انساني وليست وقفاً على شعب دون شعب، أو اتّجاه دون آخر، واذا حاولنا الدخول في شيء من تفاصيل دور المثقّف لتجسيد العلاقة بينه وبين الجمهور، نجد أنّ أول خطوة عليه تحقيقها هي أن يبدأ فوراً بتحقيق الانسجام، بين أقواله وأفعاله، متخطّين، بذلك، تعريف (بورجيه) للمثقّف بأنّه (من يعيش كما يفكر، لا من يفكر كما يعيش) وذلك لأنّ من يعيش كما يفكر انسان خيالي في عالم سقطت فيه اليوتوبيات بين فكّي الاقتصاد الذي خلق لمالكي زمامه لساناً وأسناناً، والمقعد الذي خصّصه (شارل فورييه) لمتنفّذ أو ثريّ يموّل له انشاء كتيبة مجتمع الانسجام والعدالة، لم يزل خالياً حتى الآن، ومستشار الحب الذي يعمل بتوجيهات الحاكم العالم في (مدينة الشمس) التي تخيّلها (توماسو كامبانيلا)، تحول الى جلاّد ينفّذ أوامر الحاكم الظالم في غابة الظلام، فلايمكن أن نعيش كما نفكّر، كما أننا لانفكّر كما نعيش. وهذه احدى مآسينا، إنّنا نفكّر باتّجاه، ونعيش باتّجاه آخر، في حين أن ايجاد ميزان للمعادلة بين الفكر والواقع أضحى من

لزوميات المنهجية التي علينا اعتمادها في الحياة لنعيش فكرنا ونفكّر بعيشنا ليحصل التوازن.

ومن ذلك، أيضاً، أنْ يتكاتف المثقّفون من أجل ايقاف عمليات التجهيل والتكفير والادانة لرفاقهم، مهما اختلفت اتّجاهاتهم وتباينت مواقفهم. ولكنّ الدعوة الى التكاتف بين المتخالفين، لابدّ أن تحذر من التسامح. لأنّ التسامح هو احدى المعضلات في اختلاف المثقّفين وفي اختلاف المثقّفين والجمهور. إنّ التسامح يعني أنني أخالفك الرأي، ولكنني -كرماً منّي- أغضّ الطرف عن ذلك الاختلاف، أكون بذلك تجاهلت حقّك في أن يكون لك رأي مخالف لما أعتقد به. جاء في لسان العرب (تسامحَ أي تساهلَ) و(تسامحَ في الشيء تساهلَ فيه) أما في تعريفات الجرجاني فانّ (المسامحة ترك مايجب تنزّهاً). فهل يقبل أحد منّا هذا الكرم، واذا قبلناه، ألا نكون عرضة لأن يُسحب منا في أيّ لحظة؟ وعلى ذلك ألا يكون الحوار والاتّفاق على الاختلاف أولى من التسامح على مضض؟

إنّ المثقّف عندما يمارس دوره فإنّه لايقدّم كرماً للآخرين، لأنّ تحرير ذاته مرتبط بتحرير الآخرين أيضاً، وبالتالي فإنّ وعيه مرتبط بوعيهم، وليس أفضل من أن يكون ذلك عبر الحوار والمشاركة، بعيداً عن التشهير والتكفير. إنّ المثقّفين يمثّلون فئات المجتمع كلّه، واتفاقهم يعني اتفاقية شريطة أن يكسبوا ثقة الفئات التي ينتمون اليها، بأن يعملوا على تحسين وضع مواطنيهم بما يملكونه من إمكانيّات. وذلك من خلال مناقشة هموم الناس وأمانيهم(١)، ومن خلال اقتناعهم بأن المثقّف يتحدث اليهم ومعهم وعن مشكلاتهم، وليس بالنيابة عنهم ومن دونهم، وعن أشياء مجرّدة أو أرقام وأفكار يرون أنّها لاتمسّهم أو أنّها غير صحيحة في الواقع العملي. وإلا فما الفائدة من ترديد المثقّف مانقوله وسائل (الاعلان) كلّ يوم؟!

من المهمّ أن يلاحظ المتلقّي أنّنا نحبّه حتى يمكننا اكتساب ثقته. ولن

(١) من المفيد بهذا الشأن، مراجعة مجلة الفكر العربي، عدد ٥٤، ك١، ١٩٨٨.

يثق الجمهور بمثقّف لايصدّقه ولاينقل اليه الحقائق، محللاً وناقداً. ولن يثق بمثقّف يهمل العروبة والاسلام في خطابه. ولنفنّد قليلاً عاملي الثقة والمكونات: لماذا يقاطع الجمهور وسائل الاعلام؟

لعدم مصداقيتها ثم لأنّها لاتعبّر عمّا يعانيه، فلاهي تنقل اليه حقائق مايحدث من حوله، ولاهي تُعنى بخبزه اليومي. فهي مجرّد كتابات تريد تسويد الصفحات، وشغل أوقات البث الاذاعي والتلفزيوني المقررة. وكل ماتفعله هو اخبارنا أننا بخير، وأننا في تقدم حثيث، مع أن كل ماحولنا ينبئنا العكس. وهكذا لاينتبه القائمون على وسائل الاعلام في الوطن العربي الى وظائفها الأساسية في بثّ الوعي وبسط الحقائق، وفي كونها مجالاً مهمّاً لاجراء الحوار.

هذا يعني أنّ الجمهور لديه بذرة وعي صالحة تحتاج الى ريّ صالح لتنمو، ولكنّه يغالي -أحياناً- باتّهاماته التي يوجّهها الى المثقّف الذي يُطلب اليه أن يأتي بالمعجزات وأن يعمل على تكوين رأي عام حقيقي، بالرغم من قلة الوسائل المتاحة أمامه للكلام.

إنّ الرأي العام لايتشكّل إلاّ من خلال توافر حرية الفكر والتعبير والتعليم والاطّلاع على مايدور في العالم ومعرفته معرفة دقيقة وحقيقية، كما أنه يتأثر بالتراث الثقافي من عادات وتقاليد ومعتقدات وقيم.

والمثقّف وإن يكن في الوقت الحالي غير قادر على تكوينه، له دور كبير في تبصير الناس بمصالحهم، وبما يدور من حولهم، وبالتصدي للرأي العام المصطنع الذي يقوم على الدعاوة والرقابة، حيث يتم حذف بعض الحقائق، ويزيّف بعضها، وتحلّى بالأكاذيب والشائعات، ويحظّر الخوض في الحجج المعارضة أو في الجوانب الأخرى من المشكلة المطروحة من وجهة نظر اعلاميّة. وحيث تنحاز الجهة التي تريد تزييف الوعي الى جانب واحد ولاتهتم بموضوعية الخبر، وذلك لتوجيه الرأي العام الى الوجهة التي يريدها أصحاب الدعاوة.

وغالباً يتمّ إلقاء اللوم على الامبريالية والماسونية والبنتاغونية وسواها، لتبقى الحكومات المحليّة بمنأى عن أي شبهة.

من هنا يبرز دور المثقّف في ترسيخ الوعي الجماهيري، بالعمل على تكوين رأي عام موحّد لاينفي الاختلاف ولكنّه يحارب الطائفية والتعصبية والشللية أينما وجدت، وكيف وجدت.

ولايمكن أن يتم ذلك إلاّ من خلال انتباهه وهو يمارس دور التوعية، الى مكوّنات الانسان العربي الذي لايمكن أن يقبل أي خطاب يسلخ عنه تراثه العربي -الاسلامي، ومعتقداته الدينية الخاصّة، وماترسّخ في ذهنه من وعي أسطوري غيبي عبر نيّف وخمسة عشر قرناً؟!

لذلك لابدّ أن يكون منطلقنا في الحوار والتوعية مستنداً الى ذلك كلّه، فنتعاون على بثّ روح العقلانية بالتدريج، محاولين التأكيد على أنّ الميثولوجيا شكل من أشكال الفنّ، علينا أن نعيها وليس علينا أن نعيشها.

ومن هنا تأتي أهميّة المثقّف -الشيخ- وينبثق دوره.

إنّ الجماهير اليوم مرتبطة بالمثقّف -الإمام أو الخطيب العالم. فليحوّل هؤلاء موضوعاتهم من الاقتصار بالحديث عن مآثر التاريخ والفروق بين المذاهب، وليبدؤوا الاهتمام بمشكلات المواطن، والعوائق التي تحول بينه وبين تكوين ثقافة حضارية.

وما الذي ينتظره المثقّف من أجل أن يبدأ باستخدام لغة مفهومة واضحة، وبشرح الواقع ونقده، وبالكلام على معاناة الناس، وبتكوين رأي عام واع، وبمحاربة التقوقع والطائفية، وبعقلنة الأسطورة، وبالالتحام فوراً بالجماهير.

ما الذي، أو من الذي ينتظره المثقّف حتى يكسب ثقة الجمهور؟

إنّ المثقّف هو الذي ينتج الوعي، فعليه أن يخرج من صمته ويقتحم. وهو لايحتاج الى توافر الحرية حتى يبدأ ذلك، بل عليه أن يمارس دوره بالرغم من غيابها، أو بسبب غيابها. إنّ هدفه توعية الجمهور لجذبهم، ويمكنه أن يفعل ذلك بكل الوسائل الممكنة، مهما تكن ضئيلة، وبالرغم من الظروف القاهرة، لأنه هو المنوط به امكان تحسين ظروفه وظروف الآخرين ويتعاظم

دوره في ظل الاستبداد والجهل والتخلّف والتجزئة، فلاينتظرن من أحد أن يسمح له بممارسة دور التوعية، بل عليه أن ينتزع هذا الحق بنفسه، من غير أن ينتظر توافر الحرية ليعمل. إنّ المثقف هو المحرر، فكيف يحتاج الى محرر يحرره ليحررنا بعد ذلك؟!

والمبدع يدرك أن الحريّة، هي أولاً، موقف. وهي، أخيراً، موقف.

لأنّ الحريّة الحقيقية هي حريّة الداخل التي تنادي بحريّة الخارج التي لايمكن أن يشعر بها المبدع، ويبقى -مع ذلك- مبدعاً. وإلاّ فكيف سيتسنى له تفجير أدواته الابداعية -لغة وألواناً وصوتاً- مالم يواجه تحدّي العالم من حوله باستمرار. فلابدّ للمثقّف من اختراق جدار السلطة الحدودية بين أجزاء الوطن العربي بما يملكه من أدوات التعبير والعمل، ليصل الى الجمهور، ويبدأ خطوة التواصل مع الناس فيؤازرهم كي يؤازروه. وهذا يعني أن للجمهور دوراً حيوياً في اجراء التقارب بينه وبين المثقّف.

دور الجمهور:

إنّ دور الجمهور يبدأ من خلال وعيه أهمية أن يحارب وسائل الاعلان السلطويّة التي توجّه الثقافة الى الاستهلاك، وأن يخصّص بعض الوقت للقراءة والاطّلاع وحضور الندوات والمحاضرات الجادّة التي ترفع من سويّته الفكريّة، وأن يتفاعل مع المثقّف ليبرهن له بأنه على مستوى مايقال، وعلى مستوى نقده وتقييمه وتقويمه. وأهم ماينتظره المثقف من الجمهور هو المساندة والدعم والدفاع، حتى لايشعر أنه يقف وحيداً في العراء، أو أنه ينفخ في بوق أصمّ.

وبذلك يتجنّب الجمهور ترديد ماقالته اليهود لموسى (فاذهب أنت وربك فقاتلا، إنّا هاهنا قاعدون)[1] وهل يصعب -في الحدّ الأدنى- على المثقّفين في لحظة تلقّيهم وتحولّهم الى جمهور، هل يصعب عليهم أن يساندوا من يقول مايجب أن يقال؟

فهلاّ التحم المثقّفون والجماهير لتصبح يد الله معهم لينهضوا بالانسان العربي من الحضيض، ويعيدوا اليه الكرامة والحريّة؟

(١) سورة المائدة، الآية/ ٢٤/.

الاتجاه النفسي في النقد العربي المعاصر بين النظرية والتطبيق

الدكتور: غسان السيد

دأب الانسان منذ أن وجد على هذه الأرض على التأمل الداخلي والخارجي. وكما أراد معرفة الطبيعة من أجل السيطرة عليها أراد كذلك معرفة وظائف النفس أو قواها وملكاتها واستعداداتها. ومن هنا يمكن أن نعد دراسات فرويد[1] في التحليل النفسي مرحلة مهمة في هذا المجال.

د. غسان السيد: أديب من سورية، يهتم بالدراسات الأدبية المقارنة، ينشر في الدوريات المحلية العربية.

١ـ ولد سيغموند فرويد سنة ١٨٥٦ بتشيكو سلوفاكيا ولكن موهبته ظهرت في فيينا عاصمة النمسا، كان طبيباً ماهراً وعالماً نفسياً موهوباً، يعد في طليعة علماء التحليل النفسي الذين درسوا العقل الباطن دراسة مستفيضة، وبينوا أثره البارز في السلوك.توفي في ضواحي لندن سنة ١٩٣٩.

بدأ فرويد تحليله النفسي سنة ١٨٩٧، وأصدر أول كتاب في التحليل النفسي سنة ١٩٠٠، وهو كتاب «تفسير الاحلام». ومما لاشك فيه أن هذا الكتاب قد توج مراحل تاريخية متعددة. وقد امتدت المرحلة الأولى من سنة ١٨٨٤ ولغاية ١٨٨٦، اهتم فيها فرويد بتأثير الكوكايين على الإنسان. تلا ذلك مرحلة التنويم المغناطيسي ١٨٨٦-١٨٩٦. وأخيراً جاء موضوع الإغراء الجنسي من سنة ١٨٩٦ وحتى ١٩٨٧[٢]. وكلما مضى فرويد في بحوثه الطويلة والشاقة بدأت المعاني تتكشف والحجب تسقط ولاسيما مايختص بالاضرابات الجنسية التي كان يحلل على هداها الأعراض المرضية التي تظهر على المريض. وعلى الرغم من المصاعب الكبيرة التي وقفت في وجهه نتيجة دخوله في تفاصيل موضوع الجنس مع كل مايترتب عن ذلك في مجتمعات تحاول إخفاء حياتها الجنسية ماأمكنها ذلك، فإن إرادة فرويد الفولاذية جعلته يستمر في أبحاثه لكي يجمع مايمكن من أدلة يؤيد بها نظريته حول الاضطرابات الجنسية وتكوين العصاب. وقد فطن فرويد إلى أن مرحلة الطفولة هي الأساس في بناء الحياة الجنسية للإنسان، معاد إلى أيام الطفولة الأولى، لأن التحليل النفسي يرتكز أساساً على تحديد العقد الطفولية وإظهار دورها في توجيه السلوك وتأثيرها في بناء الشخصية. وهذا مابدا واضحاً عند تحليله لشخصية أوديب في الأسطورة الإغريقية الشهيرة وشخصية هاملت في مسرحية شكسبير. ونتج عن ذلك ماعرف باسم «عقدة أوديب» ثم «عقدة الخصاء» باعتبارهما يشكلان عاملاً أساسياً في تحول الطفل من التعلق بالأم إلى الاتجاه الاجتماعي السوي.

ويعيد فرويد الجزء الأكبر من الأحلام والأعراض العصابية عند الكبار إلى عقدة أوديب. ومما تجدر الإشارة اليه أن فرويد لم يضع اسم «أوديب»

٢. للمزيد راجع: علم النفس وميادينه، تأليف مجموعة من المؤلفين، ترجمة، وجيه أسعد منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٥.
: مدارس التحليل النفسي، تأليف مجموعة من المؤلفين، ترجمة وجيه أسعد، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢.

ولم يخترع قصته، ولكنه بنى تحليله على القصة الأسطورية التي بنى عليها سوفوكليس مسرحيته. وقد أثبت فرويد أن الحياة العقلية للإنسان منقسمة على ذاتها، وأنها لاتتكون فقط من الأفكار والرغبات التي ندركها بل ان هذه الأفكار والرغبات الظاهرة ليست الا جزءاً صغيراً من حياتنا النفسية. ولكن هذا الانقسام لايمنع من التواصل بين الشعور واللاشعور، لأنهما في مجال الفعل يوجدان معاً، ويستحيل الفصل بينهما في معظم الأحيان. ويسيطر الشعور على أفعالنا، بينما يظهر عمل اللاشعور في الأحلام، أو أحلام اليقظة أو عن طريق العوارض النفسية المرضية.

وقد أسهمت النجاحات الأولى التي حققها فرويد في التفاف عدد من علماء النفس حوله. ففي خريف عام ١٩٠٢ وجه فرويد الدعوة إلى الفريد آدلر المولود عام ١٨٧٠ في فيينا، وستيكل وريلتر والطبيب كارل كاهان ليعرض عليهن أن يجتمعوا في منزله. وهكذا ولدت (رابطة الأربعاء السيكلوجية) التي انضم إليها بعد ذلك مجموعة من العاملين في حقل التحليل النفسي. وأصبحت رابطة الأربعاء السيكولوجية علم ١٩٠٨ «رابطة فيينا للتحليل النفسي وهي أول جمعية رسمية للمحللين النفسيين. ولكن شهر العسل لم يدم طويلاً بين أعضاء هذه الجمعية، فانشق أدلر عام ١٩١١ صاحب نظرية «التعويض عن الدونية»، ثم تبعه ستيكل وكارل غوستاف يونغ عام ١٩١٤(٣). ولقد أدخل هذا الأخير الصوفية في التحليل النفسي. ولم تقف الانقسامات عند هذا الحد بل ازدادت بمرور الزمن وأصبحنا نرى وجهات نظر مختلفة وأصبحت هناك مدارس في التحليل النفسي ولكنها تفرعت جميعاً عن مدرسة فرويد. ولذلك فإن هذه المدارس لم تستطع تجاوز مؤسسها الأول، لابل إن بعض الاسماء المهمة في مجال التحليل النفسي دعت الى العودة الى تعاليم فرويد وخبراته. ومن هذه الاسماء لاكان الذي دعا عام ١٩٥٢ الى تصحيح المسيرة والعودة الى فرويد.

٣ـ وجيه أسعد، مدارس التحليل النفسي، وزارة الثقافة ـ دمشق، ١٩٩٢، ص٢٢.

وعلى الرغم من هذه الانقسامات فإن منهج التحليل النفسي الذي يهتم بتفسير السلوك الإنساني قد دخل مجالات عديدة منها الأدب. لأن علماء النفس يعزون البواعث الفنية إلى الطبيعة البشرية نفسها. وقد أشار فرويد نفسه الى الخدمة التي أدتها له بعض النصوص الأدبية للوصول الى منهجه الخاص(٤). لابل إنه ذهب إلى القول إن الشعراء قد اكتشفوا اللاشعور قبل أن يكتشفه هو. هذا يعني أن فرويد كان يعرف الصلة القوية بين التحليل النفسي والأدب في سعيهما المشترك وراء الحقيقة وفي اهتمامهما بالدوافع الإنسانية(٥).

الأدب ترجمان العقل والنفس، والأديب في كل مايصدر عنه من نشاط أدبي يستلهم تجارية العقلية والنفسية، ولهذا فالأدب بعبارة أخرى مرآة عقل الأديب ونفسه، وكان فرويد يرى أن الخلق الأدبي يعيد الى الأديب توازنه الداخلي وهو في ابداعه هذا يسعى الى تحقيق غرائزه الجنسية غير القابلة للتحقيق في الحياة العملية. «إن هناك طريقاً يؤدي من الخيال إلى الواقع كرة أخرى، وهذا هو الفن. فالفنان أيضاً ذو طبيعة انطوائية، وليس بينه وبين العصاب مسافة طويلة. إنه إنسان تدفعه حاجات غريزية ملحة، فهو يتوق إلى المجد، والنفوذ، والثراء، والشهرة وحب النساء. ولكن وسائل إشباع هذه الحاجات تعوزه، فهو ككل إنسان آخر تواق الى مالايجد، ينصرف عن الواقع، ويحول كل اهتمامه، وكل ماعنده من الليبيدو أيضاً، الى خلق رغباته في دنيا الخيال، التي قد يسلمه طريقها سريعاً الى العصاب»(٦)

إن نظرة فرويد الى الفن كما تتضح من هذا النص هي أن الفن إشباع لرغبات غريزية أساسية ظلت بلا ارتواء بسبب عوائق في العالم الداخلي أو

4- Freud,s. «De'lire et reves dans la gradiva de jenson» Paris, Gallimard, 1981, P. 129

5- Barbris, Pierre, Introduction aux m'ethodes critiques pour l'anabjse litte'raire, Paris, Bardas. 1990, P.43.

٦ـ د. شكري عياد، البطل في الأدب والأساطير، القاهرة ـ دار المعرفة، ط٢. ١٩٧١، ص٤٣.

العالم الخارجي. والغريزة المقصودة هنا هي الغريزة الجنسية التي يعدها فرويد وتلامذته المحرض الأساسي للابداع الفني.

أما الفريد أدلر فقد ذهب مذهباً آخر حين رأى أن النشاط الفني ينتج عن «غريزة حب الظهور أو السيطرة».

وهكذا فالأدب نتيجة لعقد النقص التي يعانيها الأديب في صغره، فإذا هو عصابي يبحث عن إثبات الذات وتأكيدها.

ويرى فريق آخر من علماء النفس وفي مقدمتهم «يونغ» السويسري أن للعقل الباطن دوراً في النزعة الفنية من خلال التعلق بالنماذج العليا البدائية المنقوشة في اللاوعي الفردي والجمعي.

هذه الآراء التي عرضناها موجزة تلخص سر الابداع الأدبي وتميط اللثام عن العلاقة بين النفس الانسانية والأدب والعوامل اللاشعورية التي أدت الى إنجازه. فالتأمل في العمل الأدبي يتيح لنا التوغل بعيداً في نفسية الكاتب. ومن هنا نشأ المنهج التحليلي في النقد الأدبي الذي ينظر إلى سيرة المؤلف وإلى النص الأدبي في الوقت نفسه، وذلك من أجل إماطة اللثام عن عقد الكاتب اللاواعية. على أن هدف التحليل النفسي لايقف عند حد سبر حياة الكاتب النفسية بل يتجاوز ذلك إلى تفسير النصوص الادبية من خلال حياة الكاتب. وهكذا يجد الناقد نفسه ملزماً بالإنتقال من حياة المؤلف إلى آثاره ومن آثاره إلى حياته، ليفسر هذه بتلك وتلك بهذه. وفوق هذا عليه أن يعود إلى حياة المؤلف في طفولته، ليظهر دورها في تكوين عقده المستقبلية والتي تسهم في إظهار ميوله الأدبية.

وكان للنجاحات الأولى التي حققها التحليل النفسي في مجال النقد الأدبي سحر جذب عدداً كبيراً من النقاد، وخاصة بعد ماسبر المحللون، أغوار اللاوعي، وفسروا من خلاله كثيراً من سلوك العباقرة وأعمالم الفنية، مضيفين إلى المناهج التقليدية مايغنيها من عمق وبعد. ومن الدراسات التي اعتمدت التحليل النفس منهجاً دراسة ماري بونابرت في كتابها عن إدغار

ألن بو ١٩٣٣، ودراسة مارت روبير «رواية الأصول وأصول الرواية»، «الرواية والتحليل النفسي»[٧].

كما يجب الاشارة الى كتاب رينيه لافورغ (فشل بودلير) عام ١٩٤٤ وكتابه الآخر (النزعة العصابية للفشل) عام ١٩٤٤. ومن ذلك أيضاً كتاب الباحث الانكليزي هاكيت حول غنائية رامبو، ودراسات أخرى تناولت أهم روائع الأدب العالمي وكبار الأدباء، مثال ذلك كتاب شارل بودوان (التحليل النفسي لفيكتور هيغو) عام ١٩٤٤. ولايمكننا في هذا العرض السريع حصر الكتب النقدية التي اتخذت من المنهج النفسي طريقاً للوصول إلى النص الأدبي. ولكن من المؤكد أن النقد الأدبي قد استفاد كثيراً من هذا الاكتشاف الجديد وهذا ماأغرى النقاد العرب في تطبيقه على الأدب العربي. ويجب الاشارة هنا الى أن الاستفادة من علم النفس في فهم الأدب العربي ونقده ليست نزعة قديمة، وإنما دخلت الينا من الغرب. وهنا يجب التمييز بين استخدام علم النفس في فهم الأدب ونقده وبين الملاحظات النفسية التي كانت معروفة في النقد العربي القديم. فقد عرف البلاغيون والنقاد العرب العلاقة بين النفس الانسانية والأدب، يقول الدكتور عز الدين اسماعيل، «من المؤكد أن كثيرين من النقاد والبلاغيين العرب قد لمسوا مظاهر هذه العلاقة على نحو أو آخر. فانتبهوا الى الظروف التي تواتي النفس فتنشيء الأدب، كما أحسوا بتأثير الأدب في النفس وإثارة ألوان عدة من المشاعر، غير أن كتابات هؤلاء لم تتجاوز مرحلة الإحساس المبهم الى الشرح الموضوعي. فلم يحددوا معالم التجربة الفنية، كما لم يشرحوا لماذا لم تتأثر النفس بهذا العمل الأدبي أو ذاك شرحاً علمياً موضوعياً»[٨]. وعلى الرغم من ذلك فقد آستطاع بعض النقاد العرب الاستفادة من هذا الإحساس المبهم

٧ـ مارت روبير، رواية الأصول وأصول الرواية، ترجمة وجيه أسعد مراجعة انطون مقدسي، دمشق اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٧.

٨ـ عز الدين اسماعيل، التفسير النفسي للأدب، بيروت، دار العودة، ط٤، ١٩٨١. ص١٣

للوصول الى درجة متطورة من فهم العلاقة بين النفس والأدب كما فعل عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس للهجرة. ولم يبتعد بعض النقاد كثيراً عن هذا الفهم عندما حاولوا تفسير الابداع على أساس نفسي في مطلع هذا القرن ومن هؤلاء عميد الأدب العربي طه حسين الذي أشار الى ضرورة علم النفس في التفسير الأدبي فيقول: «وإذا الباحث عن تاريخ الأدب لابد له من أن يدرس علم النفس للأفراد والجماعات إذا أراد أن يتقن الفهم لما ترك الكاتب او الشاعر من الآثار»(٩).

وما لاشك فيه أن طه حسين قد استفاد من اطلاعه على الثقافة الغربية، وحاول أن يستفيد من ثقافته الواسعة في درس أبي العلاء المعري فيقول في معرض تمهيده لكتابه عن فيلسوف معرة النعمان: «ليس الغرض في هذا الكتاب أن نصف حياة أبي العلاء وحده، وإنما نريد أن ندرس حياة النفس الأسلامية في عصره، فلم يكن لحكيم المعرة أن ينفرد بإظهار آثاره المادية أو المعنوية. وإنما الرجل وماله من آثار وأطوار نتيجة لازمة، وثمرة ناضجة، لطائفة من العلل اشتركت في تأليف مزاجه، وتصوير نفسه، من غير أن يكون له عليها سيطرة أو سلطان»(١٠).

وعلى الرغم من إشارة طه حسين إلى علم النفس في دراسته لأبي العلاء فإنه لم يستفد من التحليل النفسي الذي كرس دعائمه فرويد. وذلك يعود إلى أن المنهج النفسي لم يكن قد انتشر في العالم عند تأليف هذا الكتاب. ولكن ماإن شاعت أفكار فرويد حتى وجد فيها بعض الباحثين ضالتهم في فهم بعض النصوص الأدبية العربية كما فعل أمين الخولي عندما نشر بحثاً في مجلة كلية الآداب في القاهرة عام ١٩٣٩ بعنوان «البلاغة وعلم النفس» أكد فيه الاتصال الوثيق بين البلاغة وعلم النفس، وأثر الخبرة النفسية في العمل الفني، كما لفت الانتباه إلى فائدة الدراسة النفسية بالنسبة لدارس الأدب من حيث أنها تعوده ماسماه «المشاهدة النفسية(١١).

٩ـ طه حسين، الأعمال الكاملة، المجلد العاشر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٤، ص١١.
١٠ـ المصدر السابق، ص٢٠
١١عز الدين اسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ص١٤

وتلاه محمد خلف الله في مقال حول «التيارات الفكرية التي أثرت في دراسة الأدب» ومقال حول «نظرية عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة»(١٢).

ولكن وجهة نظرة الكاملة في هذا الموضوع ظهرت واضحة في كتاب «من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده». ولا يجب أن نغفل هنا دراسات العقاد عن ابن الرومي وعمر بن أبي ربيعة وجميل بثينة، ودراسات المازني خاصة بدراسته عن بشار بن برد. ويزداد تأثير المنهج التحيلي في النقاد العرب فيكتب محمد النويهي كتابيه «شخصية بشار» عام ١٩٥١، و «نفسية أبي نواس». وقد رأى المؤلف في هذا الكتاب أن أبا نواس كان شاذاً جنسياً، وأن سبب هذا الشذوذ هو عقدته النفسية التي تكونت لديه حين تزوجت أمه بعد وفاة والده، وأن هذا الشذوذ يفسر عجزه عن تحقيق رغبته الجنسية مع النساء وميله الى الغلمان.

ويجب الاشارة هنا إلى أن تأثير المنهج التحليلي رافقه نشاط واضح في مجال ترجمة كتب فرويد وأعلام التحليل النفسي من قبل بعض الرواد العرب والاختصاصيين مثل مصطفى زيود ومصطفى صفوان ومصطفى حجازي الذي قدم للمكتبة العربية ترجمته لمعجم مصطلحات التحليل النفسي لمؤلفيه «لابلانش وبونتاليس».

ويمكن ان نذكر أيضاً بعض الترجمات الحديثة ومنها «علم النفس وميادينه» و«مدارس التحليل النفسي»، قام بترجمتهما وجيه أسعد وهما لمجموعة من المؤلفين. إلى جانب الترجمة نشطت الدراسات النفسية النظرية التي حاولت أن تبسط للقاريء العربي الأسس التي اعتمد عليها علماء النفس في بناء نظريتهم. ومن هذه الدراسات كتاب الدكتور سامي الدروبي « علم النفس والأدب»، وكتاب الدكتور حامد عبد القادر «دراسات في علم

١٢ـ خريستو نجم، في النقد الأدبي والتحليل النفسي، بيروت، دار الجيل، ١٩٩١، ص٤٣.

النفس الأدبي، وكتاب عدنان حب الله «التحليل النفسي من فرويد الى لاكان»، وكتاب الدكتور أحمد النابلسي «فرويد والتحليل النفسي الذاتي».

أما الدكتور عز الدين اسماعيل فقد حرص على أن يقرن النظرية بالتطبيق انطلاقاً من فهم كامل لدور التحليل النفسي في فهم الأدب فيقول في كتابه التفسير النفسي للأدب: «إن النفس تصنع الأدب، وكذلك يصنع الأدب النفس، النفس تجمع اطراف الحياة لكي تصنع منها الأدب، والأدب يرتاد حقائق الحياة لكي يضيء جوانب النفس. والنفس التي تتلقى الحياة لتصنع الأدب هي النفس التي تتلقى الأدب لتصنع الحياة. إنها دائرة لايفترق طرفاها الا لكي يلتقيا. وهما حين يلتقيان يضعان حول الحياة اطاراً فيضعان لها بذلك معنى. والإنسان لايعرف نفسه إلا حين يعرف للحياة معنى»[١٣].

وإذا كان الدكتور عز الدين اسماعيل قد قرن النظرية بالتطبيق فإنه خصص الجزء الأكبر من هذا التطبيق لأعمال غربية مثل مسرحية هملت لشكسبير، ومسرحية أيام بلانهاية لتوجين اونيل، والأخوة اراكمازوف لدستويفسكي.

وكان يمكنه أن يستفيد من التحليل النفسي في فهم الأدب العربي خاصة أن الأعمال التي درسها قد حللت من قبل كبار علماء النفس في أوروبا. وهم على كل حال أقدرمنا على فهم مغزى نصوص أدبية كتبت في بيئة وزمن محددين. ويبدو أن الكاتب قد أثر التوجه الى هذه الأعمال لكونها مدروسة من جهة ومن جهة أخرى فالكاتب لايريد أن يخرج عن الأخلاق السائدة في مجتمع ينظر شزراً إلى مثل هذا التفسير الذي يؤذي المشاعر ويجرحها. وهو يشير إلى ذلك عند دراسته لقصيدة الشاعر عبده بدوي «ثنائية ريفية»، فيقول: «على أنني أبادر فأنبه إلى ماقد يثيره الشعر بهذا المنهج من اعتراضات. ذلك أن هذا المنهج يأخذ من العلم صراحة في مواجهة الحقيقة، وكثيراً من الحقائق يؤذي شعورنا الأخلاقي الساذج، ومن ثم قد نستاء عندما يكشف لنا هذا المنهج عن مثل هذه الحقائق».

١٣ـ الدكتور عز الدين اسماعيل، التفسير النفسي لأدب، ص١٢١.

ومع ذلك فقد توقف الناقد عند بعض النصوص العربية ومنها القصيدة التي أشرنا اليها، ولكنه كان سريعاً في عرضه وتحليله. فالمنهج التحليلي واضح المعالم. والناقد الذي يريد أن يعتمد على المنهج التحليلي، عليه أن يدرس شخصية المؤلف من كل جوانبها ليصل إلى مختلف العقد التي يمكن أن تكون قد تشكلت في مرحلة الطفولة ومن هذه العقد: النرجسية، والأوديبة، والقابلية، والاستعلائية والدونية. والغرض من كل هذا تكوين فكرة متكاملة عن الأدب موضوع الدراسة. وبعد ذلك يستخلص المحلل مرحلة مميزة أو عقدة معينة يعود إليها في شخصية الأديب بعد ما استوفى جميع جوانبها.

وعلى هذا الأساس فإن تحليل الدكتور عز الدين اسماعيل لقصيدة عبده بدوي «ثنائية ريفية» كان تحليلاً ناقصاً، ولم يسر على النهج الفرويدي.

فهو يذكر الحوار الذي دار بين الزوج وزوجته، فيقول الزوج

الحب لم يصبح حديثاً أو هتافاً في الصدور

الحب فيما طرزت كفاي في الحقل الكبير

قد كان أمس حكاية تروى وأشواقاً تدور

واليوم صار حديقة تلقى الغدير.. وتستدير

وتموجاً في القطن والصفصاف والقمح «الوفير»

حبي له جذر، له ساق، له ثمر منير(١٤)

وبعد أن يذكر الناقد هذا المقطع الشعري يبدأ بدراسة القصيدة وتحليل رموزها الجنسية معتمداً على التحليل النفسي. ولكنه في كل عمله لم يتبع الخطوات التي ذكرناها قبلاً والتي تعد اساسية في المنهج التحليلي. ولم يشر الى أي من العقد التي يمكن أن تفسر هذه الرموز المتناثرة في القصيدة.

وهكذا فالناقد لم يدرس المرحلة الطفولية للشاعر أو للبطل الذي يخاطب زوجته برومانسية ظاهرة حين مزج بينها وبين الطبيعة حتى اصبحنا لانميز الحدود الفاصلة بين هذه الزوجة والطبيعة الساحرة.

١٤ـ عز الدين اسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ص١٢٢.

وكل مايقوله النقاد إن المرأة حامل بعد أن تستهل القصيدة بالقول «قد وافى الحصاد» ولذلك هي عاجزة عن الاتصال جنسياً بزوجها :

بيني وبينك من أغاني حقلنا الملتف سور
أنا لاأراك فبيننا سد من الثمر المثير

ولانظن أن الحمل يمنع المرأة من مزاولة حياتها الجنسية إلا في حالات قليلة ولأسباب صحية . فعلى أي أساس أقام الناقد فرضيته؟

وهنا تظهر صعوبة استخدام المنهج النفسي في النقد الأدبي . لأن المبالغة في استخدام هذا المنهج لوحده كثيراً مايشوه العملية النقدية ويخرج الناقد عن مهمته في تفسير النص وتذوقه . والتحليل النفسي يفيد الناقد في القاء مزيد من الضوء على العمل الفني واستكشاف أبعاد التجربة التي يقدمها ، وتفسير الدلالات المختلفة التي تكمن وراءه . ولكن على الناقد الذي يأخذ هذا الاتجاه ألا يقسر النص على النطق بما ليس فيه . ثم إن الكشف عن العقد الطفولية أساسي في فهم الدلالات الأدبية والفنية . وقد فطن الدكتور شكري عياد إلى أهمية هذه العلاقة في دراسته « البطل في الأدب والأساطير » .

لقد أراد أن يستفيد من التحليل النفسي في فهم فكرة الذات والموضوع لتطبيقها بعد ذلك على بعض الشخصيات التاريخية والأسطورية . «إن فكرة الذات والموضوع التي أقمت عليها هذا البحث ليست بالفكرة الجديدة مطلقاً . إنها مفهوم أساسي في نظرية المعرفة . وهي أساسية كذلك في علم النفس ، ولكنها من تلك الأفكار التي لاتنفد أبداً ؛ لأن المهم فيها ليس الاشارة الى أن هناك ذاتاً موضوعاً ، بل بيان العلاقة بينهما في المظاهر المختلفة للنشاط الإنساني»(١٥) .

وعلى الرغم من إشارته في المقدمة إلى أنه يريد تطبيق هذه المعايير على شخصية عنترة فإنه عدل عن رأيه وقام بدراسة البطل في الأساطير

١٥ـ د. شكري عياد، البطل في الأدب والأساطير، ص٦ .

والنصوص الأدبية الغربية القديمة . ولكنه كان يذكر اسم عنترة في معرض حديثه عن بعض أبطال الأساطير الإغريقية من أجل المقارنة بينه وبينهم . ومما لاشك فيه أن نظرية أدلر التي يحدثنا عنها تفيدنا في فهم شعر عنترة وحياته .
إن لظهور شخصية عنترة علاقة وثيقة بوضع تاريخي محدد، وضروب من القيم الاجتماعية والروحية التي سببها النظام القائم، الذي يمنع الأب من الاعتراف بأحد أبنائه بسبب لونه . وهكذا وجد عنترة نفسه أمام تحد كبير يمنعه من الاندماج في الحياة الاجتماعية . ولم يجد أمامه إلا القوة التي ينحني أمامها التاريخ نفسه . ويتصرف عنترة، في كل مرحلة من مراحل هجمته الملحمية، على نحو يحقق نقطة بعد نقطة، بجرأة وعناد لامثيل لهما ليصل في النهاية عن طريق القوة والشعر وعبلة إلى تتويج نفسه أحد أبطال القبيلة المعدودين . وكلما اعتقد في نفسه أنه عرضة لظلم القدر، أقسم الإيمان على الوصول إلى مراده، وأن يضع لنفسه اسماً شهيراً، وأن يصبح . عظيماً بعد أن يبدع حياته الخاصة، حياة حرة، ينتهك فيها حرمان النظام البشري ويتجاوزها .

وأظن أن العقدة الطفولية التي تحكمت في مجرى حياة عنترة هي عقدة الدونية، ولذلك كان عليه أن يخرج من هذه الدائرة المغلقة عن طريق القوة، إن غريزة اعلاء النفس وحب الظهور حسب رأي آدلر هي الغريزة التي لها الشأن الأول في حياة الفرد إذا سلكت طريقها الطبيعي ونالت مآربها التي ترمي إليها . ولم يكن أمام الشاعر إلا الطريق الذي اختاره للوصول إلى مآربه التي نجح في تحقيق قسم منها . ومما ساعد على تمكن هذه العقدة من نفسيته تصرف الأب والقبيلة التي كانت تحرمه من أبسط حقوقه الطبيعية لأن أمة سوداء ولدته، كانت قبل سبيها من بنات الملوك ولذلك ينشأ عنترة نشأة العبيد، ويلزمه أبوه رعي الغنم إلى أن يكسر هذا القيد عن طريق شجاعته وقوته . وكان عليه للتخلص من هذا النقص أن يبدع في ناحية تفتح أمامه الطريق لحياة طبيعية متوازنة بعد أن يرفع قدره في أعين الناس، تعويضاً عما

يشعر به في قراره نفسه من نقص. على أنه يجب التنويه هنا إلى أننا يمكن أن نستفيد من وجهة نظر فرويد أيضاً في فهم شخصية عنترة. وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول إن الدافع الجنسي هو الذي أوصل عنترة الى. المكانة التي وصل إليها، فمنعه من الالتقاء بعبلة وإشباع رغباته الجنسية التي يعتبرها فرويد الغريزة الرئيسية المؤثرة في حياة الفرد وسلوكه حدا به الى اختيار الطريق الذي يوصله إلى مأربه.

وكلما ازداد كبت هذه الرغبة مع الإيام ازداد تمسكاً بها ورغبة في وصلها، لأن وظيفة الكبت أن تصعد الرغبة وتحولها ولكنها تبقى في اللاشعور حية متيقظة لتحين الفرصة للظهور. وليس شعر عنترة في عبلة الا تعبيراً عن هذه الرغبة المقموعة في داخله، كما أن شجاعته وذوده عن حياض القبيلة كان من أجلها.

وعلى الرغم من عرضنا لوجهتي نظر أدلر وفرويد فإننا نفضل وجهة نظر الأول لأنها تساعدنا أكثر على تحليل هذه الشخصية. فلم تكن عبلة الا وسيلة أمام الشاعر لتحقيق ذاته وأخذ مكانه بين اقرانه لأنها من نسب كريم.

إن عرضنا السريع لسيرة عنترة يثبت أنه كان أمام الدكتور شكري عياد مادة خصبة للتحليل النفسي ولكنه آثر الإنصراف عنها إلى شخصيات من الأساطير الإغريقية. ويبدو أن قسماً كبيراً من الدراسات النقدية النفسية قد تناول أعمالاً غربية مدروسة. وهذا الكلام لايقلل من أهميتها ولكن الأدب العربي غني بالنماذج الصالحة للتحليل النفسي، كما فعل غازي براكس في كتابة عن «جبران خليل جبران»، وناهدة طويل فرزلي في بحثها عن «شخصية جبران». ومن المؤلفات المهمة في هذا المجال كتب الدكتور خريستو نجم «المرأة في حياة جبران» و «رهاب المرأةفي أدب الياس أبو شبكة» و «في النقد الأدبي والتحليل النفسي» و «النرجسية في أدب نزار قباني»(١٦). كان للجدية التي عمل بها الباحث دور في نجاح مؤلفاته خاصة كتابه عن نزار قباني الذي يعترف هو نفسه بذلك عندما يقول:

١٦ـ صدر الكتاب عن دار الرائد العربي في بيروت عام ١٩٨٣.

«نحن فعلاً نحتاج إلى النقد الشمولي الذي يتخلص من الكراهية الشخصية . . إنما في الآونة الأخيرة كتب شيء عني، على درجة من الأهمية. والكتاب الذي ضم ذلك، هو «النرجسية في أدب نزار قباني» للدكتور خريستو نجم . . وفي رأيي إنه من أجمل الكتب النقدية. فالكتاب استعمل في دراسته التحليل النفسي، وطبق نظريات فرويد وقام بدراسة شعري ونثري دراسة عميقة»(١٧).

هذا يعني أن الناقد قام بتتبع العقد الطفولية التي أسهمت في تكوين شخصيته، وتناول مختلف المؤثرات التي واكبت نموه انطلاقاً من المرحلة الفمية إلى المرحلة الشرجية مروراً بالعقد الطفولية الملازمة لمختلف هذه المراحل، كعقدة أوديب وعقدة قابيل لما بينهما من علاقة وطيدة. ومن الأحداث التي عصفت بحياة نزار موت اخته الكبرى (وصال) التي انتحرت لأنها لم تستطع الزواج من حبيبها، فغدا الشاعر انثوي الإحساس، يعبر عن مشاعر المرأة الدقيقة تعبيراً تعجز عنه حتى النساء «وصورة هذه الأخت، وهي تموت من أجل الحب، محفورة في لحم شاعرنا يذكرها أبداً بوجهها الملائكي وقسماتها النورانية وابتسامتها الجميلة. هذه الأخت التي قتلها الاخلاص في الحب، ربما كانت الوجه الآخر لمثله الأعلى، وقد تجسد في المرأة ـ الأم»(١٨).

ان تعلق نزار بأمه يزداد مع تقدمه في السن، فكأن تقدم الشاعر بالسن ينعش غريزته الطفولية بدل أن يضعفها أو يخفف من حدتها ويستشهد الناقد بأبيات من قصيدته «أشهد أن لاامرأة إلا أنت»:

أشهد أن لاامرأة اتقنت اللعبة إلا أنت
واحتملت حماقتي عشرة اعوام كما احتملت
واصطبرت على جنوني مثلما صبرت

١٧ـ مجلة الحوادث اللبنانية، ١٩٨٦/١١/٢١، ص٧٧.

وقلمت أظافري ورتبت دفاتري
وأدخلتني روضة الأطفال إلا أنت
أشهد أن لا امرأة تعاملت معي كطفل عمره شهران إلا أنت وقدمت
لي لبن العصفور والأزهار والألعاب إلا أنت ودللتني مثلما فعلت
وأفسدتني مثلما فعلت(١٩)

هذه الأبيات يكتبها نزار عام ١٩٧٩ وهو في الخامسة والخمسين من عمره. ويدل الناقد من خلال هذه الأبيات على أن مخاطبة الأم بهذا الأسلوب وفي هذا العمر ظاهرة مألوفة في نظر المحللين النفسانيين لأن الإنسان كلما تقدمت به السن شعر بالصقف والوهن وأحس بضرورة الاعتماد على سواه. وهذه حال الطفل الذي يعتمد اعتماداً كلياً على أمه. ولذلك يمكن أن نفسر تعلق نزار بأمه على أنها حالة نكوص نحو الطفولة، خاصة بعد أن فقد ابنه توفيق، وأصابته نوبة قلبية كادت تودي بحياته وقد نجح الناقد في رصد أثر الأم في حياة نزار وإبداعه الأدبي واستخدام مختلف اتجاهات التحليل النفسي للوصول الى غرضه. ويقف خاصة عند رثاء الشاعر لأمه بعد وفاتها عام ١٩٧٦ حين يقول: «يموت أمي يسقط آخر قميص صوف أغطي به جسدي، آخر قميص حنان. آخر مظلة مطر. وفي الشتاء القادم ستجدونني أتجول في الشوارع عارياً»(٢٠) ثم يتابع الشاعر في الاتجاه نفسه: «فياأمي. ياحبيبتي يافائزة. قولي للملائكة الذين كلفتهم بحراستي خمسين عاماً أن لايتركوني. لأنني أخاف أن أنام وحدي»(٢١).

لانظن أنه من الصعوبة بمكان تحليل هذه الكلمات التي تعبر عن حاجة الشاعر الى أمه كحاجة الطفل لها، وهذا يذكرنا بمرحلة الرضاعة ثم الفطام وخوف الطفل من الابتعاد عن أمه. هذا الخوف عاوده عندما فقد زوجته بلقيس التي كانت بالنسبة له أما حانية تقيه أعاصير الحياة فلما رحلت عنه،

١٩. المصدر السابق، ص٥٢.
٢٠. نزار قباني، كل عام وأنت حبيبتي، ص١٧١.
٢١. المصدر السابق، ص ١٧٥

ظل «مرتجفاً مثل اوراق الشجر»، لايختلف في ذلك عن طفليه الصغيرين:

وتركتنا نحن الثلاثة - ضائعين كريشة المطر

اتراك مافكرت بي؟

وأنا الذي يحتاج حبك مثل (زينب) أو (عمر)[٢٢]

ولم تغفل دراسة الدكتور خريستو نجم دلالة الكلمات في قصائد الشاعر، خاصة لفظة «نهد» الأثيرة لديه، من مراهقته، وقد ربطها بالنكوص الطفولي للمرحلة الفمية. وقد وصل الأمر بالشاعر الى أن سمى أحد دواوينه «طفولة نهد». «لايمكن أن يكون هذا من قبيل المصادفات بل أمر عميق الجذور في الغرائز الجنسية، لأنه ذو دلالة تعود إلى سنوات الطفولة الأولى، وماعرفه الطفل من متع الرضاعة على صدر أمه فالثدي في ذهن نزار، كما يقول الناقد، مرتبط بلذة الرضاعة ولايمكن تفسير هذا الارتباط إلا برده إلى المرحلة الفمية وهي أولى مراحل الاستمتاع الجنسي. الفم اول منطقة شبقية تظهر عقب الولادة مباشرة، وتأخذ تلح في اشباع رغباتها الليبرية:

سمراء صبي نهدك الأسمر في دنيا فمي

نهداك نبعاً لذة حمراء تشعل لي دمي

نهداك ماخلقا للثم الثوب لكن للفم[٢٣]

ويعلق الناقد على هذه الابيات بقوله: «لو قرأ الفرويديون هذه الأبيات لاتخذوها دليلاً على أن مص الطفل لثدي أمه هو النموذج الأصلي لكل علاقة حب»[٢٤].

ويصل بعد ذلك إلى أن سر نجاح نزار يكمن في هذه العقدة التي دفعته للنكوص الى المرحلة النرجسية التي يمكن ان تفسر الكثير من قصائده، لأن

٢٢- قصيدة بلقيس، مجلة المستقبل، السنة ٥ عدد ٢٥٩، ١٩٨٢/٢/٢٦، ص.

٢٣- د. خريستو نجم، النرجسية في أدب نزار قباني، ص٦٢.

٢٤- المصدر السابق، ص٦٢

النرجسة محور الذات التي صدرت عنها معظم أعماله من شعر ونثر. وطبيعي أن تكون معاناة الشاعر النرجسي شديدة الوطأة عليه تهز وجدانه فلا تدعه يرتاح الا بالتصريف الشعري. وبعد عرضنا لكتاب «النرجسية في أدب نزار قباني» يمكن أن نقول إنها من أفضل الدراسات التي اعتمدت على التحليل النفسي في تفسير حياة الشاعر وشعره. فصاحب الكتاب ضليع في التحليل النفسي وفهم أدق اسرار هذا العلم الذي استخدمه ببراعة في دراسته، هذا مادفع نزار إلى القول: «هذه الدراسة من أهم ماكتب عني حتى الآن، وصاحبها يطاردني في أدق أحوالي، ومنذ خلقت، لحظة فلحظة، وقد يمضي زمن طويل قبل أن تكتب عني دراسة بهذا العمق وهذا الشمول»(٢٥).

هذا يعني أن الناقد ألقى نظرة شمولية على إبداع الشاعر معتمداً على التحليل النفسي الفرويدي، ولكنه في خضم البحث والتحليل لم ينس خطورة الدراسة النفسية التي يمكن أن تختزل الموضوع إلى ناحية واحدة تفسر بها كل نزعات الشاعر وصراعاته. ومعلوم أن الانسان لايمكن اختزاله إلى حالة واحدة مبسطة. فهو كائن فاعل ومنفعل في الوقت نفسه، فيه تعقيد الحياة وصعوبة ضبطها بقانون واحد. وعلى الرغم من ذلك فقد أصاب الناقد نجاحاً كبيراً في دراسته لشخصية نزار قباني، وهذا عائد في رأينا الى سيطرته على موضوعه من جهة ومن جهة اخرى إلى طبيعة الشاعر وشعره. ثم إن الناقد قد استعان بمناهج نقدية اخرى عندما يشعر أن التحليل النفسي وحده لايكفي لتفسير أية ظاهرة. كما أن تركيزه على نرجسية نزار لم يمنعه من تذوق النصوص الشعرية واختيار أفضلها.

وهكذا استوت عند هذا الناقد أصول التحليل النفسي بعدما يقارب القرن على ولادته في الغرب. وهذا يدل على امكانية الاستفادة من المنهج

٢٥- نزار قباني في حوار مع مجلة الحوادث، أجرى الحوار جهاد فاضل، ١٩٨٥/٨/٩، عدد ١٥٠١، ص٧٦.

التحليلي على الرغم من خطورته الناجمة عن النظرة الضيقة إلى الأمور والتي تمنع الجمع بين اتجاه التقويم الجمالي واتجاه التقويم النفسي.

والناقد الناجح هو الذي يحقق التوازن ماأمكن بين هذين الاتجاهين، ولايحور كل اسم او فعل إلى رمز جنسي يبني عليه تفسيراته الخاصة. نقطة أخيرة وهامة ينبغي الإشارة اليها قبل الانتهاء من هذا البحث، وهي إمكانية استفادة النقد العربي المعاصر من التحليل النفسي في دراسة الأدب العربي القديم. فهناك من يعترض على استخدام العلوم الحديثة في تفسير الأدب القديم، مادام هذا الأدب القديم لم يشهد هذه العلوم ولم يعاصرها، ونتيجة لذلك لم يتأثر بها. في الرد على ذلك، نقول إن فرويد لم يعرف شكسبير ولم يعاصره، ولكن ذلك لم يمنعه من تطبيق نظريته على مسرحياته لأنه كان يعتبر أن مظاهر الحياة الإنسانية تختلف في اصلها وتتغير، وإنما الذي يتغير هو الزاوية التي ننظر منها الى هذه المظاهر الحيوية.

وبالتالي ليس هنا ضيّر من الاستفادة من العلوم الحديثة في دراسة الأدب العربي القديم، لابل إن الأمر يبدو ضرورياً من أجل فهم أعمق لهذا الأدب. إن الأساليب النقدية القديمة يمكن أن تصل إلى طريق مسدود إذا لم تستفد من المناهج النقدية الحديثة التي تفتح أفاقاً جديدة من أجل عدم الوقوع في التكرار الممل.

ولانريد من قولنا هذا أن ندعي أن الأدب العربي القديم يمكن. فهمه من جميع جوانبه في ضوء علم النفس، ولكننا نقول إن علم النفس قادر على أن يفسر لنا بعض الجوانب التي ظلت غامضة في الماضي، كما أنه يجنبنا التكرار الذي نجده في النقد العربي القديم.

ونظن أن علم النفس هو الوحيد القادر على الامساك بالمفاتيح لفهم بعض الشعراء العرب القدامى. فكيف يمكن أن نتجاهل مافعله العمى بنفسية أبي العلاء المعري وبشار بن برد؟ وكيف يمكن فهم المتنبي دون دراسة معمقة لحياته الحافلة بالأحداث والتي اثرت في نفسيته وسلوكه وشعره؟ وأخيراً

كيف يمكن فهم شعر أبي نواس الماجن إلا في ضوء العقد الجنسية التي تحكمت به منذ صغره؟ ومن حسن حظ النقد العربي الحديث أنه انتبه الى هذه الظواهر ودرسها منذ بدايات هذا القرن. وأذا كان البعض لم يوفق في استخدام المنهج النفسي على حقيقته فإن ذلك قد فتح الباب أمام النقد العربي المعاصر لولوج هذا الطريق من بابه الواسع متسلحاً بالأداة العلمية اللازمة. وبالتالي يستفيد هذا النقد من التحليل النفسي بشكل أوسع مما رأيناه حتى الآن.

المراجع

١- حامد عبد القادر، دراسات في علم النفس الأدبي، القاهرة، المطبعة النموذجية، ١٩٤٩

٢- خريستو نجم، النرجسية في أدب نزار قباني، بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨٣،

المرأة في حياة جبران، بيروت، دار الرائد اللبناني، ١٩٨٥

في النقد الأدبي والتحيل النفسي، بيروت، دار الجليل، ١٩٩١

٣- رينه ويليك، مفاهيم نقدية، ترجمة د. محمد عصفور، الكويت، عالم المعرفة، ١٩٨٧

٤- سامي الدروبي، علم النفس والأدب، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧١

٥- شكري عيّاد، البطل في الأدب والأساطير، القاهرة، دار المعرفة، ط٢ ١٩٧١.

٦- طه حسين، الأعمال الكاملة، المجلد العاشر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٤.

٧- عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، بيروت، دار النهضة، ١٩٧١

٨- عدنان حب الله، التحليل النفسي من فرويد الى لاكان، ١٩٨٨.

٩- عز الدين اسماعيل، التفسير النفسي للأدب، بيروت، دار العودة، ط٤ ١٩٨١.

١٠- فرويد وآخرون، مدارس التحليل النفسي، ترجمة وجيه أسعد، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٢.

١١ـ مارت روبير رواية الأصول وأصول الرواية، ترجمة وجيه أسعد، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٧ :

١٢ـ مجموعة من المؤلفين، علم النفس ومبادئه، ترجمة وجيه أسعد، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٨٥ .

المراجع الفرنسية

1- Freud, s.«D'elire et reves dans la gradiva de jenson Paris, Gallimard, 1980.

2- Pierre Barb'eris, Irtroduction aux me'tlodes critiques pour l'anabjse litte'raire, Paris, Bardas, 1990.

المجلات

١ـ مجلة الحوادث اللبنانية ٢١/ ٦/ ١٩٨٦ ص٧٧، ٩/ ٨/ ١٩٨٥، ص:٧٦

٢ـ مجلة المستقبل، ٢٦/ ٢/ ١٩٨٢، عدد/ ٢٥٩، ص١٠

الطابع الرومانسي للحزن في الشعر السوري في القرن العشرين

د. راتب سكر

ترافقت المرحلة الزمنية التي قام فيها الشعر في سورية يحقق نهضته، ويحرر أساليبه من قيود الجمود والتخلف التي قيدته بها الأساليب الأدبية والكتابية السائدة في العصر العثماني، بأحداث سياسية عاصفة لم تخل من الآلام والفجائع المؤثرة

* . راتب سكر: أديب من سورية، يقرض الشعر، له عدد من الدراسات الأدبية في الدوريات المحلية والعربية.

في الوجدان الجمعي الوطني، فمن إعدام قوافل الشهداء عام ١٩١٦، إلى معركة ميسلون في تموز عام ١٩٢٠ ودخول الفرنسيين دمشق، إلى معارك الاستقلال وقصف دمشق بالطيران . . . فلا عجب بعد ذلك أن تكون قصيدة خير الدين الزركلي «الشهداء» التي نظمت في عام ١٩١٦ «على أثر إعدام الترك فريقاً من شبان العرب بسورية وقيام الثورة بالحجاز» (١-ص١٦٤)، إحدى أهم القصائد الريادية في العشر السوري في القرن العشرين. وهي إعلان ناع حزين متفجع يقول فيه:

«نعى نادب العرب شبانها ... فجدد بالنعي أحزانها
فمن للمدامع أن لاتفيض؟ ... وترسل كالسيل هتانها
ومن للأضالع أن لاتذوب ... وقد ناءت الروح جثمانها

ولم يستند التجلي الفني للحزن في القصيدة إلى مسوغاته الاجتماعية والتاريخية فقط، فقد تأثر الشعراء بموجة الحزن الرومانسي، ووجدوا به متعة ولذة، وراحوا يطرزون قصائدهم بألفاظ وعبارات تعبر عنه، فكان للدموع والنوح والعذاب والقلب المطعون مكان بارز في قاموسهم، استمدوا من معينه ما يناسب تعبير الخطاب الشعري عن الشكوى من الظلم السياسي والبؤس الاجتماعي والتألم على حال الوطن الجريح، والشكوى من ظلم الحب وغدر الأصدقاء، وعدم تفهم المجتمع للشاعر المتألم في وحدته القاسية. وبدأ الشعر ينتقل من وصف الظواهر المحسوسة- التي أعارها شعراء القرن التاسع عشر اهتماماً خاصاً- إلى الاهتمام بالمشاعر الإنسانية الشخصية الحميمة كالحنان والعطف والرضا والغضب والشفقة، بأسلوب يرفع من حدة الصوت المعبر عن الذات الفردية، وآلامها ومطامحها.

عندما يخص نسيب عريضة حواره مع «قلمه» بقصيدة، يعرض بمخيلة رومانسية فياضة بالأسى، توحداً صوفياً يجمع قلب الشاعر وقلمه

بدلالاتهما الرامزة، فكلاهما ينبوع عذاب لاينضب يعبر عن نفس شاعر معذب يقول: (٢٣- ص٢٠١).

أوه! ألم يكتب لهــذا القلمْ إلا بأن يشكو الأسى والألم».

وعبثاً يبحث القارىء في بنى النص، عن مسوغات اجتماعية لتلك «الحمم اللاذعة» التي يسكبها سواد القلم على الورق الأبيض، فلا تتضح أمام ناظريه، سوى كآبة عارمة في ذات الشاعر، تنسجم مع الحالة التي كانت الرومانسية الغربية تسميها «مرض العصر». وهي شكل نفسي وأدبي من أشكال التعبير العميق عن الشعور الشخصي بعدم الرضا على مسارات الواقع الاجتماعي، وعدم التوافق معه. يتسم الحزن في قصائد نسيب عريضة بطوابع رومانسية ممتازة، وتعبر قصيدته «صفصافة اليأس» (٢٣-ص١٣٨) عن تلك الطوابع بشكل مناسب، فالشاعر يعلق أوتار قيثارته على صفصافة اليأس، باكياً في وحدته وعزلته عن الناس، متآلفاً مع عذابه المسيطر على كيانه؛ يقول معبراً عن الكآبة التي تجعله يألف يأسه:

وتنساق حركة خيال الشاعر مع التشاكل بين داخله النفسي الشخصي وصورة القبر، فتنزرع الكلمات أزهاراً، تحولها نار أنفاسه اللاهبة إلى أزهار سوداء تسقيها دموع القلب وتحميها يد اليأس - صديق الشاعر الحميم ورفيق دربه الذين يصون أزهاره ويمنح وجوده طابعاً رومانسياً انفعالياً ينعكس في البنية المتصاعدة للصور الأدبية في النص، يقول الشاعر معبراً عن موقفه الراضي بأزهاره السوداء - رمز عذابه وحزنه:

يا يأس صنها فإني قد قنعت بها ولست أبدلها بالورود والآس

وأنت والحزنُ كونا والضلوع معي إني عهدتكما من خير جلاّسي».

تستدعي علاقة نسيب عريضة بالحزن، من خزين الذاكرة، علاقات رومانسيي الغرب به، كما يعبر عنها الشاعر الفرنسي فرانسوا دو شاتوبريّان (١٧٦٨ - ١٨٤٨) بقوله: «صرت يائساً حقاً، غدا حزني شغلا مأكل لحظات حياتي. إذ أن قلبي قد عجنت طينته من الضيق والبؤس». (٣-ص٧٠). ويعبر الشاعر خير الدين الزركلي في العديد من قصائده عن رؤى مشابهة، فيبدو باحثاً عن مسوغات اجتماعية للأحزان التي توشح نفسه بكآبة أصيلة، وتملأ قلبه ضجيجاً بالأنين والشكوى متناغمة مع رؤية شعرية تمجّد الألم. يمد الشاعر بساط الأسئلة على صور أدبية تجهش بالدموع و«تملأ الفضاء نحيباً»، لكنّ أسئلته تضيع على دروب الأسى، كما تضيع معظم أسئلة الرومانسيين، فتظل بلا أجوبة.

يتساءل الشاعر في قصيدته «لم تف يا قمر» (١ - ص١٩٧) عن بواعث استمرار القمر في سمائه يتألق بحلل الكبرياء والزهو، غير مكترث بما يحدث على الأرض من مآس يعرض صورها قلم الشاعر في سبعة مقاطع شعرية، تتوزع فيها القصيدة محملة بانفعالات وجدانية، وحالات نفسية واجتماعية، طالما أثارت أشجان الأدباء الرومانسيين وأجرت دموعهم، يقول الزركلي مخاطباً القمر:

«أشهدت في غسق الظلام غريبا؟
ملأ الفضاء تفجعاً ونحيبا
ناءى أحبته وعاش كئيبا
قلق الجنان على الزمان غضوبا
الشوق يذكي في حشاه لهيبا
والدمع يجري في مقلتيه صبيبا
يرعاك مضطرب الجوانح والفكر وتتيه في خيلاء كبرك يا قمر».

وتتابع لوحات الوجود في قصيدة الشاعر مكللة بالحزن ترنّ في ألوانها أناشيد النحيب مخاطباً القمر الذي ظلّ يضحك في سمائه في خيلاء، ولم يرث لحال الناس المعذبين في الأرض، فكأن ضلوعه من حجر.

ولعل ماكتبه بول فان تيغيم عن شعر الغرب في أوروبا يتطابق في هذا المجال مع مسيرة الشعر العربي في سورية، جاء في قول تيغيم: «الحق أن الشعر الرومانسي الأوروبي يقدم لنا عرضاً طويلاً من الأناشيد الكئيبة أو الحزينة المتفاوتة في عمق الكآبة والحزن، ويعود هذا الحزن غالباً إلى أسباب تتعلق بشخصية الشاعر، إلى فشله في حياته، إلى حبه الخائب، ويعود أحياناً إلى المصائب التي حلت بوطنه، أو بالوضع الإنساني» (٤-ص١٨٨) تتحقق للحزن سلطة مستبدة، فتغدو القصائد الذاتية العامرة بالمناجاة والبوح الداخلي والمواجد، أسيرة في معسكره الظاهر، ويمد أجنحته لترفّ ظلالها على القصائد الخطابية والموضوعية متجاوبة مع الظروف التاريخية الصعبة التي يمر بها الوطن.

وإذا كانت قصيدة شفيق جبري «صيحة النبي» (٥- ص٢٢٠) توازن بين الماضي العزيز للأمة العربية وحاضرها المؤلم، فإن الموازنة تنتهي بها إلى فيض من الدموع على ما تعانيه من جور الظالمين، ترتبط الدموع في لوحات جبري في هذه القصيدة» بالمصائب التي حلت بوطنه» مذكرة بحديث تيغيم عن الحزن الرومانسي (٤- ص١٨٨). يقول جبري:

«فأين رسول الله يشهد أمّة ... تئن أنين الطير من كل ذابح
على مثلها في ذلّة بعد عزّة ... تفيض جفون بالدموع

يتسم الطابع الرومانسي للحزن في الشعر السوري بسمات خاصة، تستلهم أنغام التقاليد الأدبية القديمة في قصائد الشعراء الأعلام في التراث العربي، منسجمة مع اتجاه رومانسي عام جديد تتوضح معالمه في كتابات الشعراء السوريين في القرن العشرين. . فيتغذى نهر الشعر من ينابيع العاطفية الصافية الوافدة، وتلك التقاليد الثرة. وتترقرق الدموع من قصيدة إلى قصيدة، فكما تفيض بها الجفون في قصيدة شفيق جبري، نهطل كالغيث في قصيدة خير الدين الزركلي «الفاجعة» (١-ص١١٦) التي كتبت بعد معارك ميسلون عام ١٩٢٠، في زمن دخول القوات الفرنسية إلى دمشق.

يقول الزركلي:

من ذا يكفكف أدمعاً مُهراقةً كالغيث تهطلُ حسرةً وتجودُ».

تتناسب صور الدموع في القصائد الشعرية مع المصائب الخاصة والعامة وما تسببه من ألم نفسي عميق في تكوين الشاعر. إن الظروف الاجتماعية والتاريخية التي مرت بها سورية، جعلت نبرة اليأس والخيبة قوية في الشعر السوري. يقول الشاعر شفيق جبري: «إن الشعر في أوائل أيام الفرنسيين يشتمل على كثير من اليأس وعلى قليل من الأمل». (٦-٢٦).

ومن الممكن ملاحظة تأثير الأدب الرومانسي الفرنسي في الشعر السوري المكتوب منذ مطلع القرن العشرين، ويزداد هذا التأثير وضوحاً في موضوعات الحزن.

يرى الشاعر وصفي قرنفلي في قصيدته «سراب» (٧-ص٤٣) التي نشرها عام ١٩٤٥، أن الألم والعذاب ينبوع الإبداع والحياة، وهذا ما يجعل الشاعر اليائس الحزين، راضياً بآلامه، لأنها تحقق له طمأنينة الوجدان، فيبدع أدبه من وحيها، يقول:

«عصف اليأس، بالبقية من كأسي، فأفرغت في التراب شرابي

المنى والدموع، والألم المبدع، سر الحياة، روح الشباب».

ويغدو الحزن في العديد من قصائد الشاعر علي الزيبق ضرورة جمالية ترافق إعلان الحب والخيبات الاجتماعية والشخصية، وهو إعلان يظهر السعادة بالألم، فكأن الأحلام الكبيرة في قصيدته «الينبوع» (٨-ص٤٧) تكمّل شروط هويتها برياح الشوق والآلام. فيصف الشاعر حال قلبه وقلوب أمثاله من العاشقين بقوله:

«قلوبنا متاحف

للشوق والآلام».

تبدأ مصادر حزن الشاعر بخيباته في الحب، وتلامس تمرده على الشروط الاجتماعية وظروفها غير اللائقة بالإنسان. وتؤهله هذه المصادر في

توجهه إلى المرأة برؤى رومانسية حزينة تسبغ على المرأة إهاباً مثالياً يقترب به الخيال الشعري من مراتب الكمال مندفعاً بالأوهام إلى دروب تظللها العواطف الجياشة والانفعالات الوجدانية، لكنها لاتصل بالشاعر إلى شواطيء حب محقق ناجز، يستكمل عناصر وجوده الإنساني الفاعل. ويرسم الضياع على تلك الدروب المكسوة بضباب الأوهام، هوية الشاعر الخائب المتعب، فيصرخ في قصيدته «نجوى». (٨- ص٥٠):

«إني تعبت..
وكل ما حصدته راحتي
سنبل الدخان».

وإذا كان إعلان علي الزيبق عن تعبه ويأسه مصحوباً بشعور من الأسف، فإن غناء شكري هلال للحزن يحبب إليه يأسه مصحوباً بشعور من الأسف، فإن غناء شكري هلال للحزن يحبب إليه يأسه، ليكون في عداد الشعراء السوريين الذين يجدون بالحزن واليأس راحة متعة رومانسية. كتب الشاعر في عام ١٩٦٣ في قصيدته «الجنّة المحرّمة» (٩- ص٨٧) يقول:

دعيني إلى يأسي ففي اليأس راحة   إذا كانت الآمال في الحب تشقيني».

إن كبرياء الشاعر الفردية، تزين له الاستسلام لليأس، فيجد فيه «راحة» ومتعة أيضاً، ما دام اللقاء بالحبيبة قادراً على جرح السعادة وخدش الكبرياء. فلا عجب بعد ذلك أن ينعم الشاعر في أتون حزنه مع قصائده المعبرة عن حاله، ويكتب في مقدمة مجموعته الشعرية: «الضياع الحزين»:

«الشعر عندي خفقات قلب معذب جريح يتمزق على الورق حروفاً دامية معطرة». (٩-ص١).

وضمن هذه الرؤى يندرج الخطاب الشعري للشاعر خليل النعيمي الذي يجعل ملاذاً جميلاً، موحداً بين أقانيم الحياة والأسى، مكتشفاً سعادته على بساط العذاب والشجن، يقول في قصيدته «سعادة» (١٠- ص٥٣):

«والحياة منبع الأسى
والأسى
يظل منبع السعادة».

يصبح الحزن في قصائد خليل النعيمي هويّة لوجوده كله بمعانيه ومضامينه. لايرسم في أيامه علاماته العابرة ويمضي، إنه يعمق مجراه في كل مضامينه. لايرسم في أيامه علاماته العابرة ويمضي، إنه يعمق مجراه في كل صفحة مانحاً بكاء الشاعر ينابيعه الثرة، فيلوّن الدنيا بالأسى ويغدو الوجود زهرة حزن، يقول الشاعر (١٠ - ص٦٢):

«دموعي ملّحت وجه الثرى
فالحزن: قد أزهر
ويأسي انغل في الأعماق».

ترسم علاقة الشاعر الرومانسي بالحزن، على لوحات بنيته النفسية، انسجاماً راضياً عن نفسه، يحول الشجن والأسى إلى هوية شخصية تعرف بصاحبها الذي لايتردد غالباً في إعلان احتفائه بهويّته، ورضاه بخطوطها الدامعة. إنه مطمئن لحزنه مستسلم بين يديه. وأنور العطار واحد من الشعراء الذين يكلل قلوبهم الأسى، لكن الشكوى لاتعرف إلى قصائدهم طريقاً. فهم يحملون الجراح راضين، كأن الألم جسر ينقلهم إلى عوالم مسحورة يجدون بها الراحة، يقول العطار في قصيدته «ألحان أوراق الخريف». (١١-ص١٧):

«أسي القلب فاستراح إلى الصمت، وللصمت عالم مسحور»
تترامى به الشجون فيعيا ليس يشكو الضنى وليس يثور»

يؤكد أنور العطار في قصائده، أن الله صاغ قلبه «للعذاب»، يعيش به مترنماً بأنغامه، مستعذباً جراحاته، وكأنه بشعره يذكر بقول الشاعر الرومانسي الانكليزي برسي شلي: «أعذب أغانينا هي التي تعبر عن أحزن أفكارنا» (٤-ص١٨٨). وبقول الشاعر الرومانسي الفرنسي الفونس دولامارتين: «ما من شيء يجعلنا عظماء، كألم عظيم». (١٢-ص٢٨٦).

يبدو أنور العطار في قصيدته «الربيع» (١١- ص٣٢) سعيداً بشقائه يحمل قبله المطعون، مطمئناً إلى عذابه، يقول:

«اطعن القلب ينفجر بالأغاريد ويملأ هذا الفضاء طيوباً
لاتضمده يدك شوقاً وشجواً وترك ناره تشب شبوباً»

ومع نهاية النصف الأول من القرن العشرين، يبزغ اسم نديم محمد، ليكون شاعر الحزن والألم، الذي يجمع قصائده في مجموعته الشعرية الأولى ويسميها «آلام» معبراً عن أسى عميق يكلل أنفاسه وحروفه، يتشقق الوجود عليه ويئن متعاطفاً معه حادباً. تصبح الطبيعة في «النشيد الأول» (١٣-ص١٣) من المجموعة جزءاً من لوحة أساه. يقول:

ضرّج الفجر عريه.. بشُهاقي واستحم الدجى بدمعي الهامي»

وكثيراً مايطل نديم محمد من قصائده منكس الراية، مخذولاً، مستسلماً لجيش الحزن الذي «روض» براءته وعفويته، متنقلاً على عرباته المثقلة بالأنين، إلى ساحات الوجود وآفاته الواسعة. فحزنه شامل سرمدي أزلي يتجاوز مرحلية الحدث الواقعي المحدود. يعلن في «النشيد الحادي عشر» (١٣- ص٦٩) من مجموعته أن الخذلان كسره في معركة حاسمة، لانهوض بعدها لقد غدا اليأس نهائياً، ينقضي أبداً على أنات شكواه يقول:

«أبد ينقضي وأفتح أجفاني على الكون بائساً مخزياً.
روّضتني الآلام حتى ألانت من قيادي ما كان صعباً

في شعر نديم محمد تنويع لصورة شاعر مخذول في الحب، تترنم القصائد بآهات قلبه المتصدع وأنات صدره الجريح.

ويبرز الفشل في الحب أيضاً، بين أهم مصادر الحزن والخيبة في قصائد شكري هلال الذي يلوح برايات اليأس على طريقة الرومانسيين، مسلماً نفسه للعذاب المرير، بعد أن فشل في حبه وغدرت به الحبيبة، يقول في قصيدة كتبها عام ١٩٦٢ بعنوان «حطام» (٩-ص٤١):

كيف ألقاك؟ مات حبك في قلبي وروحي تغـفـو على الآلام».

ترسم ريشته في قصائده صورة شاعر كئيب، خائب. محطم الآمال كسرت الخيبة في الحب عنفوان وجوده، فنثرت أوراقه، «حطاماً» و«ضياعاً حزيناً» ارتسمت خطوطه الكتابية في صوره الأدبية، وباحت بشجوها بين عنوان القصيدة وأبياتها، يقول في قصيدته «الضياع الحزين» (٩- ص٥٢) التي حملت اسمها المجموعة الشعرية محاولة تلخيص مضمونها العام والدلالة عليه من العنوان:

«تنعب الخيبـة المريرة في كـوني ويذوي لهـيـبـهـا أوراقي».

لم يقتصر التأثر بالمزاج الرومانسي على تلوين لوحات القصيدة بالخطوط الدامعة، فقد انعكس ذلك التأثر في السلوك الشخصي للشاعر أيضاً، فشاع عن أولئك الشعراء الذين عبّروا في قصائدهم عن رؤى رومانسية، أنهم عانوا في حياتهم من الآلام والكآبة، والميل إلى العزلة وماشابه ذلك من مظاهر السلوك المنسجمة مع البنى النفسية الرومانسية. جاء في كتاب د. ابراهيم الكيلاني «شخصيات» في معرض الحديث عن شخصية الشاعر خليل مردم: «اعتراه قلق وكآبة يلازمان عادة المنبوذين من صرعى الحياة». (١٤- ص٥٧).

ويعبر الشاعر عبد الباسط الصوفي بقلمه عن سمات بنيته النفسية الحزينة ومؤثراتها في سلوكه الشخصي اليومي الذي يعكس على حد قوله تأثر نفسيته ومزاجه بالرومانسية، ويعرض ظواهر هذا التأثر في داخله، فيقول: «كنت أحب العزلة والانفراد ولا أجد وسيلة للتعبير عن مشاعري سوى البكاء أحياناً». (١٥-ص١٢).

إن الطابع الحزين لصور الدموع والنحيب في قصائد خير الدين الزركلي وشفيق جبري وشعراء المرحلة الزمنية التي عرفت ذروة عطائهما، يعمق خطوطه في البنية النفسية لعبد الباسط الصوفي وقصائده، فتزداد نبرات الحزن المتنامية في كتابات الشعراء السوريين اقتراباً من تجليات «الكآبة

العالمية» للرومانسيين، باحثة عن طمأنينة نفسية غير محققة، يصاحبها فهم خاص للمهمات الاستثنائية الفريدة الملقاة على عاتق الشاعر والشعر في الحياة والتاريخ.

ويبدو الشعور باليأس، في انتشاره على مساحة واسعة من نتاج الغنائية الشعرية السورية، غير أبه بالتغيرات الاجتماعية الجارية في البلاد بايقاع سريع. فهو يحافظ على تجلياته في الموضوعات الجوهرية الأساسية للشعر ملوناً صورها الأدبية بالخيبة والخذلان، محافظاً على رنينها في إرث فني مستمر، مهره شعراء العشرينات من القرن العشرين، بطوابع مهمة، ولم يخسر صوته المميز في موجة البحث عن أشكال أدبية جديدة.

وفي هذا الإطار تمكن قراءة قصيدة «قلت لكم» (١٦-ص٧) التي نشرها اليأس فاضل عام ١٩٧٠، من الاصغاء إلى أنين أناشيد اليأس، مضيفة إلى سجله الأدبي الموشح بالأسى، مايردده الفاضل من مذاقات الهجرة والنفي والتغرب، يقول:

«قلت لكم، اليأس أغنية
يرددها نبي
قلت لكم، العصر مركبة مشت
على دروب النفي والتغرب
قلت لكم، اليأس أغنيتي
العصر مركبتي».

تتدفق أمواج الحزن في أناشيد الحياة التي تغنيها قصائد الشعر السوري المتأثر بالرومانسية، فتصدح قصائد الشعراء بأغاني «البلبل الباكي»، والليالي المنداة بالدموع في قطار الحياة الذي يسافر في رحلات العذاب والألم، مطلقاً في الفن أنات حزن شجي.

ويعبر الشاعر شفيق جبري عن حزنه بصوت يكسره اليأس الذي يكلل نفسه المجروحة بالأذى. فيجد في صوت البلبل أصداء تلك النفس ترددها

أغاني الألم، ولايلمح في أنغامها بشائر أمل أو فرح . يرسمها في عام١٩٢٤ في ديوانه «نوح العندليب». (٦ - ص٢٥) ترنيمة ألم مكللة بالدموع، يقول:

«كتمت الشجون عن العندليب	فراح يبثك أشجانه
وأخفيت عنه دموع الجفون	وقد بلّل الدمع أجفانه
أتبكي العنادل أوطانها	ولايندب المرء أوطانه»

وقد علّق الشاعر على قصيدته هذه في كتابه «أنا والشعر» فكتب يقول: «الحقيقة أني لم أُغن بنوح العندليب، وإنما غُنيتُ بنوحي، ولم أتغنَّ بأشجانه وإنما تغنيت بأشجاني». (٦- ص٢٦).

في قصائد الشاعر علي الزيبق، يفيض الحزن موشحاً بساتينه الواسعة وصور عالمه الرحيب بالسواد. يرى أصداء نفسه في سواد الليل الذي يحتضن أوجاع الحياة، فيحاوره في قصيدته «عذاب». (٨ ص٢١) مكتشفاً ذاته المجبولة بالأسى. يقول:

آه يا ليل يا ضريح دموعي	يا أراجيح زفرتي وشموعي

آه يا ليل إني بساتينك السوداء قصت جناحها يقظاتي»

ويقول د. سامي الدهان في معرض تقديمه لديوان الشاعر «النبعة اليتيمة» إنه وجد فيه «دمعة للمحب الهائم، وأنين الشاكي المتظلم. قلب الشاعر ينبع بالشوق والآلام». (٨- ص١٠).

وتمنح الرؤية الرومانسية للعالم في قصائد الشاعر علي الجندي، يديه لغة تنطق بها الأشياء التي يلامسها بأنغام حزينة، فلا يكاد يخلو مقطع واحد من قصائد ديوانه «الراية المنكسة» الصادر عام ١٩٦٢، من وصف مظاهر الحياة بسمات الحزن، تتكرر لفظة «حزين» صراحة في قصيدته «هذيان» (١٧- ص ١٠٥) نحو عشر مرات، مقدمة أساسها المطرز بالدموع لريشة الشاعر التي تلون صور رؤاها بالأسى، ومن ذلك:

١- كان صوت المطر حزيناً .
٢- العباءة الأرجوانية مطرزة بدموع أمي .
٣- المرساة تنغرس باستمرار .
ومياه المرفأ زجاجة عطر حزين ،
٤- إن جسدي حزين الليلة حتى النشوة .
٥- السنجاب حزين الليلة .
٦- وأشجار الصفصاف رقصة حزينة .
٧- وفي صدري تمرح الأفاعي الحزينة .
٨- حزين أنا اليوم ،
دربي إلى البحر مفروش بالأرجوان .
٩- حزين أنا اليوم ،
كصليب أقيم في القفر ،
١٠- التفاحة الهرمة ،
تقدم على صحن من البخور الحزين» .

يقترن الحزن الرومانسي في شعر علي الجندي بالمعاني الرمزية للعزلة ، مفتوناً ، بما تمد الكلمات أمامه من فتنة الصور الصوفية والغامضة ، فتشير عبارته «دربي إلى البحر» في المثال السابق ، إيحاء بالنقاء والنظافة والإلهام الإلهي ، مقدمة مع مثيلاتها من العبارات نموذجاً عن تكوينات تتقاطع في رحابها اتجاهات أدبية متنوعة ، أبرزها التقاء الرومانسية والرمزية في أهداف مشتركة واحدة .

وفي هذا الإطار تكلل الكآبة رؤية الشاعر فايز خضور للحياة ، فيرى إليها في قصيدته المكتوبة في عام ١٩٧١ بعنوان «زليخة بالملح ترسم عينيها» (١٨ - ص١٦٩) سفراً مريراً ، يسرق قطاره براءة الإنسان وطفولته الأثيرة لديه :

«يا قطاراً يشرّده الحلم،
أنهكت صدى المدى
بالكآبة:
جالداً موسم الفرح الطفل،
بالسفر المر».

وبعد الحرب العربية - الاسرائيلية في عام ١٩٦٧، وجد الشاعر في أحداثها ونتائجها المأساوية ينبوعاً رومانسياً، مدّ منه جسراً ينقل عليه غناءه الذاتي الفردي المكلل بالعذاب والأسى، ليندغم في أناشيد اجتماعية عامة تستمد من الأحداث الواقعية مسوغاتٍ مناسبة لأنّات حزنها وأساها، بعد أن ارتكز الحزن في الغنائية الشعرية الفردية طويلاً، على كآبة مبهمة غامضة، كثيراً ما بدت بين كلمات القصيدة باحثة عن مشاجب تعلق عليها أوجاعها وآلامها، مبالغة في تهويل عذاب الحب كما هو الحال في شعر نديم محمد، أو رافعة مستوى الشعور بالغربة إلى أعلى ذراه كما هو الحال في أعماق محمد الماغوط.

ويبرز الشاعر سهيل ابراهيم مع شعراء هذه المرحلة، متأثراً بموجة النضال الوطني والقومي المتنامية في الشعر السوري المعاصر بعد النجاحات المتصاعدة للاتجاه الأدبي الواقعي منذ الحرب العالمية الثانية. ويقدم سهيل ابراهيم في مجموعته الشعرية «أنوي وأ سميك اتجاهاً» (١٩) تناولا لقضايا الواقع، برؤى رومانسية لها مرتكزاتها المميزة كالفردية التي يضخمها الشعور بالكبرياء والارتياب بالآخرين، وبكائية الفرد الحساس المفجوع بظلم، يعجز عن دفعه، وباضطهاد يزيد من عذابه ويأسه ويسلبه الأمل. وتحاول المجموعة تمويه هذه المشاعر المنكسرة باظهار رغبة إنسانية متفائلة بزوال الظلم وانتصار راية الحق والخير على الأرض.

لم يعن تنامي اتجاه الواقعية الأدبية «النضالية» الطامحة إلى إصلاح الحياة، منذ مطلع الخمسينات في سورية، انحساراً نهائياً للمؤثرات

الرومانسية في الأدب، فقد عادت هذه المؤثرات بعد ثلاثة عقود من الحوارات الأدبية الساخنة، لتدفع إلى واجهة الخطاب الثقافي في أواخر السبعينات، انشغالها الحميم بموضوعات الحزن والعزلة والغربة معمقة مستويات الإحساس بالارتباط المتبادل الحاد بين الشجن الشخصي وحزن المجتمع كله، بعد أن غدا الشعور التراجيدي بالواقع الاجتماعي، دليلاً هادياً في المشهد الأدبي والثقافي. ويعبر سهيل ابراهيم في مجموعته الشعرية «أنوي وأسميك اتجاهاً» الصادرة عام ١٩٧٨، عن ذلك الارتباط بين ضفتي الحزن الخاصة والعامة، صراحة، فيقول: (١٩- ص١٢):

«سوف أبدأ ملحمة البكاء
نكذب حين نضحك،
والعالم من حولنا يبكي دماً».

إن استمرار الشعراء السوريين المتأثرين بالرومانسية في القرن العشرين، في رفعهم لرايات الألم والضياع، يرتبط بأحداث التاريخ المأساوية التي عانى منها المجتمع السوري في مراحل مختلفة. صحيح أن انجازات مهمة كانت تتحقق على مختلف الصعد السياسية والاقتصادية، لكن النزوع الرومانسي الفردي الطامح إلى تمجيد مشروعه في الحرية، استطاع أن يجد في المصائب العامة ظواهر تمنح ينابيع الحزن في القصيدة دفقات ملائمة، عبرت عن هويتها في إحساس الشعراء بالانتماء إلى بلاد، صبغت الجراح صفحات تاريخها المعاصر. وفي الوقت الذي احتضن فيه هذا النزوع رؤية منكسرة إلى الحياة، كان عدد الشعراء يعبرون في قصائدهم عن رؤى تفاؤلية إلى واقعهم المحيط ومسير نضال شعبهم الذي تصاعدت حدته منذ الأربعينات والخمسينات، ومن بين شعراء هذا الاتجاه يمكن ذكر اسمي الشاعرين سليمان العيسى وشوقي بغدادي على سبيل المثال.

ويعد الياس الفاضل من الشعراء الذين وجدوا أصداء الذات في الغنائية الرومانسية الحميمة، التي يرن الحزن في أنغامها ممجداً راية البكاء

والألم. يقول في قصيدته «دوامة الفصول» (١٦-ص٨) التي نشرها عام١٩٧٠:

«بكيت في مأتم الفصول
نشرت راية الألم».

يحس الياس الفاصل «بالعلاقة الوثيقة» التي تربطه بالألم بأسلوب يجعل من الحزن «أليفاً» و«صديقاً» له. يرسم في قصيدته «قمر من خمر» (٦-ص٩٩) معالم تلك العلاقة مزيناً رؤاها بالنور والزنبق، يقول:

«آه.. أيها الألم
نحن جبلناك من أحلامنا
نحن زرعناك في أعماقنا
نحن رفعناك على أكتافنا
أنت يا قمرا
من خمر وزنبق وتراب».

يصبح الحزن صديق الشاعر الحميم الودود، ليس مجرد ضيف عابر، يزور ويمضي، إنه الحزن- جوهر الحياة ذاتها. يقول في قصيدته «طعم الرمال» (١٦- ص١٢٥)

«وأنا آخيت الحزن
الوحدة والحزن
الأحلام والحزن».

لقد تنوعت الموضوعات في الشعر السوري في القرن العشرين تنويعا واسعاً تعايش مع ساحاته الزمانية والمكانية الاتجاه الوطني والقومي ذو النبرات النضالية الواقعية التفاؤلية مع الاتجاه إلى أدب ذي طوابع رومانسية تحتفي بموضوعات الحزن واليأس والشجن الروحي والحزن العالمي والغربة والعزلة والمصائب وخيبات الأمل.

وغالباً ما تبدو موضوعات الحزن والشجن وثيقة الصلة بموضوعات الرهن الجسدي والنحول المرضي، بدلالاتها الرامزة إلى حال البنية النفسية للإنسان. وقد عرف التراث الشعري العربي انعكاس مثل هذه الصلة في الفن الكتابي، وفي التقاليد الأدبية نماذج من الشعراء الذين يصفون نحول الجسم وسقمه، ليعبروا عن مظاهر المعاناة في الحب بشكل أساسي. يعمق الاتجاه الرومانسي هذه الرؤى موثقاً عرى العلاقة بين المعاناة ونحول الجسم وحالة شحوب اللون الأثيرة لدى قلوب الرومانسيين. والشاعر نديم محمد نموذج ثقافي معبر في هذا المقام، يصفه د. عيسى بلاطة بأنه «الرومانسي الأول في الشعر السوري» (٢٠ - ص١٧٧) وهو يعبر في مجموعته الشعرية «آلام» عن غربته الروحية والشخصية في المجتمع و حرمانه في الحب، ويصرّح بسقمه وشحوب لونه ليحدد بطاقة هويته الشخصية المعبرة عن مرارة آلامه ومعاناته، يقول في «النشيد الأول» (١٣ - ص١٧) من مجموعته الشعرية المذكورة:

« ما أبالي شحوب لوني وضعفي
ونحولي.. ورقّتي.. وسقامي».
أفيرضيك أن يحطّمني اليأسُ
وألقى في كل يوم حِمامي؟».

يرتبط تقديس الشحوب والسقم الإنساني في القصيدة بمواقف متمردة على المجتمع الراكد الذي يدّعي الصحة والعافية مفاخراً بنفسه. ويبدو موضوع «السقم» والمرض الجسدي والنفسي ذا صلة وثيقة بالأسلوب الأدبي للشعراء في تعبيرهم عن المعاناة و«الألم العظيم» المصحوب بارتياح نفسي. يصبح الشحوب والسقم في تلك الصور الأدبية من الرموز الدالة على حالات نفسية محددة، تعبر عن الحزن من جهة، وتسهم في ابداع الفن والشعر من جهة أخرى. وها هو الشاعر عبد السلام عيون السود يرى بين الشحوب والشعر صلة دم وثيقة، كتب في عام ١٩٥٠ يقول: «أخشى ما

أخشى أن يتسرب شحوبي إلى هذه الأسطر المقطعة . فبين الشحوب والشعر في نظري صلة دم» . (٢٢- ص٩٨) .

ومن دلالات حالات السقم والمرض في التعبير الشعري، الإشارة إلى صفاء الطوية ونبل المشاعر، وتشبث الشاعر الرومانسي بقيمه ومثله السامية التي تخذل تطلعاتها الأيام، مراكمة صور الحزن واليأس والشجن على أبوابها .

يعتز الشاعر عبد الباسط الصوفي بإعلان شحوبه الكئيب، راسماً بالشعر حالات وهنه المرضي ودموعه وجراحه، فترتسم حالته ليبدو متسربلاً بأثواب الشحوب والكآبة، يتهيأ لأسمى مراتب المجد، متطهراً بالألم العظيم، كما تقدمه قصيدته «نبي وشاعر» (١٥- ص٥٥) يقول:

«لم أكن دمـعـةً، تجفُّ على وما ضقت، عن ضماد كئيب
الشـجـو رحـمـةً كنتُ، لهـاتي، ولـم أكـفكفِ

تحافظ موضوعات الحزن والكآبة على مكانتها الأثيرة لدى الأدباء ذوي النزعات الرومانسية في الآداب العالمية بشكل عام . تردد أصداؤها في القصائد مفتونة بألحان الأغاني الشجية التي يخفق بها القلب الإنساني الصادق . وتصبح هذه الموضوعات في أحيان كثيرة، جزءاً جوهرياً من تكوين الكتابة في مؤلفات الشعراء الرومانسيين، فتتحقق لها مكانة أساسية حاسمة في الفعل الكتابي . وتقدم قصائد الشاعر الإنكليزي صموئيل كولردج (١٧٧١-١٨٣٤) نماذج مناسبة في هذا المقام، فالألحان الوجيعة المؤلمة تلازم انفعالاته العميقة في الشعر والحياة، معبرة عن حدة خفقان قلبه في استجاباته الناضجة بالأحاسيس أمام مثيرات العالم المحيط . ففي قصيدته «أحلام وجيعة» (٢١-ص٢١٤) يعبر كولردج عن «انفعالات نفسية متألمة تصاحب القلب المعذب في محيط الألم» . وفي قصيدته «يا مطر» يقدم كولردج مرّة أخرى صور القلب الذي يجد الراحة والعزلة على ضفاف الأسى . (٢١- ص٢١٥) . مبيناً أننا «كثيراً ما نفيض بمكنونات القلب، لنبرأ بالحزن، فالكآبة قدرنا، والدموع تفيض» .

الهوامش:

١- الزركلي، خير الدين، «ديوان الزركلي- الأعمال الشعرية الكاملة»، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠.

٢- ضيف، د. شوقي، «دراسات في الشعر العربي المعاصر»، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٠٣.

٣- هلال، د. محمد غنيمي، «الرومانسية» دار العودة، بيروت، ١٩٧٣.

٤- تيغييم، بول، فان، «الرومانسية في الأدب الأوروبي»، تر. صياح جهيم، الجزء الثاني، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨١.

٥- الدهان، د. سامي، «الشعراء الأعلام في سورية»، دار الأنوار، بيروت، ١٩٦٩.

٦- جبري، شفيق، «أنا والشعر»، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٥٩.

٧- قرنفلي، وصفي، «وراء السراب»، وزراء الثقافة، دمشق، ١٩٦٩.

٨- الزيبق، علي، «النبعة اليتيمة»، حلب، ١٩٥٩.

٩- هلال، شكري، «الضياع الحزين»، مكتبة الأندلس، حمص، ١٩٧٦.

١٠- النعيمي، د. خليل، «صور من ردود الفعل لأحد أفراد العالم الثالث». دار الكندي، دمشق، ١٩٦٨.

١١- العطار، أنور، «ظلال الأيام»، دمشق، ١٩٤٨.

١٢- الجوزو، د. «مصطفى الرافعي رائد الرمزية العربية المطلة على السوريالية»، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٥.

١٣- محمد، نديم، «آلام»، ط٢، دار الحقائق، بيروت، ١٩٨٥.

١٤- الكيلاني، د. ابراهيم، «شخصيات»، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٧٣.

١٥- الصوفي، عبد الباسط، «آثار عبد الباسط الصوفي»، وزارة الثقافة، دمشق.

١٦- الفاضل، الياس، «تحت سماء آسيا»، دار الأجيال، دمشق، ١٩٧٠.

١٧- الجندي، علي، «الراية المنكسة»، المؤسسة الوطنية، بيروت، ١٩٦٢.

١٨- خضور، فايز، «أمطار في حريق المدينة»، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٣.

١٩- ابراهيم، سهيل، «أنوي وأسميك اتجاها»، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٧٨.

٢٠- جيدة، د. عبد الحميد، «الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر»، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨٠.

٢١- الشعر الرومانسي الانكليزي في القرن التاسع عشر»، موسكو، ١٩٧٥.

٢٢- عيون السود، عبد السلام، «مع الريح»، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٨.

٢٣- عريضة، نسيب، «الأرواح الحائرة»، مطبعة جريدة الأخلاق، نيويورك، ١٩٤٦.

ابداع

أين تعرفت الى الفلسفة ... والبحر!؟

حنا مينه

لاتسألوني لماذا؟ أنا لن أكرر حكاية البحث عن الرغيف، حين بدأت، في الثانية عشرة من عمري، بعجن الصخرة الملعونة، لأصنع منها كسرة خبز.

كان ذلك، قبل تسع وخمسين سنة، يوم كلمت الورقة، وصرت، من بعد، كاتب رسائل الحي، لأنني الوحيد الذي تعلم فك الحرف. ومن

عجب أن كل تلك الرسائل كانت مبللة بالدمع، سواء التي أكتبها للناس، أو التي اقرأها لهم، فالشكوى من الفقر، والمرض، والموت، تأبين مفجعة في السطور، وكان الذي اكتب له رسالة، رجلاً أو امرأة، يملي عليّ ديباجة تبدأ، عادة، بمثل هذا التفجع: «آخ! على آخ!» وهذا ماانبت في نفسي، في تلك الطفولة المبكرة، الشقية، حباً لاينتهي للعدالة، للسعادة، للفرح، وزوال الشقاء من الدنيا.

بعد شهادتي الابتدائية، وهي الوحيدة التي حصلت عليها، عملت أجيراً عند صاحب دكان لتأجير الدراجات. كان هذا المعلم، ويدعى عفيف الطويل، مشبوهاً، فقد ضُبط، في أول أيار، يعلق بيارق صغيرة حمراء، على أعمدة الهاتف، وفي بيته، حيث يعيش مع اخته الخياطة، صودرت كل الفساتين من اللون الأحمر الفاقع، الذي كان موضة تلك الأيام.

كان معلمي أسمر، طويلاً، فيه طيبة، وفيه ملاحة، لكنه بسيط، لايخطر لك، وأنت تراه، أنه في خلية حزبية، تعقد اجتماعاتها في المغائر، على ضوء الشموع. ولأن معلمي أمي، فقد كان يأخذني، مساء، لأقرأ له بعض النشرات، وفيها، لأول مرة، قرأت كلمة فلسفة . .

قلت له: مامعنى فلسفة يامعلمي؟

قال: معرفة القوانين . . .

- أي قوانين . . ؟

- القوانين الغريبة التي تحكي عن الدنيا والناس والتاريخ، والفقر، والغنى . .

- وأين يبيعونها . . ؟

- في بلاد «برّه»

- ولماذا لايبيعونها عندنا؟

- لأنها ممنوعة . . وهي مكتوبة بالفرنجي . .

- وكيف عرفت بها أنت!؟

ـ هذا سر . . أنت صغير بعد . . لاتسألني عن الأسرار!

أضاف :

ـ الفلسفة كالبحر . . . شيء واسع ، عجيب ، لايفهمه إلا المتعلمون جداً .

ـ ومن الذي صنعها . . . ؟

ـ ماركس . . .

ـ اجتمعت به؟

ـ هذا رجل الماني له لحية كبيرة . . أنا رأيت صورته فقط . .

ـ وكيف فهمت كلامه . . ؟

ـ أنا لم أفهم كلامه . . الفلسفة ، يابني ، علم صعب . . والفيلسوف رجل عالم . . قرأ كل ماكتب عن العالم ، ويعرف كل شيء . . رأسه يتسع للمعرفة ، كما يتسع البحر للماء . .

تخيلت عندئذ رأس ماركس كبيراً كالجبل ، وجسمه عملاقاً كجسم الغول في الحكايات التي اسمعها . . وانه يحفظ ، في هذا الرأس ، كل ماكتب ، وانه عظيم ، لاشبيه له بين الرجال الذين أعرفهم . .

لكن عبده حسني ، وقد قتل في الحرب الأهلية اللبنانية وأسفاه ، وهو العامل خليل في روايتي «الثلج يأتي من النافذة» قرّب صورة الفيلسوف الى ذهني ، بأن قال لي : الفيلسوف يشبه ابن عبده يني . كان هذا صاحب المطبعة الوحيدة في اسكندرونة ، وله ابن يقرأ كثيراً ، ويمشي في الشوارع وحيداً ، شارد النظرات ، صموتاً ، مفكراً ، وقد سمعته يخطب لأول مرة ، حين زار خالد بكداش اسكندرونة عام ١٩٣٦ ، وخطب في سينما روكسي ، ومزقت معطفي اليتيم وأنا أزاحم الناس ، للدخول وسماع ماسوف يقال في هذا الإجتماع .

منذ ذلك اليوم ، صار للفيلسوف احترام كبير في نفسي ، وارتسمت له صورة أقرب الى النحول ، والشعر المنفوش ، والنظرات الشاردة ، والإبط

الذي تحته كتاب كبير ككتاب العهد القديم، ورحت أحلم، على طريقتي الصبيانية، أن أصير فيلسوفاً، إذا ماقرأت كثيراً، على ضوء فانوس الكاز، بعد أن أغلق دكان الدراجات على نفسي، عقب انصراف معلمي عفيف الطويل . .

ولإضفاء المظهر الفلسفي على نفسي، طفقت انفش شعري، وأسير وحيداً، وأحمل كتاب «المدارج» في يدي، وأتعمد قلة الكلام . . وأقول لأترابي متباهياً: أنا أعرف رجالاً لاتعرفونهم، رجالاً يحبون الفقراء ويكرهون الفرنسيين والحكومة.

وحين سجن معلمي عفيف، ونقل مع بعض رفاقه الى حلب، ليحاكم أمام المحكمة الفرنسية المختلطة، وأغلقت الدكان، عملت في الميناء، واختلطت بالعمال، وصرت أنزل البحر في مواعين الشحن، وهناك أرسم على الأكياس، بحبر الكوبيا، بعض الأرقام والماركات، واصغي، من طرف خفي، الى مايقوله العمال عن «السنديكا»(١).

وذات يوم، عند الظهر، أفرغنا حمولة الماعون، وتأخر الزورق الذي يأتي من الميناء ليقطرها، فجلسنا، العامل فاضل وأنا، في قاع الماعون، نتبادل الحديث، عن المدرسة، والشهادة الابتدائية، وعما أقرأ من كتب . . ومااِن أنس فاضل إلي، وعرف أنني أحب المطالعة، وكنت أعمل أجيراً عند عفيف الطويل، حتى اخرج من تكة شرواله ورقة صغيرة مطوية بعناية، هي المنشور الأول الذي وقع في يدي، وكان فيه ذكر لماركس، فدهشت لأن عاملاً مثله يحمل منشوراً ولايخاف، وإنه من جماعة عفيف الطويل وعبده حسني، وإن لم يذكر هو هذين الاسمين . . .

قرأت المنشور ولم أفهم مافيه إلا قليلاً. كان فاضل في الأربعين تقريباً، فقلت له: ياعم فاضل، أنا أقرأ «المدارج» فافهمه، واقرأ الانجيل وكدت احفظه في المدرسة الابتدائية، لكنني، في هذين الكتابين، لم اقرأ اسم ماركس، ولاكلمة فلسفة . . .

(١) ـ النقابة

قال العم فاضل: في هذه الكتب لايذكرون ماركس، هذا خطر.. ولايشرحون كلمة فلسفة، لأنها صعبة.. أنا نفسي لاأعرف ماهي، لكنني، نتيجة التجربة، صرت فيلسوفاً على طريقتي.. أعني تعلمت أن الفلسفة ليست «أكلة مجدرة» بل هي عمل.. أن تعمل، كما نعمل نحن، تصير فيلسوفاً، ولو بغير كتب.. تأليف نقابة مثلاً، هذا ماتقول به الفلسفة، أن تحتفل بأول أيار، عيد العمال، هذا فلسفة، أن تتظاهر ضد الفرنسيين، هذا فلسفة، أن تثق أن الفقراء لن يبقوا، وأن الأغنياء لن يظلوا يمتصون دمهم، هذا فلسفة، أن تعرف أنه في بلاد المسكوب قامت دولة العمال والفلاحين، بعد ثورة البلشفيك، وأنها معنا، هذا فلسفة.. وأخيراً أن تؤمن أن البلشفية ستنتصر في كل مكان هذا فلسفة.. اعترف! هذا العامل البسيط علمني أبجدية الفلسفة، جعلها مفهومة في نظري. وقد سعيت، في ركض وراء الرغيف، الى تطبيق نظريته وهي ترجمة عملية لمضمون فلسفة ماركس التي قرأتها في المظاهرات ضد فرنسا، وفي رشق رجال البوليس والدرك بالحجارة، ويوم زار زكي الأرسوزي اسكندرونة قادماً من انطاكية، واعتقلته السلطة الفرنسية، تجمهرت مع الناس أمام السراي، مطالبين بالإفراج عنه، ورشقنا السراي بالحجارة فكسرنا زجاج نرافذها، فكان أن اطلقوا علينا النار، وقتل زميل لي على مبعدة أمتار مني.

ودارت الأيام.. دخلت تركيا لواء الاسكندرونة. هاجرنا الى اللاذقية. عملت في قطاف الزيتون، قمت بتوزيع الصحف، تعلمت مهنة الحلاقة، فتحت دكاناً صغيراً قريباً من الثكنة، وكنت أقفل دكاني، كلما سمعت باضراب، أو خرجت مظاهرة، ثم حضرت اجتماعاً لعصبة العمل القومي، تكلم فيه رجل يلبس الفيصلية، وبيده عصا، وعلى الجدار خريطة للبلاد العربية، وكل ماوعيته من كلامه، أن علينا أن نناضل لتوحيد كل هذه البلاد، وبذلك نصنع دولة كبيرة، تقاوم الفرنسيين والانكليز، وتستعيد اللواء وفلسطين، ومنذئذ صارت الوحدة العربية حلماً جميلاً ثورياً، في ذاتي.

في دكان الحلاقة قرأت كثيراً. كان يجتمع عندي بعض طلاب المدارس، وحتى بعض الذين انتسبوا الى الجامعة في دمشق، عند عودتهم الى اللاذقية، ويناقشونني في بعض المسائل، وقد أخذت من هذه المناقشات ومن قراءة الصحف والمجلات «كالطريق» اللبنانية و «الفجر» المصرية، و «المجلة» العراقية. وفي إحدى الليالي زارني رجل حلبي بطربوش، وقدم الي نفسه باسم عبد الجليل سيرس، وقال انه سمع بي، وأنه يزور اللاذقية في «مهمة» خاصة، هدفها انشاء النقابات. . . وأشياء أخرى، وسألني عما اقرأ، وأوصاني بمطالعة بعض الكتب، وأعطاني كراسات صغيرة، من بينها كراس مترجم، مؤلفه «سيغال» على ماأذكر، ومنه تعلمت المبادىء الأولى للماركسية، عن المادية التاريخية، والمادية الجدلية، وعن رأس المال، والقيمة الزائدة، وأصبحت، شيئاً فشيئاً، مثقفاً بنظر نفسي، وازددت حماسة للنضال، ودخلت السجن عدة مرات، وضربني رقيب في الدرك يدعى أبو حمدو، اشتهر بالقسوة وقوة العضل وعدم الخوف، لأنني نشرت رسالة ضد فظائعه في جريدة «صوت الشعب» حتى امتلأ رأسي بالكدمات، وازرق وجهي وتجمع الدم في عيني، وكتب، يومها، المرحوم وصفي البني مقالاً استهله ببيت من الشعر يقول: «وظلم ذوي القربى أشد مضاضة» على اعتبار أن هذه الأعمال المنافية للديمقراطية، يقوم بها رجال درك «الكتلة الوطنية» وقد تعلموها من الفرنسيين، ويزوهم فيها.

بدفع من هذا التعذيب، كتبت مسرحية أنا بطلها، وحوادثها تغيّر العالم، أو تصنع عالماً جديداً في ستة أيام، وأرسلت مقالة الى جريدة «الأحرار» في بيروت، استحلف صاحبها، على طريقة جبران خليل جبران، بالمرأة التي هي اكسير روحه، أن ينشر المقالة، لكنه لم يفعل، وإن كان قد بعث الي برسالة صغيرة، يقول فيها أن مقالتي غير صالحة لعدة أسباب، أهمها أن فيها أفكاراً لاتنسجم وخطة الجريدة.

كانت الصحف، آنذاك، والحرب العالمية الثانية مشتعلة، بأربع

صفحات، فلم أيأس، وكتبت مقالة «لصوت الشعب» لم تنشرها، ولكنها نوهت عنها بأربعة أسطر، وقد غمرتني السعادة، لأنني أرى اسمي مكتوباً في صحيفة لأول مرة، ثم كتبت قطعة صغيرة بعنوان «طفلة للبيع» نشرتها مجلة «الطريق»، فعمدت نفسي كاتباً، لابواسطة القديس يوحنا، ولافي نهر الأردن، بل في بحر اللاذقية، وشكلت قلماً في سيالة سترتي.

عام ١٩٤٧ هاجرت من اللاذقية. صارت دكان الحلاقة مشبوهة، ولم يعد أحد يحلق عندي، فقصدت بيروت، ولم أتوفق في الحصول على عمل، فتركتها الى دمشق، وفيها عملت مجاناً في الصحافة لمدة ثلاثة أشهر، وكان معلمي، أي سكرتير التحرير، المرحوم أحمد علوش، الذي صار صاحب مجلة «الصرخة» فيما بعد.

في دمشق اتصلت بالمثقفين، واشتركت في تأسيس «رابطة الكتاب السوريين» ثم رابطة «الكتاب العرب» وقرأت رأس المال، وصارت معرفتي بماركس أوثق، لكن ماقاله لي العامل «العم فاضل» في قاع سفينة الشحن، ظل أساساً عملياً لنشاطي الحياتي، ودخل، بأشكال مختلفة، في كتاباتي الأدبية... ولم يخرج.

هذه، بسطور، حكايتي مع ماركس «الذي رأسه بحجم الجبل، وجسمه عملاق كرجل أسطوري» وكلما رأيت صورته الآن، بلحيته البيضاء، وجبينه العريض الوضاء، وشعره المسترسل، ونظراته النجمية، ابتسم لطفولتي التي بعد بها العهد، بمقدار مااقترب ماركس من قلبي ونفسي، لأنه، بفكره العظيم، اعطاني مفهوماً عن العالم، منحني الرؤية التي فتحت عيني، وأضفى على مهنتي الأدبية، لا الوعي وحده، ولا المعرفة وحدها، بل الجمالية أيضاً..

يخطىء من يظن أن انساناً قادراً على فهم العالم دون أن يقرأ الفلسفة، على ماركس أو غيره، ويخطىء أكثر من يحسب أنه قادر على الكتابة دون الاطلاع على الفلسفة، ليس بصفتها «وصفة» بل كمرشد عمل، في السياسة والأدب على السواء.

الآن، من الذي بقي، في بلادنا وفي الدنيا، يجهل اسم ماركس والفلاسفة الآخرين، إذا كان مثقفاً؟ ومن لم يستفد، كثيراً أو قليلاً، من الايديولوجية الماركسية التي صارت منارة للمبحرين في المحيطات، والسائرين في الصحارى، والبائسين في المدن والأرياف، والعاملين في الجامعات والمكاتب والمصانع والحقول؟.

سئل غوركي مرة: كيف تعلمت الاقتصاد؟ كان عندئذ يعمل حمالاً على نهر الفولغا، فقال: «انظروا إنه منقوش على ظهري».

تسألونني كيف تعرفت الى الماركسية: أقول لكم: في قاع سفينة شحن، ومنذ ذلك اليوم الحزين، أصبحت مفاهيمها منقوشة على قلبي، راشحة، مع عرق التعب، من مسام جلدي.

أما البحر فإن لي، معه، قصة أخرى طريفة... كنت في الثامنة من عمري، يوم أخذني الإخوان قلفاط، من زملاء المدرسة، الصف الأول، الى البحر في الاسكندرونة. زعم أصغرهما، نقولا، إن الجرأة وحدها، هي التي تعلم الإنسان السباحة.

سألته:

ـ كيف؟

قال:

ـ أن تذهب الى رأس «الصقالة» وترمي نفسك في البحر.

ـ وإذا غرقت!؟

قال الأخ الأكبر، دميان:

ـ يكون هذا أفضل.

قلت خائفاً:

ـ كيف يكون هذا أفضل؟ الغرق يعني الموت!.

فكر دميان، وكانت له عينان، جفونهما حمراء ومقلوبة، ونظر إلي باستخفاف وقال:

- من لايعرف أن يسبح، من الأفضل له أن يموت!

أنا، الآن، أرى هذا القول حكمة! دميان كان حكيماً على طريقته، فمن لايعرف أن يسبح من الأفضل له أن يموت، وقد قال أبو القاسم الشابي، مترجماً هذه الحكمة النثرية الى شعر:

ومن يتهيب صعود الجبال يعش ابد الدهر بين الحفر

إلا أنني، في تلك السن من طفولة مبكرة وعليلة، ماكنت أعرف الحكمة ولا الشابي ولاصعود الجبال، أو المغامرة في البحر، لذلك قلت:

- ألا يمكن أن أتعلم السباحة على الشط؟

قال نقولا:

- يمكن.

رد دميان، أكبرنا سناً، وقائد طفولتنا:

- أنا أقول لايمكن، يعني لايمكن!

سكت. تلبستني حيرة. تقلدتني مخاوف. سرت وراء دميان، وأنا أرتجف من الخوف والبرد، لأننا كنا في الخريف، وكنت ألبس سروالاً داخلياً من الشيت الأزرق، ومشينا على الصقالة، الى أن صرنا في البحر، على عمق أمتار، فألقى دميان بنفسه في الماء. غط وطلع. فعل أخوه نقولاً مثله. بقيت وحيداً، أرى واتحسّر على نفسي، الى أن قررت أن أعود الى الشاطىء الرملي، حيث انزل الماء، كما يفعل الأطفال الذين في مثل سني، فجأة صاح بي دميان:

- إلى أين؟

- الى الشاطىء!

- يعني الى الرمل!؟

- كل الأطفال يسبحون هناك!

- أنت يجب أن تسبح هنا!!

- لماذا!؟

ـ هكذا . . أنا لاأحب الخوافين .

– أنا أخاف لأنني لاأعرف العوم .

ـ على الرمل لايعوم أحد ، ولايتعلم أحد . . . فهمت؟

ـ . . .

ـ تعال تفرج إذن كيف نسبح نحن . . راقب فقط حركاتنا ، الأيدي والأرجل مثلاً . . . ألا تعرف الضفدعة؟

ـ هذه أعرفها .

ـ افعل مثلها .

ـ أين؟ في «بركة» المدرسة؟

ـ في «بركة» البحر !

ـ الضفادع لاتعيش في البحر .

ـ بلى! تعيش . . . تعال وانظر اليها!

سرت الى رأس «الصقالة» . كنت راغباً حقاً برؤية ضفادع البحر . وقفت . حملقت . انتقلت من طرف الى آخر . لم أجد شيئاً . لم أر سمكة واحدة . كانت هناك فلائك ، مواعين ، وكان عمال وبحارة ، وفي البعيد كانت سفينة ترسو ، وكان سباحون فتيان يتسابقون نحوها ، وكان الأخوان قلفاط ، نقولا ودميان ، قد حدثاني أن هناك ، على طرف السفينة ، سلماً ، يصعدون عليه بسهولة ، حيث يحظون ، من القبطان ، بالشيكولا والبسكويت ، ويتفرجون على غرائب السفينة ، مثل السطح ، والقمرات ، والعنابر ، وحتى غرفة القبطان ، وكذلك ، وهذا الأهم ، يرون النساء بثياب البحر ، شبه عاريات تقريباً!

فجأة دُفعت الى البحر ، عند رأس الصقالة . غطست وأنا أصرخ . ارتفعت الى فوق . هبطت الى تحت . شربت الماء المالح ، تابعت الصراخ ، وعندئذ ألقى دميان نفسه ورائي ، امسكني من يدي قائلاً :

ـ لاتخف!

هتفت من حلاوة الروح، وأنا ابكي:

ـ أنا أغرق يادميان! انقذني.

قال دميان:

ـ حرك يديك ورجليك فقط.. افعل مثل الضفدعة... هيا.. سأتركك!

تركني! من جديد رحت اتخبط في البحر، وأنا أحرك اطرافي، الى أن عمت، فعاد يمسكني من كتفي قائلاً:

ـ برافو! تابع ياضفدعة برية!

تابعت الى أن تعبت. شربت كثيراً من ماء البحر، لم أعد احتمل، تعلق دميان بقائمة الصقالة الحديدية. سحبني نحوه. قال:

ـ تعلّق أنت أيضاً... افعل مثلي.. استرح..

استرحت. قال دميان:

ـ مرة أخرى الى البحر.

ارغمني على العودة الى الماء. عدت دون صراخ، تخبطت من جديد.. عمت. وقف على مقربة وقال:

ـ تعال إلي..

حاولت! حاولت! وصلت اليه. استرحت وأنا أتمسك بكتفه. دفعني كي أعوم. عمت.. ابتعد وقال:

ـ تعال الي..

ذهبت بصعوبة بالغة نحوه.. وعندئذ قال:

ـ يكفي اليوم.. تعلق «بالصقالة».. هيّا نصعد.

عندما صرنا فوق «الصقالة» الخشبية. استلقيت تعباً. لم أعد خائفاً، إلا أنني تقيأت ماء البحر، ودميان ينظر الي ويضحك، ثم جاء واستلقى الى جانبي قائلاً:

ـ الضفدع وحده يسبح في «البركة»، أما الإنسان فإنه يسبح في

البحر.. وفي البحر العميق جداً، يكسر، مرة واحدة، خوفه من الغرق.. يصير دلفيناً!

نظرت اليه بكره. لم أتكلم. ماكنت قادراً على الكلام. عيناي فقط رأتا السماء الزرقاء، عالية جداً، وطيور النورس البيضاء، تحوّم قريباً مني في الفضاء، والريح رخية، والسحب البيض، بتشكيلات بديعة، تندفع نحو الأفق، وتأخذني معها. وبعد ذلك، عندما بلغت السادسة عشرة من عمري، وعملت في الميناء وعلى المراكب، قلت للرّيس الطنحر، بعد أن رويت له قصتي:

ـ هل صحيح أن الفرق الوحيد، بين الإنسان والضفدع، هو «البركة» والبحر، كما يقول دميان؟

رازني وقال:

ـ صحيح.. دميان هذا كان «فلسفوناً» بحرياً!

ـ فيلسوفاً ياريّس!

ـ نعم! كما تقول.. لو سبحت على الرمل، ماكنت اليوم معي على المركب.

وبعد أن تنهد قال:

ـ البحر للإنسان، و «البركة» للضفدع.. هذه هي القصة كلها! اين صار دميان هذا؟

ـ لاأدري.. افترقنا منذ تركنا المدرسة.. سمعت أنه هاجر الى بيروت..

قاطعني:

ـ يعني الى البحر!!

أضاف:

ـ نعم! نعم! الى البحر.. وإلا كيف!؟ اسمع! النسر له الجبل، والبحّار له البحر، تعرف لماذا؟

ـ لأنه انسان!

ـ تماماً.. ولكنه انسان نسر.. نسر بحري.. الطير يصعد الى فوق، ونحن ننزل الى تحت، الى الأعماق.. الجبال والأعماق.. والموت، هناك وهنا، بكرامة.. إذا مت، وكلنا سنموت، فلا تخش القاع.. إذا مت في البحر، فإنك تموت بشكل لائق، وهذه حال النسر والجبل.. موت النسر يكون في الأعالي.

قلت:

ـ ولكن الإنسان أقوى من النسر ياريّس!

ـ لا! هما اخوان! هما رجلان، وكل منهما له ساحته.. المسألة، كلها، تتوقف على جواب هذا السؤال: هل أنت رجل أم ضفدع؟

قلت:

ـ رجل!

ربت على كتفي وقال:

ـ قل هذا، دون كلام، للعاصفة!

ابداع

شعر

الرحيل في مملكة الخبز والورد

ابراهيم عباس ياسين

للبحر مُعْتزلاً ومُشْتَمِلاً مُسوحَ الموجِ كالرهبان،
مشتعلاً بصمت جلالهَ الأبديِّ،
للقمر المكلّل بالضياء وبالغناء الحُرِّ...
حين يمرُّ قرب قلوبنا فَرَساً من الأحلامِ،
للأرض التي وهبتكَ نبض غنائها السحريِّ
ملحمةً، وأهدتك اندفاعات الأناشيد...

*** ابراهيم عباس ياسين:** أديب وشاعر من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب. يكتب الشعر والدراسة الأدبية، من أعماله الشعرية: «الخروج من الزمن الميت»، «شموس في المنفى».

اندلاع اللون في ثمر الحروف...
وفي تلاوين الفصولْ
وَتَخَيَّرتْكَ لكي تكونَ لفَجْرها الآتي الدليلْ
وتكونَ ناراً في كهوف الليل...
أو نوراً لمن يأتون من سفرٍ خرافيٍّ طويلْ
ومن انكسارات الزمان الكهل...
تهدي القادمينَ إليك - كالشجر المبارك - ماتيسَّرَ
من ثمار الضوء والألوان والفرح الظليلْ
وَتُعيدَ للأشجار خُضْرَتها... وللأمواج زرقتها..
تُغني شاطئاً من بهجة اللقيا..
تُهيّئ وردةً للروحِ في الزمنِ المهدّد بالأفولْ
لِيَدَيْنِ معجزتينِ تبتكرانِ أعراسَ القصائد..
ترسمانَ القمحَ أغنيةً على شفة الفضاء..
وتنقذان النرجسَ البريَّ من ليلٍ شتائي
ومن عَصْفٍ أكولْ
لقصيدةٍ تأتي ولا تأتي..
لسنبلة تُمشّطُ شَعْرَها الذهبيَّ في مطر الحقولْ
لغناء قُبَّرة على شُبّاك من أَحْبَبْتُ..
هاأنذا أعبّئ ماتبقّى مَن حُطامِ القلبِ بالكلمات،
أجترح الطريق إلى النجوم،
وباسْمكَ النّبويِّ فوق الليل أبتدئ الرحيلْ.
«يايوسفَ ابنَ الشمس»!
ياملكاً على عرش السنابل والجداول..
يااشتعالَ الزهر في فرحِ الصباحِ المطمئن..
وفي تباشير الحقولْ!

ياأيها الحرفُ المتوّجُ بالبنفسجِ والنجوم الخُضرِ..
ياقمراً يهبُّ على بساتين النخيلْ!
ماذا سأقرأ من أناجيل الصباحِ؟
وكل وَرْد أنت صورتُه
وصورةُ كلِّ قمحٍ أنتَ،
أعْلَمُ أن عندك من أغاني الضوء مملكةً
إذا ماشرّعت أبوابها الخضراءَ..
لانْدَفَعَتْ سيولُ الفجرِ..
واندلعتْ يماماتُ البراري بالهديلْ
يايوسفُ ابن الشمسِ..
يا الفرْحُ المذوّبُ من تراتيل الطيور..
وَهَمْس أجفان المساءات البتولْ
عمّنْ تُفَتّشُ خلف أسوارِ الرماد المُرِّ؟
عن نيرانِ روحكَ؟
عن صدى نايٍ تشرّدَ.. واستحالَ إلى سُدى؟
هل كنت تعلمُ أن ليلاً ما سيأتي
ثم يمتهنُ القصائدَ والمعابدَ..
فجرَ أعراسِ السموات التي انكسرت..
ويحتلُّ المدى؟
ماذاتبقّى بعدُ من ألوان هذي الروحِ
ماقدَّمتَهُ للأرض؟
كأسُكَ!
سوف تشرقُ بعد هذا الليل، كل الليل، شمسٌ..
من أغاني جوعنا العالي
تعدُّ لخضرة الآتي يدا

ولسوف ينحطمُ الظلام على مآذن من صدىً
صلواتنا الخضراء - كأسك مرة أخرى -
وتولدُ من مآسينا البلادُ
كأنها قمرٌ تزيّنَ بالزنابق والندى
وبفرحة الأمل المطرّز بابتسامات الورودِ..
ورقص أعراس الضياءْ
ها أنتَ تكتبُ سيرةً للأرض، أُمِّ الكلِّ،
منذ عصورها الأولى إلى زمن المماليكِ
المؤاتي للفناء:
في البدء - يُحكى - كانت الأرضون سيّدةً..
تنامُ على وسادتها القصائدُ،
وجهُها صيفٌ من الأحلام،
كفّاها زمانٌ طافحٌ بالقمح من سنة إلى سنةٍ
ونهداها انفجارُ الفجر في ظمأ المواسم للضياءْ
تَتَنَزَّهُ الأقمارُ ليلاً في حدائق جسمها العاري
وفوق جبينها الذهبيّ يَنْسَكِبُ المساءْ
أمّاً لنا - كانت - تُهَدْهِدُنا..
وتغمرنا بفَيْضِ حنانها اللّيليّ..
صوب الله ترفعنا صلاةً من دعاء الأنبياءْ
أمّ الحواريّين والشعراء - كانت - كُلّ مَنْ وُلِدُوا
لكي يحيوا صباح الوردِ،
لا أمّ الأكاسرة، القياصرةَ، الطغاة...
تسافرُ الأيام كالأحلام آمنةً ووادعةً،
إلى أن كان - ياماكان - أبصرها الزمان الوغدُ..
عرّافُ الخطيئة، تاجرُ الأحزان، سفّاكُ الدماءْ!

وتحدَّرتْ كل الكواكب من عَلٍ،
دارت جبالُ النار دورتها ،
المواسمُ أقفرتْ،
وتزيت ملكاً هو الزمن الرديءُ..
فأنجبت ليلاً من الحيتان والتيجان..
وابتدأت تجرُّ ذيولها السوداءَ أزمنةُ الملوك المجرمينا
ياأمّنا... ماذا وراء حكاية الطوفان؟
ليس سوى سماءٍ من دخانٍ أسود.. لَا تهجرينا!
ياأمّنا.. للوردِ فينا ألفُ روحِ عاشقٍ
مازال يملؤنا حنينا!
من حبّة القمح ابتدأنا
واشتعلنا كالنجوم على شواطئ من دماء العشب..
لكنا انطفأنا مكرهينا
لا تقتلينا.. لست بعدُ بحاجة للقتل، لا.. لا تقتلينا!
نحن الذين لوجهكَ القدسيِّ..
أعلينا نهاراً ليس يدركه السقوطْ
«هذا أوان الشدّ فاشتدي» ولا تلدي
الثعالبَ والعناكبَ بعدُ، لا تلقي بنا للجُبِّ
في عتم الزمان الصعبِ، حتى لا دخولَ ولا خروجَ..
ولا صعود ولا هبوطْ
لا تتركينا رهْنَ شُذّاذ المسالك والممالك
فيَ الزمانَ القهقرى
مُدّي يديك، خُذي بقيّةَ روحنا، حتى نرى
ماذا نرى فيما نرى
يَتَساقطُ الشعراءُ كالنملِ الغبيِّ..

على موائد من دجى الليلِ المؤبّدِ بالمدائح والقنوطْ
يتناحرون على بقايا جُثّةٍ
تمتدُّ من أقصى خليج الحزن..
حتى آخر الأرض التي انتهكَت على شفة المحيطْ
ياأيهاالشعراء «قحطاً» صحتُ،
واعتصموا بحبل النفط ياأحفادَ لوطْ!
ماذا أقول إذن لمن يأتونَ من عتمِ السجون؟
وكيف أشهرُ بعد أغنيتي نهاراً في ظلام الظاعنينْ؟
ماذا سأعطي القادمين إليّ من هَلَعِ المقابرِ والمجازر..
من ليالي الجوعِ والفرحِ المصادرِ من أغانيَ العاشقينْ؟
ولربما يأتي إليّ الزهرُ..
لاغيمٌ لديّ لكي أظللهُ، ولا ماءٌ لأروي
حبّةَ القمح التي انكسرت على مرمى خيول الفاتحين!
ماذا أقولُ.. وأنتمُ حلٌّ كوجه الليل في هذا البلدْ؟
سأقولُ: هذا ماجناهُ عليكم الشعراءُ والأمراءُ..
يافقراءَ شعبي..
واشهد اللّهمَّ أني ماجَنَيْتُ على أحدْ!!
يايوسفَ ابن الشمس..
أيُّ غرابة، سكَنَتْكَ؟
أي ضلالةٍ، أعْمَتكَ عما تنقشُ الأحزانُ
والغيلانُ في منفى لياليِنا الطوالْ؟
وَعْدٌ بعرش ولاية صفراءَ؟
أو سمةٌ تشهَّاها الرِّجال الجوفُ؟
أم وَهجُ اللآلي؟
هم يستدرجونكَ خلسةً..

وَسَيُنْزِلونَكَ بغتةً عن عرشك العالي
إلى الطلل المحال
وسيقتلونكَ. يقتلونكَ. يشنقون الصوتَ – صوتكَ..
يقطعون يديكَ. من أزهار روحكَ يسحبونَ
بقيةَ المطر البهيج وَرقةَ الماء الزُلال
لتموتَ وَقْتئذ كَخَفْق الريح وحدكَ..
ترتدي ثوب الغياب الصعب
تتكرك الرياحينُ. التراتيلُ. المواويلُ...
الأغاني العاشقاتُ. السيّداتُ. زنابقُ الأعياد..
أقمارُ الليالي.
قُمْ يارسولَ البرق وانشُرْ راحتيكَ على السهول..
وفوقَ أغصان الصباحات التي انكسرت
وقامات الجبالْ
يا يوسفُ ابن الشمس هل في روحك الحمراء مُتّسَعٌ
لشيء من سؤالي؟
: ملكٌ بلا عرش أنا. وطنٌ النجوم الخُضْر مملكتي.
الكواكبُ والظباءُ رعيتي. وَسُلالتي شعبٌ من الأزهارْ
عينايَ نافذتان فوق البحر مشرعتان..
قلبي مُفْعَمٌ بالشمس أشربها لآخر قطرة..
وحبيبتي امرأةٌ من الفرح البهيِّ..
يَدايَ أغنيتان من مطرٍ ومن نارٍ ونارْ
وعليَّ أن أختارَ: مملكةٌ من النسيانِ
أو.. تاجاً بهيَّ الغارْ؟!
أيها العاشقُ منذ المرأة الأولى
إلى آخرة العشق المبجّلْ

ياالذي كالفارسِ المطعونِ عن عرشِ قوافيهِ
تَرَجَّلْ
وتَحَوَّلْ
عن أغانيه لمجد الأرض والإنسان
مأسوراً.. تحوَّلْ
دُلّني: هل كان عطر الورد فوق يديكَ
أم وشمُ المماليك على ساعدك المقطوعِ أجملْ؟!
حسنٌ.. سأكمل مَابدأتُ من الرحيل الصعبِ،
مااقترفت يدايَ من النشيد،
وأشهدُ التاريخَ أن يأتي ويشهدَ خطوتي
ترقى سفوحَ الجلجلهْ.
حسنٌ. سأحملُ، فوق ماحُمّلْتُ من عبء السؤالِ،
صليبَ من ماتوا لتحيا السنبلهْ
هذا أنا أشعلتُ فوق الطور فجرَ قصيدتي،
تأتي الطيورُ إليَّ. تزدحم الكواكبُ في الطريقِ..
إلى فضاء مدينتي. بمشيئتي تجري الرياحُ..
وألتقي عرسَ البلاد المقبلهْ
حسنٌ.. سأسفحُ في اكتمال الليلِ
عرسَ الضوء والألوانْ
وأعيد ترتيبَ النشيد الحُرِّ..
أكملُ بعضَ مابتدأتْ يداكَ:
«المجدُ كل المجد للإنسان»
المجدُ كل المجد للإنسانْ!

❁ ❁ ❁

ابـــداع

شعر

تحيات إلى سورية

كريس بيجورن

الاقتراب التواءم

الطقس حول العالم لا يستقر على حال
انتفاخات قمينة وجليد قاس
حيث الكساد يجعل التجارة مشلولة
والأعمال ضائعة.

الحرب العالمية الثانية كرست الحرية عندما
تصافح السلام مع الحرب. وحيث
ركعت الانسانية أمام القوة والشدة
تنحت بالازميل صورة الأنظمة السيئة كي تتوقف
كان العالم منقسماً إلى نظامين دفاعيين
حيث يصعب على المرء أن يشق طريقه
حيث يطفو المصير في أروقة مرعبة
تشققت المقاعد بصوت غامض مرعب
يشارف قرننا المهتز على نهايته،
أيوشك أن ينبلج فجر قرن جديد
علينا أن ندافع عما ليس في الحسبان
لأنه في موقف مخيف، وذلك من أجل الحياة نفسها
هدفنا اليوم سلام شامل
عشية قرن جديد
أنت ترغب في الحياة والراحة
أنت على عتبة قرن جديد

* * *

على عتبة قرن جديد

اليوم أنت على عتبة قرن جديد،
في عالم الخوف والآمال.
حيث الفضيلة المتحررة تبني لتبقى،
وأمنا الطبيعة تواكب كل هذا.
عندما يترفع الشباب بين قوى متضاربة

يحرقه الخوف والقلق
حيث يطالب الفقر المرهق بالضروريات
حتى نتحمله طويلاً
والفقر ماهو بمسرة ولا فخر
ولكنه دلالة على أمر واحد جيد
حيث توجد الحيوية تتحقق الراحة
إنها نشوة الحياة التي علينا أن نتغنى بها.
مستعدون لرحلة، نكسر الطوق
نبني الحياة وحدنا
عندما تكون الروح حرة، والحرية
قائمة، تأتي الثروة الى بلدنا.
الصيغة صيغتك والخبرة عظيمة
وفي الفرح تصدح الأغنيات
عندما تبتسم السعادة لاأحد يشعر
بالخوف، تشمخ أفكارنا فوق التنهدات.
أنت على عتبة قرن جديد، على عتبة
ارادة الحياة نفسها
حيث التمييز يرمي إلى الأفكار على طريقنا
طريق القوة الصامتة نفسها.
أيها المدافعون عن العالم سلام عليكم:
«حماة الديار عليكم سلام
أبت أن تذل النفوس الكرام»
أنت على عتبة قرن جديد
على عتبة ارادة الحياة نفسها

ابداع

قصة

إيناس التي أنكرتني

ياسين رفاعية

صحوت على رائحة تراب ندية تزكم أنفي. فتحت عيني، فواجهتني عتمة رطبة إلا بصيص نور خافتاً كالخيط يتسرب من أعلى، لم أستطع أن أحرك جثتي، لكن رأسي تحرر من الجثة فحركته يمنة ويسرة، ثم اكتشفت أنني في قبر وأن الأرض بكل ثقلها تنطبق عليّ، وانتبهت أنني عار من الملابس وملفوف بكفني.

---

* ياسين رفاعية: أديب وقاص من سورية، يكتب القصة القصيرة والنقد والدراسة الأدبية منذ الستينات. من أعماله: «الحزن في كل مكان»، «نهر حنان».

أوه . . ميت اذن أنا! متى مت؟ لا أعرف . لكن يبدو أنني مت منذ زمن قريب ، إذ أن جثتي مازالت سليمة ، غير أن قوافل النمل تزحف حولي وفوقي وعلى صدري ويدي وساقي . وثمة قافلة منه تزحف نحو القلب مباشرة ثم حول العينين . أوف ، يريد النمل أن يفترسني ، ولا أقدر أن أبعده عني ، كأنني موثق بالتراب ، وكأن الأرض كلها تندفع نحوي . قررت أن أقاوم وأخرج الى الحياة ، صممت ، فثمة أناس أحبهم تركتهم ، طفلتي ايناس ، أمي التي ليس لها سواي . زوجتي هربت مع عشيقها منذ سنين . تركتُ ايناس في سنتها الأولى ورحلت . ليس لايناس أحد يهتم بها . ليس لأمي من تستعين به بقية حياتها ، فكيف اذن مت؟ من نقلني الى هذا القبر الموحش؟ من لفّني بهذا الكفن المهترئ؟ من وسّدني التراب؟ .

استطعت بجهد أن أخلّص ذراعي من الكفن ، فرفعت قبضتي نحو سقف القبر وبدأت أدفع بكل قواي ذلك الحجر السميك الذي يفصلني عن الفضاء الرحب ، وقد أوحى لي ذلك البصيص أن الصحو يملأ الدنيا .

بعد كثير من المحاولات أزحت الحجر ، فانهال عليّ تراب رطب كثير . . وسرعان مااستنشقت الهواء ملء رئتي ، فدبت بي الحياة قوية وحيوية ، وببطء رحت أزيل التراب عن جثتي حتى انقشعت لعيني السماء بكل زرقتها الصافية . الشمس مائلة في الأفق لم تستقر في كبد السماء بعد ، إنه الصباح الباكر اذن . خلصت نفسي من حفرتي ثم صعدت لأجد نفسي وسط مقبرة شاسعة تحيط بها الأشجار ، مقبرة مجهولة لي ، لم أرها من قبل ، لم أمرّ بها ذات يوم ، إنها ليست المقبرة التي بجوار حيّنا الذي كنت أقيم به . مقبرة بعيدة ، لم أكن أعرف أن لأسرتي قبراً فيها . لفقت كفني على جثتي وتمشيت بين القبور أحاول أن أتذكر أين أنا دون جدوى .

اقتربت من كوخ في وسط المقبرة تظلله شجرة باسقة ، فانتبهت لرجل يقتعد كرسياً واطئاً ، ويستند إلى جذع الشجرة شبه غاف ، لاشك أنه حفار القبور . إنه نفسه ، فها هو رفشه الى جانبه ، وكذلك على ثيابه الغبار والتراب . إنه نفسه ولاشك ، حفار القبور .

اقتربت منه بهدوء، كدت اوقظه، غير أنني خفت أن يردني الى القبر. كانت عباءته السوداء مرمية الى جانبه، فاستللتها ووضعتها على كتفي ولففتها على جثتي، وأسرعت خارجاً. فتلقفتني الأحياء المحيطة بالمقبرة، وانتبهت للناس يذهبون إلى أعمالهم، والأطفال والتلامذة الى مدارسهم، فلم يكترث بي أحد.

رحت أتمشّى ملتفاً بتلك العباءة السوداء، حافياً، عاري الرأس. أردت أن أسأل أحداً كيف أصل إلى بيتي، فخشيت أن ينتبه أنني مجرد ميت خارج للتو من قبره.

أمضيت النهار كله أبحث عن بيتي، ثم انتبهت أنني اقتربت من حينا. هذه الشوارع أعرفها جيداً، كذلك هذه المحال التجارية، والمخازن، والأفران، وباعة المواد الغذائية. هاهو أبو زهير صاحب المخبز الذي اعتدنا أن نأخذ خبزنا كفاف يومنا من عنده، كان عادة، لمجرد اقترابي منه يلقاني بالترحاب والتحيات. وفوجئت أن الرجل رمقني بريبة شديدة، ولم يرد على تحيتي، بل عاد إلى زبائنه.

ابتعدت مستغرباً موقف الرجل، كنت في الأيام الماضيات عندما ألقي عليه التحية يبادرني بأحسن منها، وأحياناً يدعوني إلى قدح من الشاي، اعتقدت أن أبو زهير ربما يعانيْ من مشكلة، أو أن أحد الوشاة وشى بي سوءاً، قلت في نفسي: سأصلح الأمر ذات يوم.

مررتُ بالبقال أبو يوسف، اقتربت منه كعادتي كل مرة مصافحاً، فارتد الى الوراء، وبدت على وجهه معالم الخوف. صحتُ به: ماذا بك ياأبو يوسف... أنا جارك... هل نسيت جارك بهذه السرعة. التفت أبو يوسف الى داخل محله متشاغلاً ببضاعته، فابتعدت عنه ومشيت صوب بيتنا... سأعرف الآن من أمي سبب هذه المواقف.

بدأ الليل ينتشر من حولي والعتمة تملأ أزقة الحي، وتصورت الآن كم هي مفاجأة لأمي اذ تراني عدت. وكذلك طفلتي العذبة ايناس.

اقتربت من باب بيتنا ومددت يدي للمفتاح، ثم تذكرت أنني لا أرتدي ملابسي، بل كفني وعباءة حفار القبور، فرفعت يدي الى مطرقة الباب وطرقته ثلاثاً كما اعتدت دائماً كلما نسيت مفتاح بيتي. وسمعت خطوات ايناس تقترب، فخفق قلبي، اشتقت الى ايناس كثيراً، الى ضفيرتيها الشقراوين المشلوحتين على كتفيها بنعومة مذهلة. اشتقت الى وجهها المتورد وإلى كلماتها البريئة، وأخذت استعد كي أحملها بين ذراعي وأهمس لها: ها أنا أباك قد عاد ياحبيبتي.

فتحت ايناس الباب، ففوجئت أنها ترمقني باستغراب، أردت أن أناديها باسمها، أن أقول لها أنني أبوها، لكنها أغلقت الباب بسرعة، وسمعت خطواتها ركضاً وهي تنادي على أمي: جدتي... جدتي... هناك غريب بالباب.

رحت أدقّ باب بيتنا بعنف. وعندما فتح وجدتني أمام أمي، حاولت أن ارتمي على صدرها، فابتعدت فزعة وصرخت بي:

- ماذا تريد... من أنت؟

صحت:

- أنا ابنك ياأمي... أنا ابنك.

أجابت أمي بحزن عميق:

- لابد أنك معتوه.. ابني مات من زمان... مات من زمان.

صحت مجدداً:

- أنا هو ابنك ياأمي... انظري اليّ جيداً.. هذا الصباح خرجت من القبر وعدت.

صرخت بي:

- اذهب عنا أيها المجنون.. وإلا جمعت عليك رجال الحي.

كانت ايناس تتمسك بساق أمي وتنظر نحوي بفزع، فخاطبتها قائلاً:

- انظري الي ياحبيبتي.. أنا أبوك.. أنا أبوك.. ألم تتذكري.

أجهشت ايناس وهي تصيح: أبي مات من زمان.. أبي مات من زمان.

كشفت العباءة السوداء عن كفني لعل أمي تتذكر، فإذا بها تغلق الباب بعنف في وجهي وهي تصرخ: لابد أنك مجنون.. مجنون.. مجنون.

تلك اللحظة أدركت أني متُّ فعلاً، وأن أشياء كثيرة تتكسر في داخلي، وانتبهت لقوافل طويلة من النمل مازالت تنهش بي... فتراجعت خطوات، ثم رحت أعدو نحو المقبرة، فاذا بي أبلغها في دقائق معدودات. وماإن اجتزت سورها حتى تقدم نحوي حفار القبور وهو يصيح بي:

- كيف خرجت من قبرك أيها المعتوه... ألا تعرف أنك ميت من زمان.. من زمان؟!

عندما صرت بمحاذاته، أمسك بيدي كأنني طفل صغير، وقادني إلى قبري.. خلع عباءته عن كتفي، وترك عليَّ كفني. كان القبر أمامي قد أزيحت عنه الأتربة كمن ينتظر ساكنه القديم، نزلت اليه، واستلقيت فيه، وتركت الحفار يهيل التراب.

* * *

النفس الإنسانية أفكار وتأملات

محفوظ أيوب

النفس :

-١-

الانسان كائن حي، ككل كائن حي آخر، يتكون من مادة عضوية حية تنطلق منها طاقة نفسية نسميها الروح. ويشكل وحدة متكاملة لاتنفصل فيها العوامل المادية الكتلية عن العوامل الطاقية والروحية. وتتفاعل هذه الوحدة مع البيئة الطبيعية والاجتماعية التي تحيط بها.

* محفوظ أيوب : باحث وأديب من سورية، يكتب الرواية ويمارس الكتابات الفلسفية. من أعماله : «نبي نينوى» رواية، «حكمة من الشرق» فلسفة.

وكل مايتعلق بالانسان ويصدر عنه، يمكن تفسيره من خلال بنيته وبيئته وتفاعله معها وردود فعله عليها.

-٢-

النفس هي الصورة الداخلية للجسد تنعكس فيها كل صفاته وخصائصه، ومايطرأ عليه، وتؤثر فيه بدورها.

-٣-

لما كانت الحياة هي الهدف الأول لكل كائن حي، لذلك كانت الحاجة الأساسية الأولى للانسان هي أن يحافظ على حياته بما تحتاج اليه من طعام وشراب وملبس ومسكن وغيرها.

ولما كان استمرار هذه الحياة والمحافظة على النوع هو الحاجة الأساسية الثانية له، لذلك تكون ممارسة الجنس هي صاحبة الدور الثاني في حياته.

وتستمد الأمور الأخرى دورها وأهميتها من هاتين الحاجتين الأساسيتين. وما يبدو مخالفاً لهما يعود في نهاية التحليل اليهما والى الظروف المحيطة به.

وفي ظروف معينة قد تبرز بعض الأمور التي تهدد حياته أو استمرار نوعه مباشرة مما يجعلها تحتل الدور الأول في فترة معينة.. مثل انعدام الأمن والمرض والحرب والشر وانهيار القيم.. وغيرها. ويبرز دورها كثيراً عندما يتوفر مايلبي الحاجات الأساسية الأخرى ولو في حدودها الدنيا.

-٤-

لكي نفهم الانسان يجب أن نتذكر أنه كائن حي، له مقومات وخصائص الكائنات الحية الأخرى. ولكن حياته الاجتماعية تفرض عليه أموراً أخرى تجسدت في مانسميه الحضارة. وكل أسرار الانسان وحقائقه تكمن في عملية التكيف بين أصله الحيواني ومتطلبات الحياة الاجتماعية والحضارة التي بلغها، أي بين الطبيعة والمجتمع المتحضر.

ومن خلال عملية ضبط وتنظيم تلبية حاجاته وتفريغها حسبما تتطلب

حضـارته يمكن أن نفسر نفسية الانسان الحالي بجوانبها السلبية والايجابية، والمرضية والسليمة.

الجنس:

-١-

تتـوالد الكائنات الحيـة التي تتـألف من خلية واحـدة أو خـلايا قليلة بسيطة بواسطة الانقسـام المباشر الى كائنين مستقلين. ويبقى لديهـا نزوع الى الكائن الآخر الذي انفصل عنها، ويشكل الشطر الآخر منها.

وعندما تكونت كائنات حية عضوية معقدة بلغت الى مستوى الانسان دفعهـا هذا النزوع الى الاتصال الجنسي مع الكائن الآخر بواسطة الأعضـاء التي تكونت من عملية الانفصال، وتركت آثارها فيهـا، وربما كـانت آخر الأجزاء التي تم الانفصال بينها، وتختزن كل الخصائص الأساسية لكل من الكائنين، وصارت تتوالد منها. وتسمى الأعضاء الجنسية أو التناسلية.

وبقي لدى هذه الكائنات الحية نزوع الى الاتصـال، ونزوع آخر الى الاستقلال ترسخ بعد الانفصال ليتمكن الكائن الحي من التكيف مع وضعه الجديد. واكتسب خصائص مناسبة له، يتطلبها وضعه، وتنزع اليها عضويته وتكوينه.

وقامت الغريزة لدى الحيوانات بتنظيم الصلة بين هذين النزوعين. أما الانسان الذي يستخدم عقله أكثر من غريزته فيحتاج الى ايجاد صيغ للتوازن الصحيح بين النزوع الى الاتصال والنزوع الى الاستقلال تكون مناسبة للظروف والحضارة التي يعيش فيها، ليتمكن من المحافظة على ذاته ونوعه، وتكوين شخصية متكاملة مستقلة تستطيع أن تمارس الحياة الانسانية بكفاءة، وتحظى بالسعادة.

-٢-

لاشك أن للأمور الجنسية التي تحافظ على استمرار الحياة والنوع دوراً كبيراً في حياة الانسان، يأتي في أهميته بعد دور الطعام والشراب واللباس والمأوى وغيرها مما يحفظ حياته ويجعله أهم منه.

ولكن الدور المبالغ فيه الذي أعطاه فرويد له ناجم عن أن الناس الذين لاحظهم وعالجهم كانوا في غالبيتهم من الطبقة الغنية التي لم يكن توفير القوت لها يشغل حيزاً كبيراً من حياتها واهتمامها لتوفره لديها بكثرة، وهي الطبقة التي كانت تسمح لها امكانياتها المادية أن تعرض نفسها على أطباء النفس. ولذلك بدت له أهمية الجنس الذي كانت تفرض عليه بعض القيود التقليدية التي تجعل الرغبة فيه شديدة، بسبب تحريمه ومنعه، وتبرز دوره أكثر من الطعام والشراب واللباس المتوفر لديها كثيراً. وهذا ماأوحى لفرويد بالدور المجسم الذي أعطاه له. لأنه لم تتح له فرص كبيرة لملاحظة هذه الأمور لدى الطبقات الأخرى الفقيرة التي تخلق لها صعوبات توفير الطعام والشراب واللباس والمأوى ومايتعلق بها مشكلات نفسيه كبيرة جداً تفوق أحياناً دور العوامل الجنسية فيها.

وهذا القول لايعني أبداً التقليل من أهمية الجنس ودوره في المشكلات النفسية، بل يريد أن يشير الى الأمور الأخرى التي تلعب دوراً كبيراً فيها، يتجاوز دور الجنس أحياناً.

-٣-

كان الانسان كالحيوان يحاول أن يحقق اشباع رغباته الجنسية مع أقرب الناس اليه. ولكن هذا الأمر كان يثير ردود فعل من الأقرباء الآخرين الذين يؤثر على اشباعهم لرغباتهم الجنسية، ويحول دون تحقيقها حسبما يرضيهم، مما أثار الصراعات بين الأقرباء، وداخل الأسرة الواحدة، التي كانت تنتهي أحياناً بكوارث رهيبة، تولد الألم والندم له. لذلك قام الانسان خلال تطوره الحضاري بتحريم بعض صور الاشباع الجنسي مع الأقرباء، وحصرها في أشخاص معينين للتخلص من هذه الصراعات وآثارها.

وبقيت الغرائز والمشاعر الأولية موجهة الى حد ما نحو الاتجاه السابق، مما يفسر مشاعر الذكر نحو قريباته من الاناث، ومشاعر الأنثى نحو أقاربها من الذكور، التي تظهر بوضوح في بعض الأوضاع التي تسمح أو تتطلب ظهورها، ومن خلال بعض ماأصبح يسمى بالانحرافات.

كـمـا بقيت آثار هذا الصـراع بين رغبـاته الأولى وتحريمها تعـمـل في نفسه، وتندفع أحياناً في صور صحيحة أو خاطئة أو مرضية حسبما يكون مدى النجاح في معالجة هذه المسألة لدى كل فرد ضمن ظروفه الحضارية.

وقد استعار فرويد أسطورة أوديب وألكترا ليصف هذه الحالة، وعبر عن ذلك باصطلاح: عقدة أوديب وعقدة ألكترا اللتين تعبران في رأيه عن عشق الولد لوالدته، وعشق البنت لوالدها، حسبما ورد في أسطورة أوديب الذي تزوج والدته، وقتل والده دون علم منه بأمرهما. ثم سمل عينيه، وشنقت والدته نفسها. والكترا التي حفظت الود لوالدها، وسعت بمساعدة أخيها لقتل والدتها وعشيقها اللذين قتلا والدهما. مما أضفى على تفسير فرويد طابعاً خيالياً.

وأعتقد أن تفسير فرويد وأسطورة أوديب، كليهما ينطلقان من مصدر واحد هو الحالة البدائية التي لم يكن فيها محرمات جنسية. وفرضت هذه المحرمات فيما بعد لتفادي التنافس الشديد والصراع والقتال الذي كان يوفر الحصول على الجنس الآخر، ولاسيما بين الذكور. ويتولد الندم والألم مما كان يقع من جرائم. وهذا ماأدى الى التحريم بين الأقارب وفقاً لمتطلبات الحياة الاجتماعية والحضارة السائدة فيها، وتجنباً لبعض العواقب الوراثية.

وحبذا لو صاغ فرويد تفسيره بالأسلوب العلمي التطوري الحضاري الذي يضع المسألة في اطارها الصحيح ببساطة ودقة.

غريزة الحياة وغريزة الموت:

لما كان الانسان كغيره من الكائنات الحية قد نشأ من مادة متحركة تفاعلت في ظروف معينة، وشكلت الحياة، مما جعل هذه الكائنات الحية، ومنها الانسان، تبقى مشدودة بين قطبين: حالة السكون النسبي للمادة الجامدة أو الموت، وحالة الحركة أو الحياة، مما ولد نزوعاً متناقضاً نحو الموت والعودة الى حالة الاستقرار والسكون النسبي السابقة التي كانت فيها أصلاً، ونحو الحياة التي نشأت فيها حيث تشتد الحركة، وتوجد طاقة جديدة،

وتشكل تطوراً طبيعياً للحالة السابقة يدوم فترة محدودة. ومع أن النزوع نحو الحياة يكون هو الأشد لفترة معينة مادامت مقومات الحياة متوفرة بصورة مناسبة، فان النزوع الى الموت يبقى مترسخاً في طبيعته الأصلية. ويستمر الصراع بين هذين النزوعين المتناقضين من خلال الموت والولادة. ويتجلى النزوع الى الموت في الميل الى النوم والراحة، ويسمى: غريزة الموت. ويتجلى النزوع الى الحياة في الميل الى الحركة والعمل ويسمى: غريزة الحياة.

ويبقى الصراع بينهما محتدماً حتى تتحلل الحياة، وتعود الى وضعها السابق، الى المادة الجامدة، بالموت.

التركز على الذات:

-١-

حين يولد الانسان تكون جميع طاقاته متركزة على ذاته، وتسعى لتوفير حاجاته والمحافظة على حياته دون اعتبار لأي أمر آخر. وتسمى هذه المرحلة: مرحلة التركز على الذات. ثم لايلبث الطفل أن يشعر بوجوده في بيئة لها مطالب معينة. ويحاول تدريجياً أن ينفتح عليها ويراعيها ليحقق التوازن بين مطالب نفسه ومطالب العالم الخارجي، حتى يصل الى مستوى مقبول، وهذا مانسميه: مرحلة الغيرية، التي يوجه فيها الاهتمام الكافي الى غيره.

واذا لم يخرج الانسان لسبب ما من مرحلة التركز على الذات، وبقي متركزاً عليها، ينحرف نحو النرجسية أي (عشق الذات) في مشاعره، والى الأنانية في أعماله وتصرفاته. لأن اهتمامه بنفسه (بأناه) يتجاوز الحد السليم للمرحلة التي يكون فيها، وتتطلب منه أن يتنازل عن بعض ما لنفسه للآخرين، ليتوفر الانسجام المناسب لاستمرار الحياة الاجتماعية.

وقد يحدث انفتاح نحو غيره يتجاوز حدود التوازن العادي، ويؤدي

الى تقديم تضحيات كبيرة لأجل الآخرين، قد تصل الى حد التضحية بالذات في بعض الظروف والحالات الخاصة جداً.

-٢-

الذي لايحب نفسه لايستطيع أن يحب الآخرين. والذي لايحب سوى نفسه فقط لايستطيع أن يحب غيره أيضاً. والحب الناضج السليم ينطلق من حب الانسان لنفسه، وينفتح حتى يشمل الآخرين، ويقيم التوازن الصحيح بينهما.

الطبع:

-١-

لكل انسان بنية نفسية يرثها عن أهله، أو يكتسبها منهم ومن بيئته، وتترسخ تدريجياً منذ الصغر حتى تأخذ شكلها شبه النهائي في مرحلة البلوغ، وهي تحدد مساره في شتى مجالات الحياة، وقلما تتغير كثيراً بعد ذلك.

-٢-

هذا التكوين النفسي للانسان يتألف من استعدادات وخصائص معينة، ويتكون بتأثير وراثته وبيئته وتربيته. ويأخذ اتجاهات محددة يصعب تبديلها فيما بعد، إلا ضمن حدود ضيقة، مع أنه يستمر في التبدل مدى الحياة.

ونسمي الاستعدادات والخصائص الموروثة والمترسخة منذ الصغر: (الطبع). ومايتعلق منها بالجوانب الانفعالية والعاطفية نسميه: (المزاج). وهي جوانب في الشخصية.

ومن خلال هذا الطبع تمر كل المؤثرات التي يتلقاها الشخص، وتصدر كل التصرفات حاملة معها طابع صاحبها.

ولذلك يكون طبع الانسان والظروف أو البيئة المحيطة به وجهوده هي مايحدد قدره.

-٣-

يتكون الطبع أو الطبيعة البشرية لشخص ما من تراكم مورثات أجيال

كثيرة اكتسبتها من تفاعلها مع بيئتها منذ كانت خلية واحدة، ومازالت هذه العملية مستمرة.

ولتبديله في اتجاه مالابد من التأثير على هذه الاستعدادات المكتسبة الموروثة، وعلى البيئة التي يعيش فيها، وفق مبادىء وقواعد وخطط معينة.

-٤-

يحدد الطبع لانسان ما طريقاً يسير عليه في حياته. وان حاد عنه حيناً يعود اليه أحياناً ليستأنف مسيرته. وقلما يستطيع أن يخرج عنه بعيداً وطويلاً، لأن ذلك يتطلب وعياً كبيراً ومقدرة هائلة لاتتوفر إلا لقلة من البشر.

-٥-

الطبع يغلب التطبع مع أن الطبع يتبدل الى حد ما ضمن اطار الطابع العام لصاحبه. ويمكن أن يصبح هذا التبدل أكبر وأسرع حين تتوفر له ظروف مناسبة، ومشاعر معينة، ومستوى عال جداً من الوعي والمقدرة، وزمن كاف لاستيعابه. ويتحول الى مايشبه الطبع الذي يترسخ مع الزمن، ويحدث تبدلات عضوية، ويصبح (طبعاً) لدى الأجيال القادمة.

-٦-

كأن البشر آلات تسير وفق برامج وضعتها بنيتها وبيئتها وتربيتها، لتوجه سيرها.

-٧-

يمكن أن نعرف طبع انسان ما من تكوينه الجسمي اذا كنا نعرف كيف نقرأه، ونأخذ بعين الاعتبار البيئة التي تحيط به، وبعض الحركات والتصرفات التي تصدر عنه.

-٨-

ملامح وجه الانسان وجسمه تشير الى كثير من خصائص طبعه ونفسه.

الشخصية:

-١-

كان الفرد الانساني في المجتمعات البدائية يكاد يكون مجرد خلية في جسم جماعته التي تسيطر عليها الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لتلبية حاجاته الأساسية.

وبتأثير هذه العوامل الاقتصادية والاجتماعية والنفسية السائدة وعمل الفرد الذي بدأ يزداد دوره مع تقدم الزمن، وينمو دماغه، ويكبر وعيه، سار الفرد الانساني نحو التفرد، وتكوين الشخصية المستقلة.

-٢-

تتكون للفرد شخصية متميزة بتأثير خصائصه الجسمية والنفسية وبيئته الطبيعية والاجتماعية. وهي وحدة متكاملة لهذه الخصائص الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية والأخلاقية، ولجوانبها الشعورية واللاشعورية، والموروثة والمكتسبة التي تميزه عن الآخرين. وبالتالي يكون له طابع خاص ودور معين، يتجلى منذ مطلع حياته، ويكاد يكون مستمراً طوال عمره. ولاتحدث تبدلات واسعة فيها اذا لم يحدث تبدل في التكوين الجسمي أو النفسي أو الظروف والبيئة المحيطة به.

-٣-

ينجم هذا الطابع المميز للشخصية من التكوين الخاص للشخص ووراثته وبيئته وتربيته. ويمكن أن يتغير بتأثير الظروف والوعي والجهود المبذولة ضمن حدود معينة، قد لاتصل الى حد يصبح فيه مختلفاً تماماً عما هو عليه.

-٤-

أي الشخصية هي الصورة أو الوحدة المنظمة المتكاملة لجميع جوانب الفرد الشعورية واللاشعورية، والجسمية والنفسية حين يشعر بتميزه عن الآخرين.

-٥-

أو الشخصية هي تكامل جميع خصائص الفرد الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية والأخلاقية في وحدة تميزه عن غيره.

-٦-

وغالباً مايكون للانسان محور تتركز حوله شخصيته، وتنطلق منه كل تصرفاته بجيدها وسيئها، ويحدد له نمطاً معيناً من الشخصية.

-٧-

بقدر اختلاف أشكال الناس وملامحهم تختلف طباعهم وشخصياتهم حتى يكاد أن لايتشابه اثنان منهم.

-٨-

ماأكثر نماذج البشر، ويكاد أن يكون كل فرد نموذجاً قائماً بذاته. ومع ذلك يمكن تصنيفهم في نماذج عامة رئيسية.

-٩-

في كل جماعة أومجتمع يوجد نموذج عام من شخصيات البشر، له صفات وخصائص معينة يتصف بها أفراده بنسب مرتفعة جداً، مع أنها تختلف من واحد الى آخر ولكن قلما يكون هذا الاختلاف كبيراً جداً، إلا في حالات قليلة أو نادرة.

-١٠-

كأن الانسان مزيج من الذئب والحمل، ويأكل اللحم ويأكل النبات. وتختلف نسبة هذا المزيج لدى الناس وفي بعض المراحل. وينبغي أن يعرف متى وأين وكم وكيف يكون حملاً أو ذئباً، وماهي النسبة المطلوبة من كل منهما، ليعرف كيف يتصرف جيداً في حياته.

الأحلام:

-١-

يختزن الدماغ بصورة عضوية، وفي خلايا خاصة كل المؤثرات التي

يتلقاها منذ تكونه مع مايرثه . وهو يعمل ككل غير منفصل إلا في بعض الحالات أو القدرات الخاصة . ويستدعي مايحتاج اليه منها في حالة صحوه ووعيه ضمن حدود طاقته ومدى سيطرته على حركتها المستمرة وتشابكها وارادة صاحبه .

وأثناء النوم أو الاسترخاء أو الارهاق أو غير ذلك من الحالات التي تخف فيها رقابة العقل وسيطرته على تحركاتها تظهر في أحلام النوم وأحلام اليقظة والهلوسات ومايشابهها ، بتأثير المؤثرات الموضوعية والذاتية للشخص وتطلعاته ، وبصورة عفوية نسبياً ، وفق منطق خاص بها ، هو منطق الحياة التلقائية الذي لايخضع كلياً لمنطق العقل الواعي الذي يضعف تحكمه بها . وتأخذ هذه الأشكال المتنوعة جداً ، التي هي ظهور وتعبير شبه تلقائي عن المؤثرات التي يتلقاها العقل وتفاعلها معه . ولاسيما مايتعلق منها بالمحافظة على الحياة ، والمحافظة على النوع واستمرار هذه الحياة .

والأمور الجنسية جانب واحد منها . وهي تتفاعل وتظهر دون ترتيب أو تركيب منطقي ، وانما حسب تواجدها وتحركها وتشابكها وتفاعلها والمؤثرات التي تثيرها ، مما يعطيها أحياناً أشكالاً غريبة في أحلام النوم وأحلام اليقظة والهلوسات أيضاً .

- ٢ -

تعبر الأحلام عما يعانيه الحالم لتلبية حاجاته في شتى المجالات والأوضاع . وتظهر هذه المعاناة من خلال مالديه من موروثات وخبرات وأماني أو تطلعات بعد أن ينحسر الضغط عنها أثناء النوم أو اليقظة . وتصبح أكثر حرية في التعبير عن نفسها . وتكون رموزاً ودلالات تشير اليها من بعيد أو بصورة غير مباشرة أو مباشرة أحياناً ، مما يعطيها هذا الشكل الذي يختلف الى حد ما عما يحدث في حالة اليقظة الواعية العادية .

كما أن بعض القدرات كالتذكر والتخاطر وغيرها قد تستفيد من حالة الهدوء أثناء النوم والاسترخاء وسكون غيرها من القدرات والفعالية العامة

لدى النائم أو المسترخي لتصبح أكثر قوة وشدة ونفوذاً وفعالية، مما يجعلها قادرة على رؤية مالاتستطيع أن تراه وتحسه أثناء اليقظة. وقد تكون لهذه الرؤية أبعاد مستقبلية تنبؤية في حالات قليلة جداً.

ولابدّ من بعض التفسيرات الخاصة لبعض الحالات الجزئية أو الخاصة التي تبدو غير متناسقة مع هذا التفسير العام. مثل أن الحالم لايحلم أحياناً بما كان مشغولاً به بشدة، كالعاشق الولهان الذي لايأتيه محبوبه في الأحلام. لأنه يكون قد استنفد كل مالديه حوله أثناء اليقظة لشدة اهتمامه وانشغاله به، ولاحاجة لأن تقوم الأحلام بأي دور آخر فيه.

والكابوس هو حلم يكون انعكاساً وتعبيراً أثناء النوم عن الحالات الحادة جسمياً أو نفسياً أو الاثنتين معاً التي يعاني منها صاحبه بشدة، وتخضع لقواعد الحلم المذكورة أيضاً.

- ٣ -

الأحلام هي استجابات عقلية خيالية شبه عفوية لعوامل داخلية أو خارجية تثير صوراً وأفكاراً ومشاعر موروثة أو مكتسبة يختزنها الدماغ. وتظهر لتعبر عنها في حالة الاسترخاء أثناء النوم أو اليقظة، حين تخف درجة الرقابة والسيطرة عليها ونسبة تنظيمها، مما يجعلها تأخذ أشكالاً غير مترابطة منطقياً تماماً، وبعيدة عن الواقع أحياناً. وتختلف الى حد ما عن استجاباتنا العقلية الخيالية في حالة اليقظة الواعية. وقد تصاحبها ظواهر حسيةوحركية وانفعالية أيضاً.

- ٤ -

الأحلام، وأحلام اليقظة، والتداعي الحر والمقيد، هي عمليات ذهنية لها آلية واحدة. تقوم على انسياب الصور والأفكار والمشاعر في الذهن بصورة تلقائية تقريباً، استجابة لمنبه داخلي أو خارجي يثيرها. وتختلف الواحدة منها عن الأخرى بدرجة الوعي فيها ونسبة التحكم بها حسب التسلسل المذكور في بداية هذه الفقرة.

الحكاية الخرافية(١)

تأليف: تيريزه بوسر

ترجمة:
د.محمود فؤاد نعناع

ليست الحكاية الخرافية في الحقيقة نوعاً أدبياً، وإنما هي نوع شعبي، وهذا يعني أنه في الغالب موروث مشافهةً، فمؤلفه غير معروف ونصه متغير. وتشذ الحكاية الخرافية الفنية عن القياس، حيث يكون مؤلفها معروفاً ونصها مثبتاً.

---

* د. محمد فؤاد نعناع: باحث من سورية، يهتم بالدراسات الأدبية والتاريخية، له عدد من الدراسات المقارنة في مجال التاريخ وعلم الأسطورة.

إنّ البحث العلمي الأدبي للحكاية الخرافية يقف إذن أمام صعوبة أوليّة، وهي وجوب جمع مادتها قديماً وتسجيلها في كتاب أو على شريط تسجيل. ويبدأ هذا البحث بالجمع الكبير الأول لمادة القصة الشعبية في ألمانيا، بالأخوين غريم Grimm، وإن مفهوم الحكاية الخرافية، كما نفهمه اليوم، يوجد بدايةً منذ نشرهما كتاب «حكايا الأطفال والمنزل الخرافية» Kinder - und Hausmärchen (1812-1815). إنه مفهوم ألماني خاص مطبوع بالرومانسية، ولا تقف كلمة مطابقة في اللغات الأوروبية الأخرى بجانبه. لذا كثيراً ماتُستعار كلمة الحكاية الخرافية Märchen في بحث الحكاية الخرافية الأوروبي على أنها كلمة دخيلة.

إنّ كلمة Märe «خرافة» (في الألمانية الفصحى القديمة mári، وفي الألمانية الفصحى الوسطى maere) تعني Kunde «خبراً» أو Bericht «نبأ». وقد وُجدت صيغة التصغير merechyn في القرن الخامس عشر، وسرعان ماحصلت على معنى قليل القيمة، لأنها ترمز إلى حكاية مختلفة تناقض الأنباء الحقيقية.

ماهي الحكاية الخرافية الآن؟ «نفهم تحت اسم الحكاية الخرافية منذ هيردر Herder والأخوين غريم Grimm قصة موضوعة بخيال شعري، وخاصة من عالم السحر، حكاية تستحق الاعجاب، ولا ترتبط بشروط الحكاية الواقعية...» (Polte-Polivka ص٤). «الحكاية الخرافية شكل فني للقصة التي تستخدم إلى جانب موضوعات مشتركة موضوعات عجيبة على نحو محدد لتطور الحدث» (Wesselski ص١٠٤). «الحكاية الخرافية قصة مغامرة عالمية مكتوبة بأسلوب خاطف». (Lüthi, Volksmärchen ص٧٧). وإن كان التعريف الأخير يقصد أسلوب الحكاية الخرافية في الدرجة الأولى فإن التعريفين الأولين يشتملان على وجه الروعة الذي يصدق على الحكاية الخرافية في المعنى الضيق، وعلى الحكاية الخرافية السحرية، إلا أن المفهوم يمكن أن يُستَعمل في المعنى الواسع أيضاً.

وتحتوي كل من مجموعة الأخوين غريم Grimm، والمجموعة الكبيرة التي نشرها فريدريش فون لين Friedrich von Leyen بعنوان «حكايا الأدب العالمي الخرافية» Märchen der Wesliteratur إلى جانب الحكايا الخرافية الأصلية الحقيقية نصوصاً نود أن نطلق عليها اسم «أساطير Sagen» و«خرافات Legenden» و«أحاج Rätsel» و«حكايا الحيوان Tiergeschich-ten» و«أحاديث غريبة Schwänke» ومايشبه ذلك. وتُوجد أيضاً حكايا خرافية قصصية، لا تشتمل على حوادث فوق الطبيعة، مثلاً «الملك دروسيل بارت König Dosselbart»، وأخيراً الحكايا الخرافية المسببة ätiologische Märchen التي توضح نشوء صفات محددة أو ظواهر معينة نحو (سمك موسى Die Scholl، وأولاد حواء المتباينين Die Ungleichen Kinder).

هذه النصوص معاً عاشت على الأقل بين الآونة والأخرى في الرواية الشفوية وتأثرت بها. ومما لاشك فيه أن الحدود مع القصص الشعبية الأخرى غير واضحة، ولاسيما مع الأسطورة Sage. بيد أنه تُوجد علامات معينة من حيث محتوى النوع وتعبيره، وهذه العلامات نموذجية لنوع الحكاية الخرافية، كما أنها تحدده مقابل أشكال متشابهة.

إن «النموذج الأعم الذي تقوم عليه الحكاية الخرافية الأوروبية يكمن في الصعوبات والتغلب عليها» (Lüthi, Märchen ص٢٨). والشخص الرئيسي الذي يجب أن يذلل التنازع لدى ذلك ليس المعبود الثاني بعد الله كما في علم الأساطير Mythologie، وليس قديساً كما في الأسطورة Leg-ende، وإنما هو انسان، وغالباً مايكون فقيراً ومظلوماً، نحو: عامل متجول فقير، أو ربيبة (بنت زوج أوزوجة) تعامل بسوء، أو الولد الأصغر الذي يُنْظَرُ إليه على أنه غبي.. وغالباً مايُوَفَّق إلى حل المهمة أو التنازع بمساعدة قوى جبارة، أو الآخرين إنْ شئت أنْ تسميهم، وهم الذين يقفون إلى جانب البطل أو البطلة، أو يعطونه أشياء تتصف بالقوة السحرية مثل (خاتم الأماني، أو الحصان السحري...). ويمكن أن يكون الآخرون عجائز أو

سحرة أو أقزاماً أو حيوانات مساعدة، وهم يلعبون دوراً خاصاً في الحكاية الخرافية، ويكون شكلهم ليس محدوداً. ويبرز منافس ضد البطل مثل: زوجة أب شريرة، أو أخ حاسد أو أخت حسودة، أو لصّ خطير، أو ملك قاسي القلب، أو أميرات غامضات، كما يظهر أشخاص من خارج العالم الإنساني كالمشعوذات أو العمالقة أو الشياطين أو التنانين. وفيما عد ذلك فإنّ ترسانة الأشخاص صغيرة، بحيث إنه يُسمى فقط الأشخاص الذين هم ضروريون للأحداث، وهم يختفون بمجرد عدم استخدامهم. إنّ المنافس الشرير يلقى حتفه أو يعاقب بالموت، بيدَ أنَّ البطل يحظى بالسعادة والثروة، وهذه السعادة تلخص في الغالب بصيغة قصيرة نحو (زواج الأمير أو الأميرة، المملكة، الثروة).

وتُوجد عناصر شكلية أيضاً في أسلوب الحكاية الخرافية، وهذا ينطبق على البداية والنهاية نحو: («كان ياماكان». . . قديماً عندما كانت الأمنية تُسْتَجاب. . . «وإذا لم يكونوا موتى فإنهم مايزالون على قيد الحياة»). وبالمثل كما في الأبيات المقفاة المنثورة التي كثيراً ماتحوي على معنى التضرع، نحو: «شجيرة، ارتجي، واهتزي، وارمي عليَّ ذهباً وفضة».

إن الحدث يكون ذا اتجاه واحد لترتيب الشخصية الرئيسة ولكنه مقسم تقسيماً كبيراً. أما المحسنات فهي الإعادة والتصعيد، كما أنّ صيغ التركيب من العددين الثاني والثالث هي التي تحدد الحكاية الخرافية، فهي يمكن أن يكون لها بطلان (هينزل وكريتل Hänsel und Gretel)[٢]، أو تكون مبنية في جزأين، إمّا من خلال حدث متواز كما في (السيدة هولي Frau Holle) أو من خلال صراع متجدد بعد أن يُذَلَّل الأول مثل: (الخطيبة المنسية Ver-gessene Braut). كما أن الرقم ثلاثة مهم كصيغة بناء: ثلاثة أخوة يرحلون، ثلاث أخوات يذهبن للرقص، ثلاث مهمات يجب أن تُحَلَّ، المهمة الأخيرة منهن هي الأصعب (Olrik ص٧). ومن الأرقام المهمة الأخرى السبعة والإثنا عشر، وهما يحملان في الأصل معنىً سحرياً،

ولكنّ لوتي Lüthi يقرّبهما بمعنى شكلي فقط (Volksmärchen ص٣٣).

لقد أشار لوتي Lüthi إلى أسلوب الحكاية الخرافية السامي المجرد، فهي غير مرتبطة بمكان وزمان كالأسطورة Sage، إنها بخلاف العالم الأحادي البعد، وهذا يعني أن العالم الدنيوي والعالم الأخروي يختلطان بلا ربط. ولا يوجد فزع إلهي كما في الأسطورة، أما المشاعر فهي تُصَوَّر من خلال الحدث، كما أنّ تصوير البشرية يكون مسطّحاً وليس فردياً وسيكولوجياً، وفضلاً عن ذلك ينقص في الحكاية الخرافية - على عكس الأسطورة - مفهوم الفناء: فعندما استيقظت Dornröschen[٣] بعد مائة سَنة كان كل شيء، كما في السابق، فالزمن توقف. إنّ بطل الحكاية الخرافية منعزل، وغالباً مايتجول وحيداً في العالم، ولكنه، لذلك تماماً، مترابط مع الكل، قادر على الاتصال مع كل الذين يقابلهم. إنّ ماتصوّره الحكاية الخرافية سام، وهذا يعني أنه مرتفع ومفرّغ في وقت واحد، كما أن أسلوبها مجرد ومكشوف.

إن لوتي Lüthi يبدأ في أبحاثه الأسلوبية، بلاشك، من نموذج مثالي، وهي لا تنطبق على كل حكاية خرافية مجردة، ويتسم منهجه بعلم وصف الظواهر، وهو ليس تاريخياً. ومن المؤكد أن نوع الحكاية الخرافية لقي تغييرات خلال القرون أيضاً.

إنه لا يُتَمَكَّنُ من كتابة تاريخ الحكاية الخرافية، وعلى الأكثر بعض الحكايا الخرافية المفردة ورواياتها. ويمكن أن تقوم افتراضات فقط حول بدايات الحكاية الخرافية، فبعض الباحثين يفترض أنه وُجدت حكايا خرافية في العصر الحجري الحديث (Peuckert) وبعضهم الآخر يحدد نشوءها لأول مرة في العصور الوسطى (Wesselski). ويذكر أنها من المؤكد كانت تُروى بين الشعب دائماً، ولكن عما إذا كان الأمر يتعلق بحكايا خرافية أو أساطير Sagen، Mythen فإنه لا يمكن التثبت. ومن الجدير بالذكر أنه يجب أن نفرق بين الحكاية الخرافية وموضوعات الحكاية الخرافية التي يمكن أن تُثْبت

في ملحمة جلجامش البابلية (٢٠٠٠ق.م)، وفي التوراة: (وَضْعُ موسى في صندوق صغير، ورسالة الموت من أورياس...). وقد رُويت قصص تحتوي على موضوعات الحكاية الخرافية من مصر القديمة أيضاً (١٢٥٠ق.م) من ذلك تطابقُ واحدة مع حكايتنا الخرافية (حكاية الأخوين الخرافية Zweibrüdermärchen) على وجه الإجمال. ومما لاشك فيه أن هذه كانت نصوصاً دينية، وليست قصصاً شعبية، وإن توجَّب أنْ كانت هذه موجودة فإنَّ المرء لا يقدر قيمة تدوينها، كما هو الشأن في العصور القديمة اليونانية والرومانية. إن موضوعات الحكاية الخرافية توجد لدى هوميروس Homer (العملاق بوليفين Der Riese Polyphen) ولدى هيرودوت (كنز رامبسينيت Der Schatz des Rhampsinit) ولدى أبوليْجوس Apulijus.

وتوْجد خرافات غريبة في الأدب اللاتيني في العصور الوسطى، مثلاً: Unibos التي تطابق الحكاية الخرافية التي تردلدى الأخوين غريم Grimm بعنوان Das Bürle[٤] كما توجد موضوعات الحكاية الخرافية في فن القصة الشعري الألماني الفصيح والفرنسي في القرون الوسطى، غير أن الشواهد الأدبية على الحكاية الخرافية النثرية وُجدت أول ماوُجدت في القرن السادس عشر، نحو (Das Erdkühlein، وهي إحدى روايات الخرافة المسماة بـ Aschenbrödelmärchen)[٥]. ويذكر لوتر Luther حكايا خرافية في خطبه، وكانت هذه الحكايات في مجموعات الوعظ في عصر الباروك متضمنة غايات تعليمية.

إنَّ مجموعات الحكايات الشعبية والقصص المنشورة في ايطاليا في القرن السادس عشر والسابع عشر مثل (Basil, Straparola) والفرنسية من Perrault (1696-1697) تتضمن مواد وموضوعات من الحكايا الخرافية الشعبية، وبلاشك كانت تُعالَج أدبياً في ذوق العصر. وقد غُمرت فرنسا وفيما بعد ألمانيا في القرن الثامن عشر بفيض من الحكايا الخرافية السحرية الخيرة التي توجة موسيوس Musäus ضدها بحكايا الألمان الشعبية

(١٧٨٢). إن هذا العنوان يضلّل، فعلى الرغم من أنّه عالج مواد شعبية فإن الأسلوب والموقف الفكري لم يناسبا الحكاية الخرافية الشعبية. وبقي الأمر على هذا النحو حتى سعى الأخوان غريم Grimm بإعادة الموروث الشعبي بصدق، وقد أكّدا على كل حال في مقدمة الطبعة الأولى ١٨١٢ قائلين: «اجتهدنا أن تُدْرك هذه الحكايا الخرافية هكذا أصلية قدر الإمكان... ولم يُوجد سبب لأنْ ينظم الشعر إضافة إلى ذلك أن تُجَمَّل أو تُغَيَّر. وقد احتوت الطبعة التالية توسيعات وتنقيحات أسلوبية تابعها ڤيلهيلم غريم Wilhelm Grimm فيما بعد. وهكذا نشأت حكايا خرافية مسجلة توسطت بين الموروث الشفهي والعمل الأدبي. ويمكن القول: إنه على الرغم من كل التغييرات الأسلوبية للنماذج فإنّ ولاء مراجع الأخوين غريم Grimm في المحتوى كبير جداً بحيث إنّ مؤلفها استطاع أنْ يصبح بداية انطلاقة لبحث الحكاية الخرافية المقارن (Röhrich, Märchen ص٣٠٢). وقد أصبح مؤلَّفهما مثالاً يحتذى لمجموعات الحكاية الخرافية الألمانية الأخرى والأوروبية في القرن التاسع عشر أيضاً، وطُوِّر البحث القصصي في القرن العشرين بحيث إن مجموعات الحكاية الخرافية العامية كانت تستخدم أساساً. وبلاريب فإنه لا توجد حضارة قصصية في عالمنا الذي يعتمد على الصناعة، ذلك أن صناعة الهزل والاسطوانات استولت على الحكاية الخرافية، وقد أبرزت التصحيحات النقدية والتقاليد الهزلية البعد عن الحكاية الخرافية.

لقد عالجت نظرية الحكاية الخرافية أول ماعالجت سؤال نشوء الحكاية الخرافية ورواياتها، وتتلخص جوانبها الرئيسة فيما يأتي:

١ - نظرية الأخوين غريم Grimm الهندوجرمانية، فقد نظرا إلى الحكاية الخرافية على أنها بقايا الأساطير القديمة المشتركة لكل الشعوب الهندوجرمانية التي توارثتها جيلاً بعد جيل الوقت الحالي. (نظرية الوراثة).

٢ - نظرية تيودور بينفي Theodor Benfey الهندية، فقد رأى في

الأثر الهندي پانتشارتانترا Pantschatra (مجموعة قصصية هندية تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد) مصدراً رئيساً لحكايانا الخرافية، وافترض رحلة من الهند إلى أوروبا عبر وساطة أدبية فارسية وعربية (نظرية الرحلة).

٣ - نظرية علم السُّلالات والأجناس، وتبدأ من تساوي بناء النفس الإنسانية في أطوار تَكَوّن معينة، وتشرح بذلك نشوء حكايا خرافية شبيهة في أماكن مختلفة من الأرض منفصلة بعضها عن بعض. (نظرية النشوء والارتقاء).

٤ - الطريقة الجغرافية - التاريخية التي تتابع موروث الحكاية الخرافية المفردة وتطورها وتكوّن ضروبها. وهذه المدرسة مُسماة بالفنلدية حسب مؤسسيها أنتي آرنيه Antti Aarne وكارله كروهن Kaarle Krohn، وقد وَضعت جدولاً للنماذج جُمعت فيه الروايات لكل نموذج من الحكاية الخرافية مثل (6) (Aschenbrödel, Dornröschen, Tiorbräutigam) وأعد فيه نموذج أولي. هذا وإن اعتُرض على هذا النموذج الأولي، وعلى مبادئ مقدمة الجدول، فإنّ جدول النماذج لبحث الحكاية الخرافية الذي بدأه آرنيه Aarne وتابعه ستيث كومپسون Stith Thompson لا يُستغنى عنه.

لقد قدم اندريه جوليس André Jolles بداية جديدة لبحث الحكاية الخرافية التي نظر إليها على أنها شعر الطبيعة بمعنى يعقوب غريم Jacob Grimm، وحددها بالبساطة، وهذا يعني بالشكل ماقبل الأدبي الذي يتم لديه تخيّل عمل عقلي معين في اللغة، وهذا العمل العقلي يحدده على أنه «الخلق الساذج»: التوقع، كما ينبغي أن يكون في العالم. (Jolles ص٢٠٠) هذا وعلى الرغم من أنّ البحث لا يعتقد اليوم كثيراً بشعر الطبيعة الذي قام من نفسه، وإنما يسمي أحد الشعراء للحكاية الخرافية، وإن كان مجهولاً، فإن جوليس وجّه بلاشك دراسة الحكاية الخرافية من البحث عن المادة والموضوع إلى جوهر الحكاية الخرافية.

وقد حلل الروسي فلاديمير پروپ Vladimir Propp حكايا خرافية

سحرية بالاعتماد على طرق بنائية، في وقت واحد تقريباً لتحليل جوليس Jolles.

وقد مارس مؤلَّف بروب Propp (الذي ترجم أولاً إلى الانكليزية عام ١٩٥٨ وإلى الألمانية عام ١٩٧٢ تأثيره بشكل جوهري في بحث الحكاية الخرافية الانكلسكسوني والألماني بوقت متأخر. ويقدم بروب النظرية الآتية: «تكوِّن الحكايا الخرافية السحرية كلها بالنظر إلى بنائها نمطاً وحيداً». (Propp ص٢٩)، ويرى أن طريقته تبحث في الشكل (علم بناء الكلمة)، وكما أبرز غوته Goethe النبتة الأولى، فإنه يريد أن يبرز الحكاية الخرافية الأولى. ويُحدِّد بناء الحكاية الخرافية حسب بروب من خلال أفعال ثابتة يقوم بها أشخاص مختلفون. إن النقص وسد النقص، المهمة وحلّها حسب بروب أساسيان في بناء الحكاية الخرافية السحرية.

هذا وإن كان بروب قد سأل عن البناء في الحكاية الخرافية فإنَّ لوتي Lütti سأل عن أسلوبها (انظر ماسبق ص٢). ويُشار إلى أنّ دارسي العادات الشعبية يبحثون العلاقات التي تملكها الحكاية الخرافية بالحقيقة أو التي ملكتها. «وتشير الحكاية الخرافية الحالية إلى فكرة مبكرة عن العالم وتصوراتها الايمانية» (Röhrich, Märchen ص٢٩٩). وتُثْبت في الحكاية الخرافية بشكل سام تصورات قديمة مثل الإيمان بقوى روحية، والإيمان بقوى مافوق الطبيعة والطوطمية، والمشاركة السحرية (الشعر أو قطرات تحمل قوى سحرية، كما في حكاية Die Gänsemagd خادمة الاوزات) وتصورات مقدسة وطقوس الخطبة وتقاليد قانونية. وتُوجد في موضوعات الحياة الأخرى (رحلة إلى الآخرة، أو مايُسَمّى رحلة العالم الثاني) حالات متوازية مع طقوس التعميد المنتشرة لدى كل الشعوب البدائية التي كانت مرتبطة بتصور الموت وإعادة الميلاد.

ويقدم بحث الحكاية الخرافية المتصف بسيكولوجية اللاشعور تفسيراً آخر مطابقاً للأحداث فيها، ومن أجله تَكُوْنُ رحلة أبطالها إلى الآخرة حواراً

مع اللاشعـور المناسب . وإن أبطال الحكاية الخرافيـة يتطابقـون مع أجـزاء الشخصية . فالحكاية الخرافية تظهر إذن إمّا عملية نضج أثناء زمن سن البلوغ أو نضجاً نفسياً للذات في زمن منتصف العمر . فموت المنافس يُعدُّ تغلباً ضرورياً للجوانب السلبية للشخصية ، وسيكولوجيات اللاشعور تبرز أيضاً معنى استقبال الحكاية الخرافية من أجل تطور الصبي الناشئ . ويرى بتلّهايم Bettelheim في الحكاية الخرافية وسيلة مساعدة للعثور على هوية الناس الصغار (صغار السن) (Bettelheim ص٢٧ وصفحات أخرى) .

ويبين تفسير الحكاية الخرافية الاجتماعي جانباً آخر منها ، ذلك أنّ الحكاية الخرافية الشعبية لا تتصف بما يتصف به علم الشعوب البدائية ، فهي مفهوم اجتماعي قبل كل شيء . ومهما يُوَدّ أنْ يُقال في نشأة الحكاية الخرافية فإنّ حامل الروايات الشفوية هو الشعب البسيط ، وقصاصوه ينتمون غالباً إلى الطبقة الدنيا (Röhrlich, Märchen u.Wirklichkeit ص٢٠٧) . وبناء على هذه الحقيقة يسأل بحث الحكاية الخرافية الاجتماعي عن المستوى النقدي والاجتماعي ، وعن الوظيفة الاجتماعية للحكاية من أجل القراء والمستمعين .

إنّ اللمسات الخيالية في الحكاية الخرافية أكّدها إرنست بلوخ Ernst Bloch في مبدأ الأمل Prinzip Hoffnung ، واعتماداً على ملاحظاته البناءة حللت كريستا بورغر Christa Bürger حكايا خرافية على أنها متحللة متحررة ، بخلاف الأسطورة Sage التي تصور العالم على أنه لا يتغير . وقد لُخصت المعادلات المختلفة لبحث الحكاية الخرافية الاجتماعية ووُسّعت من قبل تسيبس Zipes في كتابه (Breaking the Magic Spell 1979) فهو يرى في الطبيعة المتحررة للحكاية الخرافية أن النفوذ السحري يُحطّم من خلال البطل ، وبهذا تكشف القوى لدى المتلقي ، تلك التي يستطيع الإنسان بمساعدتها أنْ يتغلب على حياته . وهذه الوظيفة حسب تسيبس هُددت وحُددت من خلال التشخيص الأدبي والتحويلات التي اكتسبتها الحكاية

الخرافية الشعبية من خلال الأعيان والطبقة الوسطى، ولكن قبل كل شيء من خلال الوسطاء العصريين الذين أصبحت بضاعة من خلالهم.

إن المحاولات المختلفة لتفسير الحكاية الخرافية التي أمكن رسمها في خطوط عريضة وبشكل قصير، تُظهر غموض ظاهرة الحكاية الخرافية، وهذا الغموض مصدره الحقيقة أن الحكايا الخرافية ليست شكلاً قصصياً واقعياً وليست مجازياً، وإنما هي شكل قصصي رمزي لا تُحلّ صوره حلاً معنوياً مجرداً.

الهوامش

١ - المقالة مكتوبة باللغة الألمانية، وعنوانها Das Märchen وهي في كتاب بعنوان: أجناس الأدب.

Formen der literatur, hersg. von Otto Knörrich, Stuttgart 1981. S.251 - 259.

وقد ارتأينا هنا أن نعرب كلمة Märchen بالحكاية الخرافية، وكلمة Fabel بالخرافة (انظر مجلة المعرفة، العدد ٣٦٧)، أما كلمة Sage فتعني أسطورة.

٢ - حكاية خرافية متشرة انتشاراً واسعاً في العالم بفضل الأخوين غريم وقد حوِّلت إلى أوبرا عام ١٨٩٣ في مدينة فايمر Weimer. (المترجم).

٣ - حكاية خرافية شعبية حول فتاة استسلمت للنوم بتأثير ساحرة شريرة وقد استيقظت بعد مائة سنة إثر قبلة أمير كان ينظف سياج القصر من الشوك. (المترجم).

٤ - حكاية خرافية حول فلاح فقير اغتنى فحقد الفلاحون عليه، وحاولوا أن يغرقوه في الماء، فأقنعهم بأنه حصل على قطيع الشياه من ينبوع ماء، فهرع الفلاحون إلى الينبوع الذي كان يعكس صورة الغيوم التي بدت كالشياه، فألقى الفلاحون أنفسهم في الماء وغرقوا. (المترجم).

٥ - حكاية خرافية شعبية حول فتاة كانت تُعامل معاملة سيئة من قبل زوجة أبيها وأخواتها. لذا تلقت مساعدة سحرية وزُوِّدت بالثياب الفاخرة التي سمحت لها بالرقص مع الأمير الذي يتعرّف عليها مؤخراً ويتزوجها. (المترجم).

٦ - موضوع حكاية خرافية منتشرة، يتعلق بالزواج بين الإنسان والحيوان. (المترجم).

المصادر

الأسس الملحمية للشعر الشعبي

1 - Olrik, A. : Epische Gesetze der Volksdichtung. in: Zeitschrift für deutsche Altertum und deutsche literatur, 51. (1909), s.1-12.

أنواع الحكايا الخرافية

2 - Aarne, A. : The Types of the folktale. Helsinki 1910, fortges. von S. Thompson, 1961.

ملاحظات على حكايا الأطفال والمنزل للأخوين غريم

3 - Bolte, J.U.G. Polivka: Anmerkungen zu den Kinder - Und Hausmärchen der Brüder Grimm. 5Bde Leipzig 1913-32.

الأشكال البسيطة

4 - Jolles, A. : Einfache Formen. Halle 1929.

محاولة لنظرية الحكاية الخرافية

5 - Wesslski, A. : Versuch einer Theori des Märchens. Reichberg.

الحكايا الخرافية الأوروبية

6 - Lüthi, M. : Das europäische Volksmärchen. Bern 1947, zit. nach 1974.

الحكاية الخرافية

7 - Lüthi, M. : Marchen. Stuttgart 1962.

فن الحكاية الخرافية

8 - Peuckert, W.E. : Art "Märchen" in: Dt. Philol. i.A.III, 1962, Sp. 2677-2726.

بحث الحكاية الخرافية وعلم النفس الداخلي

9 - Laibilin, W. (Hg.): Märchenforschung und Tiefenpsychologie. Darmstadt 1969.

الوظيفة الاجتماعية للحكايا الشعبية القديمة

10 - Bürger, Ch. : Die soziale Funktion Volkstümlicher Erzählungen. in: Ide, H. (Hg.) Projekt deutschunterricht 1. Stuttgart 1971, S.26-56.

طرق بحث الحكاية الخرافية

11 - Karlinger, F.(Hg.): Wege der Märchenforschung. Darmstadt 1972.

الحكاية الخرافية والحقيقة

12 - Röhrich, L. : Märchen und Wirklichkeit. Wiesbaden 1974.
Ders. : Art. "Märchen" in: Krywalski, D.(Hg.): Handlexikon zur literaturwissenschaft. München 1974, Sp. 299-306.

مورفولوجيا الحكاية الخرافية

13 - Propp, V. : Morphologie des Märschns. Hg. von K. Eimermacher. Frankfurt 1975.

التعريفات القديمة للحكاية الخرافية

14 - Moser, D.R. : Altersbestimmung des Märchens. in: Ranke, K.,u.a. (Hg.): Enzyklopädie des Märchens. Bd. 1, Berlin 1977, Sp. 408-418.

الأطفال يحتاجون إلى الحكايا الخرافية

15 - Bettelheim, B. : Kinder brauchen Märchen. Stuttgart 1977.

إبطال اللعنة السحرية

16 - Zipes, J. : Breaking the Magic Spell. Austin 1979.

❋ ❋ ❋

(أشد على أياديكم والشعر والحياة)

محمد خالد رمضان

توفي منذ مدة قريبة الشاعر توفيق زياد أحد أبرز ثلاثة شعـراء من الأرض المحـتلة، وأحـد أبرز شعـراء المقـاومة الفلسطينيـة، والشـاعـران الآخران هما محـمود درويش وسـميح القـاسم، لقـد احتـل الشـعـر الفلسـطيني المقـاوم مكانة كـبـيـرة في الوطن العـربي، وظهـرت إلى الوجود والتـاريخ الأدبي ظاهرة الشعر المقاوم.

(*) محمد خالد رمضان: باحث وأديب من سورية، يكتب الشعر والقصة والدراسات الشعبية، من أعماله: «حكايات شعبية من الزبداني»، «حكايات شعبية دمشقية».

وهذا التجلي كان لتأثير ذلك الشعر على الناس حيث أن الكثير من القصائد بات محفوظاً عن ظهر قلب، وانتشر انتشاراً سريعاً. وتتالت طبعات هذا الشعر خاصة أوائل الستينات عند نهوض الحركة الوطنية والحركة القومية وإعلان المقاومة الفلسطينية.

اخترق ذلك الشعر الحدود وتخطى الجدران هادراً وراعداً مذكراً بقوة بأن الحياة لن تنتهي هكذا، ضارباً باليأس والإحباط عرض الحائط. كل هذا دل على ما للشعر من تأثيرات وإمكانات؛ ولكن ذلك تم على حسابه أيضاً، حيث أن شعر المقاومة الستيني لم يتمكن من إحكام التوازن بين الشكل والمضمون، وأنه أخذ جانب المضمون وكأن للشعر وظيفة دعائية فقط، أي ابتعد الشعر عن مفهوم الشعر، وابتعد بعضه عن أن يكون شعراً كاملاً يمتع الإنسان لأنه شعر، لا لأنه يحرك لديه الإحساسات الخارجية، أي ابتعد عن بنية الشعر الجمالية أو شعر الكشف والرؤيا ومتابعة الأسئلة الإنسانية المصيرية والأبدية.

أتى الشعر المقاوم محملاً بالبساطة الشكلية وبالتأكيد على قضية الإنسان اليومية، القضية الوطنية والاجتماعية ضمن قالب خطابي وعظي وسؤال إنشائي مكرر، وتأكيدات بل وألفاظ مكررة وخيال قاصر وصور تمس السطوح غالباً، مع قلة الوهج الشعري، واقتراب كلي من أسلوب الخطاب، مع فروق طفيفة بين شاعر وآخر تبرز هنا وهناك أو عند الشاعر الواحد خاصة حين ابتعاده عن القضية اليومية.

استمر شعر المقاومة على حاله تقريباً واستمر ضمن أغراضه التي وضعها لنفسه إلا أن محمود درويش استطاع الإفلات من هذا القيد السطحي. لم يبتعد عن غاية وغرض الشعر المقاوم طبعاً، ولكنه عالجه بأشكال فنية عالية قربت بينه وبين الشعر كشعر وجعلت منه شاعراً مميزاً على مستوى الوطن العربي.

بعد هذه المقدمة التي لابد منها ندخل في شعر توفيق زياد من خلال

ديوانه (أشد على أياديكم) وهو ديوان يقع زمنياً بين عامي ١٩٥٨ و١٩٦٦ وهي فترة ملأى بأحداث وتواريخ هامة جداً.

عدد صفحات الديوان / ١١٦/ صفحة من الحجم الوسط وعدد قصائده اثنتان وعشرون قصيدة، وشعر شاعرنا الراحل في ديوانه هذا لا يخرج عما قلناه في المقدمة عن الشعر المقاوم إلا أننا سنحاول تحليل بعض خصائصه من خلال انطباعات عامة.

تراوح البيت الشعري في هذا الديوان بين الطول والقصر، ولكن القصر كان أكثر. وقصر البيت الشعري يدل على إشارات كثيرة منها: شدة التأثير على القارئ من خلال تحميل هذا البيت شحنة قوية، ومنها أن أغراض هذا البيت لا تمكن الشاعر من الغوص والانطلاق بعيداً في الزمان والمكان.

وكذلك المقطع الشعري في الديوان كان قصيراً فالجملة الشعرية حملت ما حمله البيت الشعري لأنها مجموعة هذه البيوت. وقد لبت هذه المقاطع المطلوب منها ولم تقصر.

ولكن يمكن لنا في مثل هذه الحالة أن نسأل سؤلاً وهو: هل هذا القصر في البيت الشعري والمقطع الشعري يدل على قصر نفس شعري عند توفيق زياد؟

من خلال قراءتنا لشعر الشاعر نقول: ليس هناك أي قصر نفس، شعري إنما كان القصر متعمداً ليؤدي الغرض منه.

وإذا انتقلنا إلى الصورة الشعرية في قصائد هذا الديوان يتبين لنا أنها كانت غير منطلقة وغير نافذة. فهي لم تخرج عن تناول القضايا من السطح ولم تدخل إلى الأعماق، ولم تنتقل بنا إلى فضاءات واسعة ورحبة وظلت ضمن أمكنة وأزمنة معروفة. وهي قليلة أيضاً، وقليل منها ما هو متوهج ومدهش مع أن للصورة الشعرية ما لها في الشعر.

أما شكل الشعر فقد كان بين الشكلين العمودي- التقليدي والتفعيلة.

عدد القصائد العمودية تسع قصائد، وهناك تداخل بين العمودي والتفعيلة في قصيدتين وبقية قصائد الديوان وعددها إحدى عشرة قصيدة من شعر التفعيلة. وقد أخذت قصائد الشعر العمودي القوافي اللينة التي لها جانبها الجمالي المناسب وكانت ضمن قوافي: الباء والدال والميم والتاء والراء واللام. وقصيدتان منها هما: ايخمان وكوبا منوعتا القوافي، وقصيدة عمودية متداخلة القوافي هي من وراء القضبان.

وقد اتسمت قصائد الديوان في الشكلين بالغنائية المنسابة وبالعذوبة الراقية، فليست هناك كلمات ثقيلة أو صعبة، والغنائية فيها عالية فيها موسيقى تهز الوجدان والكثير منها يغني لانسجامها وتناسقها، وتتسم غنائيتها بالشفافية والرقة والانطلاق وهذا يدل على تمكن الشاعر من ادواته وعلى رحابة موهبته.

أما عروض القصائد إجمالاً من العمودي إلى التفعيلة فقد تنوع بين عدة بحور كلها تتسم بالغنائية واللين والانسجام وإمكانيات الغناء فهي بحور موسيقية لينة.

وهذه هي بحور الديوان: ثلاث قصائد من الكامل هي: ١- أحب ولكن ٢- بور سعيد ٣- ايخمان، قصيدتان من مجزوء الكامل هما ١- من وراء القضبان ٢- أم الجدائل، ثمان قصائد من بحر الرجز هي: ١- إليكم ٢- حكاية تطول ٣- الوثاق الحر ٤- عن النبيذ واللهب ٥- رسالة عبر بوابة مندلبوم ٦- تحية ٧- هنا باقون ٨- كوبا، قصيدتان من بحر الخبب وهو المعروف بتوتره وانفعاليته هما: ١- سمر في السجن ٢- ثلاث أغنيات لناظم، قصيدتان من البحر الوافر هما: ١- رجوعيات ٢- غاغارين، ثلاث قصائد من البحر المتدارك هي: ١- ذكريات ٢- ضرائب ٣- خائف ياقمر، وقصيدة من البحر البسيط هي: متى نلتقي، وقصيدة من البحر الخفيف هي: وثبة الجسر.

وقد تنوعت الأفعال في الديوان بين المضارع والماضي والأمر والأفعال

المساعدة، وقد غلبت القصائد التي حملت الفعل المضارع على قصائد الديوان، فعدد القصائد التي غلب عليها المضارع تسع قصائد وهي نسبة كبيرة من عدد قصائد الديوان، وهناك القصائد التي دخل فيها المضارع بأغلبية كبيرة فهناك قصيدة مضارعة وأمر، وخمس قصائد فيها تداخل بين المضارع والماضي، كما توجد قصيدة فيها تداخل يغلب عليه المضارع بين المضارع والماضي والأمر، كما لاحظنا قصيدة فيها تداخل بين المضارع وهو الغالب ثم الأمر والماضي.

أما لفعل الأمر فهناك قصيدتان فيهما تداخل، لفعل الأمر فيهما الغلبة يتبعه فعل المضارع يلي ذلك الفعل الماضي. أما للفعل الماضي المحض فهناك قصيدة واحدة هي قصيدة: (عن النبيذ واللهب) وتداخل بين الماضي والمضارع في قصيدتين هما قصيدة أم الجدائل وقصيدة من وراء القضبان.

وهكذا تبين لنا من خلال هذا العرض غلبة الفعل المضارع على أفعال قصائد الديوان، وهذا يعني غلبة الآن أو الحاضر وبالتالي الواقع كزمن على القصائد أي أن اهتمام الشاعر بما يجري حوله من كل الأشياء، وما يعانيه هو الذي يعكسه لنا ضمن أشعاره، وهذه ايجابية له تؤكد معايشته للحاضر والتعمق فيه بل والخوض في أعماقه والسير مع الناس في سبيل تحقيق أهدافهم، والتعامل مع الأفعال المضارعة يدل أيضاً على مسايرة الحداثة الشعرية والمعاصرة والابتعاد عن التقليد والجمود فالمضارع هو حركة الزمن الآنية حركة اليوم المملوء بأشياء وحوادث كثيرة.

وفي الديوان استحضارات تاريخية هامة بينت لنا اهتمامات الشاعر بالحياة والمعرفة عامة، وعمق ثقافته وعكست إمكانياته الكبيرة ونستطيع القول إنه وفق في توظيف هذا التاريخ وعكسه لنا تاريخاً معاصراً كما هو الهدف لهذا التوظيف ولم يبد لنا أي نشاز في ذلك. وسنبين كل هذه التوظيفات التاريخية ضمن هذا السرد.

ففي قصيدة من وراء القضبان أورد الشاعر التالي:

ص١٠٩

لن يحبسوا أغنية
تعلو على هذي البطاح
شرقية عربية الألحان
حمراء الجناح

فعربية الألحان تعيد لنا ذاكرتنا وحضارتنا وتؤكد عروبة أرض فلسطين وعروبة بطاحها، وتعني العروبة هنا الإنتماء إلى ماض عريق عظيم والفخر به.

ومن قصيدة (سمر في السجن)أورود الشاعر التالي ص ١١٦ :

أتذكر إني أتذكر
لما كنا في أحشاء الظلمة نسمر
وربابة ابراهيم تعمر

فالربابة تعني الآلة الموسيقية التراثية الملأى بالألحان الحنونة الحزينة وبالهجيني والقصيد والأحلام والجمال والرؤى المتنوعة.

وكذلك من قصيدة سمر في السجن ص ١١٦ - ١١٧ :

استحضر الشاعر رموز عبس وعنترة وعبلة وأورد التالي:

وربابة ابراهيم تعمر
تحكي عن عبس عن عنتر
عن عبلة عن سالفها الأسمر

وكذلك يستمر في ايراد الرموز في القصيدة نفسها:

عن جساس
وأبو زيد
ودياب
وعن التغريبة والأحباب الغياب.

كل تلك الرموز هي تسلية السجين المقاوم وهي تحمل الماضي الجميل العبق بالشجاعة والكرم والايثار، المملوء بالأريج والطيب. فهي تشحن

السـجين بكل هذه المعـاني الكبيـرة والرائعـة والإنسـانيـة.

أما الرموز الأخرى فهي: ١- رمز موقعة حطين صخر حطين من قصيدة رجوعيات ٢- رمز الكنانة من قصيدة بور سعيد ٣- ناظم حكمت من قصيدة ثلاث أغنيات لناظم ٤- رمز غفارين ٥- رمز كولبس والرمزان من قصيدة كولبس وكذلك رمز مصباح علاء الدين وأرض العجائب للقصيدة نفسها ٦- رمز مندلبوم من قصيدة رسالة عبر بوابة مندلبوم ٧- رمز ايخمان ٨- رمز هتلر في قصيدة ايخمان.

أما توظيفات رموز الجغرافية أي المكان فقد كانت ذات أهمية كبيرة للديوان وأعطته أهميته اللائقة به، فالتأكيد على المكان خاصة بالنسبة لشعر المقاومة له كل الميزات، فالمكان هو الأرض، والأرض هي الوطن بما يحويه من أناس وبيئات وذكريات وإحساسات بأن هذه الأرض هي لهؤلاء الناس.

ونستعرض من خلال السطور التالية تلك الرموز التي نوهنا عنها.

فمن قصيدة (من وراء القضبان) أورد الشاعر التالي:

دارت يد السجان بالمفتاح

تغلق كل باب

إلا بقايا كوة

من خلفها تبدو الروابي

ويلوح رأس الكرمل المخمور

برقع بالضباب

الفجر فوق جبينه المعتز

كالعاج المذاب.

كم هناك من تداخل بين الشاعر والكرمل الشاعر والمكان والوطن، كم هناك من إحساس بالتطابق وبالتوحد بينهما، وكم هو الكرمل الوطن جميل ورائع فهو النور والفجر وهو تاج الحياة، إحساسات ملأى بكل ما هو جميل.

ومن قصيدة (سمر في السجن) يرمز الشاعر لسجن الدامون، وفي القصيدة نفسها يعرض الشاعر رمز الكرمل مرة أخرى.

وفي قصيدة رجوعيات نقرأ ما يلي:

السكر المر:
أجيبيني
أنادي جرحك المملوء ما حاً يافلسطيني
أناديه وأصرخ:
ذوبيني فيه صبيني
أنا ابنك: خلفتني هاهنا المأساة
عنقاً تحت سكين
أعيش على حفيف الشوق
في غابات زيتون
ويتابع
فلسطينية شبابتي
عبأتها، أنفاسي الخضرا
وموّالي
عمود الخيمة السوداء، في الصحرا

التأكيد على فلسطين وما فيه من حنان وحب وأمل وأحلام التأكيد على الأرض، وكيف ينادي ويصيح حتى الذوبان فيها، فهو ابنها.

وفي قصيدة ذكريات نقرأ رمز ربى الناصرة

وفي قصيدة هنا باقون نقرأ رموز بلدات اللد، الرملة، الجليل، والتأكيد من خلالها على المكان وأهميته وروحه وما يمثله ويعطيه.

وفي الديوان إضافة للتضمينات الزمانية والمكانية، تضمينات تراثية حملت لنا رائحة الماضي ورائحة التراب والحياة وساعدت في ترسيخ القصيدة في وجداناتنا.

وهذه هي بعض التضمينات من بعض القصائد.

فقد أورد الشاعر من قصيدة ضرائب :

ونسوتنا البائسات عرايا
يلاقين من عيشهن البلايا
عجائز جسماً وسناً صبايا
وأخبارهن (حكايا بكايا)

(فحكايا بكايا) جزء من مثل شعبي هو (حكايا بكايا شرحها يطول لولا جرادة ما وقع عصفور)

وهذا المثل هو عنوان لحكاية شعبية بالعنوان نفسه.

أي أن هذه الأخبار من شدتها تبكي الحجر وهي حزينة جداً وقد ضمن الشاعر مثلاً هو (وباع السراج وباع الفتيلة) وضمن رمزاً شعبياً في حالة دعاء هو (انشله ياربي من كل ضيق) لقد كان لهذه التضمينات قيمة كبرى في الديوان وخلقت حالة جمالية اتصالية خاصة.

ومن خلال النظر في الديوان لاحظنا الكثير من الجماليات الممتعة في حالات عديدة وظهر هذا خصوصا في جماليات التكرار. ونضرب بعض الأمثلة على هذه الجماليات من قصيدتين من قصائد الديوان. فمن قصيدة رجوعيات نقرأ :

أحبائي برمش العين
أفرش درب عودتكم
برمش العين

فــهــذا التكرار لكلمــتي (برمش العين) الذي مس الأذن ولامس الأعماق وخلق حالة جمالية ممتعة جداً هزت كياننا وأخذتنا لمناخات حالمة - هام بنا وسحرنا، ومن قصيدة (حكاية تطول) نورد حالة أخرى من التكرار الجمالي العالي :

تنام في سلام

قلادتي تنام في سلام

والتكرار هنا في جملة (تنام في سلام) وقد هيأ لنا حالة انسجامية هادئة ابتعدت إلى عوالم من الحلم والوجد والاستسلام للحب المشرق.

أما عن بعض الهنات والسلبيات فقد ظهر ذلك خاصة في بعض الكلمات التي لا لزوم لها واستدعتها القافية في قصيدة التفعيلة أو الضرورة في قصيدة العمود وكان بالإمكان الاستغناء عنها، ولو استغني عنها لكان ذلك أقوى للقصيدة.

فمثلاً من قصيدة من وراء القضبان نقرأ:

١- البأس العنيد ٢- النور البديد ٣- كالذئب الطريد ومن قصيدة (سمر في السجن) نقرأ:

١- الدامون الأغبر ٢- الشعب الأسمر ٣- غدنا الأحمر ٤- سالفها الأسمر ٥- الحب الأخضر.

ولا يشفع لهذه القصيدة إلا تاريخيتها.

إضافة إلى ذلك هنالك بعض الصفات التي يمكن حذفها دون أن تؤثر على الشعر، ونضرب مثلاً على ذلك من قصيدة (حكاية تطول) فمنها:

١- على جناح بلبل جميل.

فصفة الجمال للبلبل قضية حاصلة دون ذكر إذ أن كل بلبل جميل.

وهناك صفات أخرى عديدة لا يتسع لها المقام.

توفيق زياد زرع من خلال شعره حالات لا تنسى من الروعة والجمال والإحساس بقوة بمدى علاقة الفلسطيني بأرضه، وشكل حالة لن تفنى من الحب للأرض والوطن، وكم هو جذري تعلق الإنسان بتاريخه وزمنه، لقد خلد توفيق زياد الأشياء الجميلة وأبانها لنا، وكشف عمق الحياة.

ومن خلال أشعاره عاش توفيق زياد في وجدان الناس وسيبقى حياً معهم، لقد غنى لهم تلك الأغنيات الخالدة، غنى لكل شبر من أرض الوطن ونثر حروفه في نسغ الأشياء كلها. نثرها في البر والبحر والسماء.

نافذة على العالم

ترجمة واعداد :
كمال فوزي الشرابي

آداب

*** الشاعر الاسباني الكبير انطونيو متشادو A.MACHADO، نبذة عن حياته واعماله، وترجمة لبعض خواطره الشعرية.*

ولد الشاعر الاسباني الكبير انطونيو متشادو في مدينة اشبيلية عام ١٨٧٥ وتوفي في بلدة كوليور الواقعة في جبال اليپيرينه او البرانس الشرقية عام ١٩٣٥ . وكان ابوه كاتباً وشقيقه منويل كاتباً أيضاً.

(*) كمال فوزي الشرابي : أديب وشاعر من سورية، يعمل في مجال الترجمة، من مؤسسي مجلة «القيثارة»، من أعماله : «قبل لا تنتهي»، «الحرية والبنادق».

درس انطونيو في جامعة مدريد ثم في المعهد الحر للتعليم، وفي عام ١٨٩٩ قام برحلة إلى باريس حيث احتك بالحركات الادبية في ذلك العصر. وفي باريس نبتت براعم صداقته مع شاعر نيكاراغوا الكبير وابي الحداثة في أمريكا اللاتينية روبن داريو RUBEN DARIO (١٨٦٧ - ١٩١٦). ثم عاد الى اسبانيا، وفي عام ١٩٠٧ حصل على كرسي اللغة الفرنسية بمعهد سورية SORIA. وكان قد نشر عام ١٩٠٣ مجموعته الشعرية (العزلات)، وفي عام ١٩٠٧ نشر طبعة منها فريدة عنوانها (العزلات وقاعات للعرض وقصائد أخرى).

يمزج متشادو في شعره بين عدة موضوعات شعبية اندلسية وفي الوقت ذاته بين عدة موضوعات أساسية تختص بها نهاية العصر، وهي الزمان والموت والكآبة. ولقد هيأ له الاحتكاك بمنطقة قشتالة والاقامة في سورية تجارب مغرقة في العمق والحيوية. وفي سورية تعرف الى ليونور كويباس فتزوجها وذهبا معاً إلى باريس حيث كان يحضر دروس العالم بالقرون بالوسطى جوزيف بيديه (١٨٦٤ - ١٩٣٨) والفيلسوف الفرنسي هنري برغسون (١٨٥٩ - ١٩٤١). وفي اثناء ذلك مرضت زوجته ثم توفيت بعد عودتهما إلى اسبانيا بقليل.

في عام ١٩١٢ نشر ديوانه (مناظر من قشتالة) وهو يتسم بالعمق والكآبة. وبعد وفاة زوجته عاد إلى المنطقة التي ولد فيها وعاش في بلدة صغيرة. وفي عام ١٩١٧ نشر ديوانين الأول بعنوان (صفحات مختارة) والثاني (قصائد كاملة)، وفيهما جمع اعماله الأولى بعد تنقيحها ومراثيه لزوجته. واستقر منذ عام ١٩١٩ في مدينة سيغوفيا ففجر لديه المناخ الأندلسي مجموعة طريفة من الأشعار عنوانها (الأغاني الجديدة، ١٩١٧- ١٩٢٠) وهي قصائد قصيرة غالباً ما تشبه الأغاني الشعبية.

في عام ١٩٢٥ اصدر انطونيو متشادو طبعة جديدة لديوانه (قصائد كاملة)، ثم انتخب عام ١٩٢٧ عضواً في الاكاديمية الملكية الاسبانية، وعاد

عام ١٩٣١ إلى مدريد حيث بدأ بكتابة مقالات لجريدة (الشمس). وتظهر في هذه المقالات شخصيتان طريفتان هما خوان ده ميرينا وأبيل مارتن. وتشكل المقالات المذكورة دراسات ذات طابع ساخر يُدخل فيها الشاعر بعض القصائد كما يبرز لنا شخصية نسائية محببة هي غويومار التي أكد وجودها الكاتب الاسباني كونشا إيسبينا في كتابه (من انطونيو متشادو إلى حبه الخفي الكبير، ١٩٥٠) بالاستناد إلى الرسائل التي كان الشاعر يوافي بها هذه الحبيبة الجديدة.

عاش انطونيو متشادو متنقلاً بين مدريد وبلنسية وبرشلونة. وفي اثناء الحرب الاهلية كان يكتب دراسات جديدة عن خوان ده ميرينا وذلك في مجلة (الساعة الاسبانية). وفي عام ١٩٣٩، وبعد هزيمة الجمهوريين انتقل إلى فرنسا مع والدته، وبقي فيها إلى ان وافته المنية بعد نفي يعتبر طوعياً. وقد كتب أيضاً عملاً مسرحياً بالاشتراك مع اخيه منويل متشادو.

قال عنه الكاتب الفرنسي جان كاسو CASSOU: «يعرّي متشادو لغته من كل مظهر خارجي فيبقيها على طبيعتها الأصلية... انها لتشبه اسبانيا بجلّدها ووقارها وعفويتها مع بعض الكلمات الملموسة الملأى بالتماسك والتواضع والبساطة، وهي ببساطة تحاكي بساطة الامراء الحقيقيين والصعاليك الحقيقيين في الوقت ذاته. انها للغة قوية وعارية، غنية بلا زخارف، تعبر تعبيراً مباشراً عن الأرض والنفس والموت».

والواقع ان الأرض هي أول ما نلمسه في شعر متشادو وتأملاته لانها -بحسب رأيه- بداية كل شيء ونهايته. يقول: «***هناك شيء كالأرض في عروقنا، ويشعرنا هذا الشيء برطوبة الحديقة***». ويملك هذا الشاعر أعلى مستوى من مستويات الاحساس بتأثير المناظر الطبيعية وسحرها، وما من أحد عرف كيف يرسم أفضل منه ألوان قشتالة، واشجار زيتونها وبرتقالها، وفصولها، ومشاهد الشوارع والأزقة اليومية فيها: انه يختصر اسبانيا بأسرها في أشعاره. على ان هذا الواقع لم يكن يكفيه، بل كان يلزمه التسامي نحو

الاله: «*حلمت وأنا نائم في الليلة الفائتة - ويا له من حلم بل يا له من اكتشاف!..- حلمت بان الله في قلبي*». ان إله متشادو هو إله المحبة الذي تعم طيبته ورحمته كل حي وكل شيء...

ويكسو الشاعر أغانيه بأبسط الاشكال فيلجأ إلى الصونيتة أو إلى المقطع القصير، وهما شكلان تقليديان تتقبلهما اذواق الجماهير. وفي نهاية حياته لجأ إلى كتابة الخواطر والتأملات والأمثال. وفي شعره، الذي يعكس الأمل، أو الاضطراب، أو القلق التي تمر بالناس كل يوم، يحتل مبدأ الزمن مكاناً اساسياً. ومع ذلك فان انطونيو متشادو، الذي تتسم أشعاره الأولى بالكثير من الحنين إلى المجهول، قد عرف في أواخر ايامه ما ينشده كل شاعر حقيقي من هدوء وصفاء.

وفيما يلي ترجمة لبعض أغنياته أو تأملاته أو خواطره الشعرية:

أغنيات

- ١ -

أيها المسافر! ان آثار قدميك
هي وحدها الطريق.
وليس ثمة من طريق
سوى تلك التي تشقها بنفسك.

- ٢ -

العين التي تراها
ليست عيناً لأنك أنت تراها
بل لانها هي تراك.

- ٣ -

حقيقتك؟ لا، ليست هي الحقيقة.

ألا هَلُمَّ معي لنبحث عنها ،
واحتفظ بحقيقتك لذاتك.

- ٤ -

انتبهْ:
ان القلب الوحيد
ليس بقلب.

- ٥ -

قلتَ نصف الحقيقة،
ومع ذلك فسيزعمون انك تكذب مرتين
فيما لو ذكرت لهم نصفها الاخر...

- ٦ -

حَسَنٌ ان نعرف ان الكؤوس
تفيدنا في احتساء الشراب،
ولكن مما يسوء حقاً
اننا لا نعرف ماذا يفيد الظمأ.

*** (الفارس الروسي والعندليب) و(معجزة شجرة المنغا): روايتان مترجمتان عن الالمانية للروائي الالماني ليو بيروتس LEO PE-RUTZ، منشورات البان ميشيل، باريس.*

استمرت ابتداعية أو رومانتية عربات النوم والقُطُر العابرة للقارات خلال أكثر من ثلاثين عاماً في أوروبا. ويُعَدُّ من بين كبار كتاب هذه الابتداعية بليز صندرار وفاليري لاربو في فرنسا، وسومرست موم في انكلترا، وستيفان تسفايغ وارتور شنايزلر في النمسا. وغالباً ما تكتسي نزعة التصوير الداخلية لدى هؤلاء الكتاب اشكالاً محببةً حين يتعلق الأمر بأشياء ذات استعمال يومي كفم لفافة التبغ أو النظارة الأحادية الزجاجة-المونوكل- مثلاً. واذا ما نحيَّنا هذه الاسماء جانباً فاننا نقع على عدد كبير من محبي

السفر الذين طوتهم اليوم موجة النسيان بعد ان برزت وجوه عالمية في الأدب كوجوه غوستاف فلوبير ومارسيل بروست وارنست همنغوي الذين استطاعوا ان يحتفظوا بذكرى القاطرات والمراكب البخارية والمناديل التي ترافق مشاهد الوداع.

وهانحن الآن نقبل على قراءة عملين غريبين وممتعين لروائي يعتبر كاتباً عالمياً شديد التميز هو ليو بيروتس الذي نُشرت له مؤخراً روايتان هما (الفارس الروسي والعندليب) و(معجزة شجرة المنغا). كيف السبيل الى التحدث عن هذين العملين؟ من الأسهل ان نبدأ برواية (الفارس الروسي والعندليب) التي يمكن ان نقارنها بفيلم من افلام تشارلي شابلن اوهارولد لويد أوان كان هذان الممثلان الهزليان الكبيران يرخيان العنان لعبقريتهما في مجال الضحك والانتقاد من غير ان يتساءلا هل المنطق لهما صديق أو عدو.

كان الكاتب في الماضي يكتب صفحة أولى ويعتمد على أطلس جغرافي ويغمض عينيه لينطلق بمخيلته في عالم رحب، وهكذا يبدع نوعاً من أنواع المسلسلات اليومية يكون في منتهى الامتاع، وهو نوع مملوء بالمفاجآت. ألم يكن الكسندر دوما الأب، قبل أكثر من سبعين عاماً، يلجأ الى هذه الطريقة ذاتها؟ وكانت مهارة هؤلاء الكتاب تجتذب من يحبون التسلية والضحك والتنويع.

المقصود بالفارس الروسي هنا أمير «تركبه» عدة عفاريت في الوقت ذاته. أحد هذه العفاريت هو عفريت ما يسمى بنزوات منتصف العمر. ومهمة هذا الفارس ان يغزو العالم، وان يغرق فيه ما يحسه من أسىً أو ضجر. وهذا الأمير، ويسمى اوغولنسكي، روسي كراسبوتين، ولكنه يتميز منه بأنه من الظرفاء المهذبين. وهو يعشق بجنونٍ مغنيةً المفروض انها صلعاء كمغنية أوجين يونيسكو. وعلى القارئ هنا ان يتصور العمل وقد احاط به الجنون واللاانتظار والعجائبية، في قفزات متعددة. ويضيف اليه بيروتس موكباً من الرؤوس المتوجة التي تقبل وترحل كرؤوس الازواج

المخدوعين في مسرحية من مسرحيات فيدو FEYDEAU[١]. والهاتف دائم الحضور اذ على العمل ان يتصف بالحداثة في تلك السنوات الجميلة. وهل يتوقف بعض الناس عن الانتحار برمي انفسهم في البحر، الساعة الثالثة صباحاً، من احدى شرفات كازينو مونت كارلو الشهير؟ ومن الممكن مع ذلك ان يوفر علينا الكاتب مشاهدة هذا النوع من الرواسم. ويبدو الأمير على الرغم من كل شيء كائناً حساساً عاقلاً، وهو أمر يصدم به الكاتب القارئ، لان بطله لا يملك سوى ترداد هذه الكلمة الدوستويوفسكية السامية وهي: «مات القيصر. فلنرجع إلى المنزل».

نصل إلى الرواية الثانية وهي (معجزة شجرة المنغا)، ففيها نجد المزيد من السرية والخفاء، وبشكل أدق المزيد من الانحراف اللاعقلاني. نحن الآن أمام قضية تشبه قضايا استحضار الأرواح، على ان المؤلف يحذرنا بين الفينة والفينة انها قضية لا تخلو من الغش والخداع. وليس الأمر بهذه السهولة: فهناك احداث طبيعية تمتزج بأفعال البشر، وما كان في البدء يدعو إلى الشك اصبح صورة مختلطة. فقير أو ساحر يأتي من الهند ليزرع الشقاق في عالم مغرق بالعقلانية. وإلى جانب حركاته المتصفة بخفة اليد والمهارة يستطيع هذا الفقير أو الساحر ان يجترح معجزات من شأنها التأثير في نفوس مصدقيه الذين لا يهمهم سوى ان يثقوا به. ولقد اختار حديقة متألقة ليمارس فيها مواهبه. وفي وسط هذه الحديقة قام بناء من زجاج تُستنبت فيه نباتاتُ البلاد الحارة. ويكاد المرء يختنق من رطوبة الحديقة الاستوائية، ويرى ما يدَّعي الفقير انه يُريه اياه. وللفقير شريك هو بارون من فيينا يتعلق هو أيضاً بهذه الممارسات الغريبة.

ويعطي الشجر في تلك الحديقة ثماراً غير منتظرة لا تلبث ان تتحول إلى ثمار أخرى، وترافق أعمال السحر تسميات خاصة. ويعتقد البعض بوجود الموائد المستديرة والدائرة. ومن زمن الشاعر الكبير فيكتور هوغو والكاتب الفرنسي فيليبيه دوليل آدم كان الناس يُسحرون بمثل هذا العناء

الضائع . . . ويذكّرنا ليو بيروتس بهذه الانحرافات الفاتنة لدى المشاهير. ويشير اليها بهذه اللهجة : «كان أولام سينغ الفقير أو الساحر متطيراً. ولم يكن يسمح لأحد ان يقطف أية وردة بمشذبه، وذلك لكي يحذّر الآلهة بان تبتعد في الوقت المناسب».

وصفوة القول ان ليو بيروتس روائي طريف ننعم بصحبته من خلال افكاره المتسمة بالعجائبية والنقد والمزاح.

علوم

*** حوار مع العالم الإناسي الامريكي مارشال ساهلينس MARSHALL SAHLINS، حول إثنولوجية أو سلالة الحب في جزر هاواي.**

أجرى مارشال ساهلينس، أستاذ الإناسة أو الأنثربولوجيا الاجتماعية في جامعة شيكاغو، أول تحقيق له كبير في بولينيزيا[٢] بالخمسينات، وحمل معه من هناك دراسة اساسية وافية عن الوضع الاجتماعي في تلك البلاد. وإذ جابه مجتمع هاواي ذا النظام الثابت والمعقد، فانه لم يتوقف عن محاولة فهم منشأ السياسي وتفسيره من خلال الثقافة. وبعد ان استقبله مختبر الاناسة أو الانثروبولوجيا في الكوليج دو فرانس عام ١٩٦٨، تآلف مارشال ساهلينس مع اللغة الفرنسية ونمط تفكير الفرنسيين، ومع سلالي أو اثنولوجيي المجتمعات البدائية، واحتفظ ببعض الصداقات العميقة معهم. واشترك في المناقشات النظرية التي كانت تحرك آنذاك العالم الجامعي والعلمي، ولكنه ظل على الدوام يزدري المواقف الرسمية. في عام ١٩٦٨، نشر في (الأزمنة الحديثة) مقالاً عنوانه «أول مجتمع للوفرة»، وفيه وضع معالم ما سيشكل كتابه (العصر الحجري، عصر الوفرة)، وهو دراسة ثوّرت مفهوم الاقتصاد البدائي. وفي الأعوام ١٩٧٥ - ١٩٨٠ قام مارشال

ساهلينس بردة فعل ضد محاولة الاستيلاء على السلطة الايديولوجية والعلمية، من قبل انصار علم الاجتماع الاحيائي أو السوسيوبيولوجيا، وذلك بنشر كتابه (النقد الإناسي أو الانثروبولوجي لعمل الاجتماع الاحيائي). وبعد بضع سنوات وقف موقفاً معارضاً لعلم الاجتماع النفعي بمؤلّفه (الدافع النفعي والدافع الثقافي في صميم المجتمعات)، واليوم يقف بكتابه (جزر في التاريخ) كسلالي مؤرِّخ، ويطرح هذا السؤال: كيف نفجر مفهوم التاريخ بوساطة التجربة الانسانية للثقافة؟ وعلى جري عادته في القيام بعمل معمَّق وعمل (مؤلَّف نقدي)، يسخط ساهلينس على الاناسيين لانهم جهلوا طويلاً «وبشكل واعٍ وخاطئ» غنى شهادات المحفوظات، ويرثي للمؤرخين الذين لم يتنازلوا بعد للاهتمام بالتواريخ المجلوبة exotiques، كما فعلوا فيما يتعلق بأوروبا القرون الوسطى، «وذلك لمجرد ان هذه التواريخ متباعدة ثقافياً».

*** ماذا تمثل السلالة -بكسر السين- لديك؟**

- تكمن قيمة السلالة لديَّ في الرؤية المقارَنة التي تكسبنا اياها ممارستها وما تنطوي عليه. وبهذا المعنى تصلح السلالة أو الاثنولوجيا لايجاد نسبة مع الحقيقة أو الحقائق. وما تحمله الينا الإناسة أو الانثربولوجيا هو بشكل اساسي مفهوم الثقافة ذاتها، وبخاصة كما يفهمونه في امريكا أي كنوع من الحياة الشاملة. وتعطينا السلالة هذا الدرس: نحن «واحد من الآخرين» كما كان جان بويون POUILLON يقول، وعندي ان الاضاءة التي تسلطها علينا السلالة بوساطة «الآخرين» هي اضاءة جوهرية.

*** سلالتك، عمَّن أخذتها؟**

- أخذتها عن لووي[٣] وبواس[٤] وعن آخرين ممن صنعوا شيئاً ما كجيولوجية الاحياء، أي التاريخ القديم للثقافات. وعلى هذا النحو، كانت السلالة ذات بعدين. أما اليوم فيجب صنع بنى للبنى التحتية! وبهذه

المناسبة، لديّ طرفة يعود تاريخها إلى ندوتي الباريسية حول «التبادل الميلانيزي»[٥]. وكان كلود ليفي - ستراوس حاضراً، وكنت قد بدأت فأعلنت انني لم أكن بنيوياً، وانني سأقدم بحثي عن تبادل الثروات، أي عن البنية التحتية. قدمت بحثي. في النهاية قال لي ليفي - ستراوس: حسن ما تصنعه، هذا يدل على انك بنيوي اذ تتحدث عن التبادل في ميلانيزيا كما تتحدث عن التبادل المحدود في اوستراليا، هذا حقاً شيء بنيوي. قلت له: لكنك كتبت في (الفكر المتوحش) ان البنيوية هي علم البنية الفوقية، ومع ذلك فلم اتحدث عن اشياء فَوْبنيوية «ذات بنية فوقية»[٦]. وكنت اعتقد ان هذا مبدأ لتحديد البنيوية بمعطيات فوبنيوية. قال لي: نعم، هذا صحيح. سألته عند ذاك: ماذا تعني البنيوية؟ فأجابني: البنيوية هي الإناسة أو الانثربولوجيا الجيدة. في هذه الشروط انا بنيوي... ونعود إلى السلالة، فلقد أدهشتني على الدوام العوالم المختلفة التي يعيش فيها البشر، حتى في يومنا، وحتى في هذا النظام العالمي، ان هذا ليستهويني.

*** ما الذي قادك إلى هاواي؟**

- بدأت بالعمل على مستندات تاريخية لأصنع عراقة أو اثنوغرافيا[٧] لهاواي، لا دراسة وافية فحسب. درست التنظيم الاجتماعي، بدءاً من المعطيات المساحية[٨] في أواسط القرن التاسع عشر، فادركت وجود مستندات تاريخية أخرى هي قصص المبشرين، والمكتشفين، وسواهم، مما يجب تحليله. حين قرأت هذه المستندات لاحظت انه يمكن وصف التاريخ إناسياً وبالعكس أي الاناسة تاريخياً. وهكذا اهتممت فيما يتعلق بهاواي بما يبدو لنا، نحن الغربيين، كبداية لتاريخ هذه الجزر، أي بالقبطان أو الربان كوك[٩]. وأرى ان ذلك كان في الحقيقة اكتشافاً لانني كنت اجهل تماماً وجود هذه المستندات حين ذهبت إلى جزر فيدجي في الخمسينات وفي بداية مهنتي كعالم سلالي. وما من عالم إناسي تحدث عنها حتى ان إيفانس بريتشارد IVANS PRITCHARD كتب بانه لا يمكن صنع تاريخ لجزر الجنوب بسبب

عدم وجود مستندات. وعلى هذا ذُهلت امام الغنى السلالي للمعطيات التاريخية. ودهشت كثيراً حين لمست في فيدجي ان كل شيء كان يعمل كما في آلة لصعود الزمن، اذ كان يمكن سماع الناس يتكلمون تماماً بحسب ما وصفه المبشرون. ذلك ان الماضي والحاضر في فيدجي يتحاذيان، وانه لمن الخارق ان ترى ان خطاً من الحافلات يصل فعلياً ما بين المحفوظات والقرى! ويمكن الانتقال من قرية إلى قرية أخرى في بضع ساعات. ليست المسألة مسألة تاريخ شفهي، فالاشياء التي كانت تحظى في الماضي بالاهتمام -كسلسلة عبور الحيتان- تستنفر على الدوام سكان القرى. واكتشفت في تلك الفترة ان الفيدجيين لم يتغيروا، وان بامكاني ان اصنع تاريخاً لثقافتهم لانها كانت حية باستمرار: هذه الطريقة التي مارسوها في تبادل الاشياء مع الاوروبيين كانت خارقة، وكان يجب تفسيرها. وتقدم جزر فيدجي للعالم السلالي أكثر المجتمعات البولينيزية حياة وقدماً. ولقد كان علماء العراقة يهرعون دوماً إلى الجزر الهامشية لجزر فيدجي ما عدا هوكار HOCART في السنوات ١٩١٠ - ١٩١٦ فقد خلف ملاحظات آسرة عن «الدول المركزية».

**** بالاضافة إلى التاريخ أدخلت في الاناسة لديك مفهوم الحدث.***

- بلى، بدا لي ذلك شديد الأهمية، وحين اتصور «حدثاً» فلا يعني هذا مجرد شيء يحصل من ذاته، ولو كانت له دوافع الوجود الخاصة به. في كتابي أُذكّر بملاحظة كليفورد غيرتز CLIFFORD GEERTZ التي بموجبها يكون الحدث تحييناً Actualisation فريداً لظاهرة عامة، وتحقيقاً محتملاً لطراز ثقافي. ولا يكتسب الحدث أهمية تاريخية الا اذا ناسب شكلاً ثقافياً وأُدرك من خلاله. الحدث هو علاقة بين شيء يحصل وبين بنية أو بنى، وتحويل الظاهرة في ذاتها إلى قيمة محمَّلة بمعنى تنبع منه فعاليته التاريخية الخاصة. واعتقد ان المؤرخين لا يعون المستوى النظري لمشكلة الحدث وعياً كافياً.

*** كيف يمكن وصف الحدث؟**

- اعمل حالياً في بضعة أحداث فيدجية اشعلت حرباً لاثني عشر عاماً بين دولتين فيدجيتين كبيرتين، دولة في الداخل ودولة على الساحل، وفي اثناء ذلك كله كان المبشرون يسجلون بدقة مَنْ كان يأكلُ مَنْ في كلا المعسكرين! قاموا في الحقيقة بعمل مراسلين حربيين. في منشأ هذه الاحداث توجد قصة عادية: اراد زعيم ان يأخذ خنزيراً من زعيم آخر، فرفض هذا أن يعطيه إياه، فنشبت الحرب بينهما... ما احاول صنعه هو ان اكشف الحدث، لا كمجرد بنية ظرفية، بل بمحاولة فهم كيف يمكن أن تتجسد القوى العامة والزمر الجماعية في البشر وفي اعمالهم. ما يهمني هو ان افسر المستويات التي تكشف بها على هذا النحو تاريخ العلاقات بأكمله بين الجماعات في هذه الحوادث. ويصبح السؤال: ما هي البنى الاجتماعية والثقافية التي تصنع هذا «التفسير»، ويم يستطيع البشر، بأوضاعهم الخاصة، وتصرفاتهم الخاصة، وتفاعلاتهم الخاصة ان يرتبطوا بالتاريخ وبالجماعات ذاتها؟ وبعبارة أخرى: كيف تتجسد البنية وكيف تؤثر الأوضاع الشخصية للبشر؟ ثمة مكان هنا لما يسمى التاريخ النفسي. يهمني الحدث في كون عمل بعض الافراد يمكنه ان يطلق احداثاً متتابعة. كيف تستطيع الثقافة، التي هي شيء فرضي -وهذا موجود في المجرد-، ان تحدث بدءاً من المعطيات في ممارسة الحياة اليومية، والافعال والحركات الشخصية التي لو قمنا بها لأعطت التاريخ وبنية الثقافة ذاتها مجرى ما؟

***قسم من مؤلفك الاخير (جزر في التاريخ) يعطي الحب في هاواي مكاناً هاماً كمبدأ سلالي.**

- يجب الاندهش البورجوازي! ولكن توجد مشكلة عامة تقريباً تتعلق بالمجتمعات اللاشكلية أو ذوات البنى الرخوة حيث لا توجد جماعات نقابية ولا قواعد مطلقة. في هذه المجتمعات يتغير سلوك الناس، ولا نستطيع أن نتوقع كيف سيكون سلوكهم في وقت معين، على الرغم من

صلات القرابة. وكانت هذه المجتمعات تدق عن الوصف العراقي الذي هو حقاً ارسططالي: يجب الحصول على جماعات (أ)، وعلى جماعات (ب)، وعلى ثقافة جوهرية[١٠] ذات ملامح دقيقة، وعلى عادات. ويجب العمل بحسب الظروف الخ... وكان السلاليون ينظرون إلى المجتمعات التي تتجاوب اخيراً مع وجهات نظرهم كالاسكيمو أو سكان الجبال في غينيا الجديدة أو سواهما. بيد ان ذلك لم ينطبق على هاواي، فهناك تشكل المجتمعات قسماً من المجتمعات التي تفضل -كمجتمعنا- ان تقيم علاقاتها البنيوية انطلاقا من العمل الواقعي «الذرائعي» أكثر من تحديدها العمل قبلياً على أساس العلاقات. في هاواي تتشكل العلاقات فإما أن تنجح أو لا بحسب الزواج أو الرغبة أو الحب. ولا يعتبرونها تنظيماً حقيقياً بل بالاحرى تنظيماً اتفاقياً. اريد ان ابين ان اعمال الحب هي أيضاً بنيوية كالاعمال التي تخضع لقواعد الجماعة أو لمعايير محددة. ولها أيضاً معان سبق ان اصبحت بنيوية قبل الاتصال، فهؤلاء الناس يحبذون هذه العلاقات بهدف الممارسة. وبمعنى ما يستطيعون أن يغيروا العلاقات بدءاً من معطيات جارية -علاقات السلطة أو سواها- باستعمال قوى الجاذبية في العلاقات الغرامية. فالاتصال، في اشتراكه مع علاقة ما، يمكن ان يخلق علاقته أكثر من توقفه على أنواع العلاقات التي تتطلب بعض أشكال السلوك.

في هاواي لا اعتراض لديهم على ترك الحب يمضي على هواه، فيؤلفون جماعات ارتباط انطلاقاً من قوى الجاذبية. وتحرص عامة الناس على ان يتزوج الزعيم بناتهن، فتلك وسيلة اكيدة لعقد صلة معه اذ يصبحون اقاربه، وبذلك يتمكنون من اكتساب الأراضي وبعض المزايا. وفي كل اسرة لدى عامة الناس يفردون ولداً، هو المولود الأول أولا -ويصدف ان يكون المولود الثاني- ليجعلوا منه كائناً «مقدساً». فينشؤونه ويربونه بطريقة تجعله جديراً بان يتزوج اميرة، واذا كان المولود بنتاً بان تتزوج زعيماً. وهؤلاء الأولاد تعاملهم اسرهم كـ«زعماء» مع احترام المحرمات ذاتها بالنسبة إلى

الزعماء الحقيقيين، وهذا يشكل لدى عامة الناس، على نحو ما، قرباناً مقدماً إلى الآلهة. وتعتبر امكانية المصاهرة الواردة دوماً مع أحد الزعماء وسيلة للحصول تلقائياً على ما يحسن الوضع المعيشي. ولكن بما ان الزعماء يتبدلون باستمرار، فمن الواجب اجراء مصاهرات مع زعماء مختلفين لتحاشي الاستبعاد، ولذلك يقولون دائماً في هاواي «فتش عن الزعيم».

وتتصف المجتمعات البولينيزية بالتمركز الأقصي للسلطة والامتيازات في ايدي عدد قليل من الزعماء الوراثيين الذين يحكمون طبقات الشعب بطريقة يغلب عليها طابع الحكم الفردي المطلق أو الاوتوقراطي. أما قاعدة البكورية[11]، فهي في رأيي القاعدة ذاتها المطبقة في القربان اذ انهم يهبون للآلهة «الثمار الأولى» أو الأولاد الابكار. وفي لغة الماووري[12] يقولون ان المولود الأول هو «المكان الذي يوجد فيه الإله.» وعلى هذا النحو فان قاعدة الوراثة هذه هي أيضاً قربان يقدم إلى الآلهة لعقد صلة بالمنابع الإلهية للانجاب الذي يعتبر المشكلة البولينيزية الحقيقية. وبذلك يكسبون القدرة الالهية، بيد ان قواعد البكورية في هاواي لا تجري دائماً بمقتضى الأصول: فيهم يختارون أحدهم، وقد يكون آخر اكبر الابناء، ويفرزونه على حدة. أما فيما يتعلق بالبنات فهم يحتفظون بهن داخل البيوت لئلا يتعرضن لأشعة الشمس، ولكي يبقين ناصعات البياض، الخ... وفي وقت معين تمر جميع هؤلاء الفتيات امام الزعيم ليختار منهن. ويلجؤون عندئذ إلى قوى الجاذبية كمبدأ للإعداد. ولذلك يكون الاعداد في هاواي أكثر مرونة، فهو يتكرر في كل مرة بالطريقة ذاتها، ولكن مع أخذ الوقائع والأنسباء بعين الاعتبار أكثر من اتباع قواعد الزواج بدقة.

**** كيف تتدخل ادارة الزعيم في جنسانية الجماعة؟***

– يجري ذلك على مستوى تأسيس المجتمع. ثمة لعبة كونية حقيقية تنتقل ويُعبَّر عنها في حكايات الزواج. و«الإنجاب»، كما سبق لي ان قلت، هو المشكلة الكبرى لسكان جزر هاواي. والحكاية تقليدية: فالإله يقبل من

الخارج، هنا من السماء، والأمر في ذلك سواء، فيهبط من الغيوم، إذا صح القول. . . والواقع ان السماء والافق في جزيرة ما يختلطان، وهذا الإله، الذي يأتي من الجانب الآخر للافق، يأتي الزامياً من السماء. والزعيم، الذي تسميه لغة هاواي «السماء»، يخصب الأرض أو، اذا كنت تفضل، يخصب السكان البدائيين الذين كانوا قبله هناك. فهم يتجددون اذن بقدوم هذا الزعيم الغريب. تُروى هذه الحكاية كحكاية زواج اذ تُعطي ابنة كبير القوم القديم، أو الزعيم القديم لسكان الأرض، الزعيم الغريب ابنتها لكي يستطيع ان يتزوجها وينجب منها اخلافاً، وبهذه الطريقة تُدَجَّنُ القوى الغريبة تقريباً وذلك بتحويل هذا الغريب إلى محلّي - واحب ان اشير مروراً إلى ان الغرباء الذين سكنوا هاواي لفترة من الزمن ما زالوا يتحولون حتى اليوم إلى «محليين» ويصبحون «ابناء للبلاد» بالمعنى الحقيقي -. ونعود إلى هذا الغريب الشرس القادم من السماء، فهم يمارسون عليه نوعاً من التهجين يجعل من ذريته أخلافاً أمومين وكما قال افلاطون: «الأرض هي الأمّ الحقيقية، والآخرون يقلدونها». . .

لقد اتاحت لي حكاية هذا الغريب، وهي حكاية استفيض في التحدث عنها في أحد فصول كتابي، ان أؤكد ان تعاوضية[١٣] الكائن والممارسة تستند هي ذاتها الى تفاعلات الأحاسيس، ونتيجة لذلك فان كل تحديد لسكان جزر هاواي انما يجري بدافع بنيوي. أريد ان اقول ان مجتمعات كمجتمع هاواي، حيث يُعَدُّ عدد من العلاقات على الاختيار أو الرغبة أو المنفعة، ومن خلال استراتيجيات اتفاقية كاستراتيجية الحب، ليست لهذا السبب مجتمعات بنيوية ضعيفة على الاطلاق. والتأثيرات منهجية. . .

*** ما هي بالضبط هذه «التأثيرات»؟**

- تقوم مشكلتهم (وهي الانجاب) وديانتهم على التقاط الإله ليستطيع اخصاب الأرض والنساء. وترتبط هذه الرؤية بالزراعة النوعية للجذور اذ أن

الاله يلج الأرض. وبهذا المعنى فالحب «ألوها aloha»، الذي يشكّل وعي الشعب لتبعيته، هو في الحقيقة متجذّر في الثقافة، وذلك لان الكون نفسه يتجدَّد بالحب، بالانجاب. وعلينا ان ندرك ان كلمة «ألوها» في هاواي تدل تماماً على علاقة سياسية: وبهذا المعنى تضفي عامة الناس صفة المشروعية على ولائها للزعيم، وبالمقابل فان على الزعيم ان يَكنَّ الحبَّ لشعبه.

*** كيف يتم ذلك بشكل ملموس؟**

- على الزعيم قبل كل شيء ان يكون جميلاً، بل ذا جمال إلهي، مادام هو نفسه الغرض المميز للحب الكوني. ويصف الزعيمَ اتباعهُ على الدوام بـ«العزيز جداً»، و«بالحبيب»، وبـ«الأثير جداً» الخ... وهي صفات يضيف إليها سكان هاواي أحياناً «السماوي» لتقديس بهائه الذي لا يُضاهى! ومن البدهي أن تكون لهذا الجمال علاقة بالقدرة الجنسية للزعماء ومزيتهم الانجابية. وفيما يتعلق بالزعيم، وبسبب الصراع النسبي généalogique، تكون المشكلة السياسية الرئيسية هي مشكلة توسيع شخصه، والمقصود ان يؤدي دور «الشخصية الكبرى» لا لمراقبة الاخصاب فحسب، بل لاحتضان الآخرين، وتوطيد مبدأ التسلسل التاريخي، وضم المجموع أيضاً. ولهذا السبب لشدَّ ما أحب الزعماء الاشياء المتألقة التي تُجلَب من أوروبا كالأقمشة وسواها، وهذا هو الجمال لديهم، والبدانة أيضاً «جمال»، و«الجمال» هو جذب انظار الناس وجعلهم خدماً وعبيداً. وبحسب التقاليد، كانت ملابس الزعماء ذات جمال لا يضاهى، كالدثار الشهير المتعدد الألوان للملك كاميهاميها KAMEHAMEHA الأول، وكان يحوي أكثر من اربعمئة وخمسين ألف ريشة، وتمكن رؤيته الان في (البيشوب ميوزيوم) بهونولولو. وتروي احدى الاساطير وصول زعيم مجهول إلى احدى الجزر: وكان خارق الجمال بحيث ان الطيور، والحشرات، والناس، وكل ما هو موجود قد صمتت لدى رؤيته! وبفضل الهالة التي تحيط بالزعيم وبسبب تصرفه الجذاب، يمكنه ان يعيش ويفرض نفسه. وعلى المرء ان يدرك ان صلات

الزعماء بالناس معدومة، فكأنهم يهبطون، اذا أمكن القول، بالمظلات عن طريق الزعيم الحاكم في مختلف مناطق الجزيرة حيث يصلون من دون أية علاقة لهم بعامة الناس. فهم لا يمتون اليهم بنسب، كما انهم لا يملكون لقب الزعيم المحلي بل لديهم رأسمال هو «الهالة». وهذه الهالة بديل لاقامة الصلات. ومقابل جاذبيتها وجمالها الواعد بالخصب، يجب على الناس ان يعطوا أشياء. وعندما يعطون يقولون: «هذا من أجل هالة الزعيم». فالجمال هنا سياسي، ويؤدي دوره كمبدأ للتنظيم، والسلطة، والاخصاب.

***كيف تنضم الرغبة التي يولدها الجمال -والتي اعلم انها موجودة في علم الكونيات أو الكوزمولوجيا البولينيزي- الى هذا الهاجس بالانجاب؟**

- بصفة كونها قوة جذب قادرة على ان تفرض التبادل مقابل الرغبة، فالجمال يمكن ان يصلح معادلاً نفعياً لمعايير المبادلة. يقال: «حيث يسود الجمال، تكون المملكة جميلة»، والجمال عوض عن القدرة الجنسية، وهو لا يحل محلها تماماً لكنه يتيح تصعيدها. وتأثيراته كتأثيرات «المانا»[١٤] توسطها العين أو النظر. وعلى هذا فالرؤية في لغة هاواي تعني «الفهم»، ولكنها تعني أيضاً «المعرفة الجسدية». لا أريد هنا ان اتوسع بالثروات الرمزية لهذه التداعيات، ولكن إعلَمْ أن العامي من الناس لا يمكنه ان ينظر بلا عقاب إلى معلمي المحرَّمات الكبرى، والزعماء، والآلهة. ما ابحث عن عمله هو اقتصاد سياسي للحب، الحب باعتباره البنية التحتية والجنسية والعملية. وليس من الصعب جداً أن نفسر ان الغزوات الجنسية هي الوسيلة للحصول على سلسلة من المنافع المادية، ولكن من الأصعب ان نبين ان بنية المملكة هي الشكل التصعيدي لقوى جاذبيتها الجنسية. ولقد قلت سابقاً ان مجتمع هاواي لم يكن عالماً من الجماعات ذوات القربى وأعني صلات القربى غير المحددة بدقة والمفروضة بدقة. وهذا هو السبب في ان التقاليد الإناسية الجيدة للانساب «بالجسد» ولقواعد الزواج المتوقعة لا تسير سيراً حسناً. فهذا

المجتمع -الذي لا استطيع شيئاً حياله- لم يكن يقبل معايير أو أشكالاً محددة سلفاً، الأمر الذي لا يجرده من شيء من تعقده. فلا أثر في هاواي لنظام سياسي مقسم تبعاً للتدرج الاجتماعي، أي من الاسرة إلى الدولة. والتنظيمات الاجتماعية مؤسسة على الرمال المتحركة للحب التي تتقلب باستمرار. فسكان هاواي لا يبحثون بخاصة عن تحديد تدرجهم بل عن قرابتهم للأسلاف: انهم يعنون بان يختاروا لانفسهم انساباً صاعدة.

*** ما هو بالضبط مكان القرابة في العلاقات الاجتماعية؟**

- بنية هاواي بنية اداء عملي، فهي لا تفتأ تؤسس علاقاتها على المعيش، أي على الممارسة، وقبل كل شيء على الممارسة الجنسية. ويفوت المنطق الثقافي علمنا الاجتماعي والتاريخي. والتمييز بين الدولة والفكر أو بين الغذاء والعمل غير متناسب، اذ يمكن أن يولد الأفراد على حد سواء اقرباء فيما بينهم أو يصنعوا لهم قرابة. ان «التغذية» بلغة هاواي تعني أيضاً «التبني»، فهي اذن تعبير يقيم الصلة بشكل فعال ومتساوٍ بين القريب والطفل كما تقيمها الولادة. وللاقرباء أو الوالدين والاطفال قاسم مشترك هو الغذاء الانساني. والمتناسبون هم اناس من النوع ذاته، يكوّنهم الشيء ذاته، سواء بانتاج هذا الغذاء المشترك أو باستهلاكه. ولذلك فان الشخص الذي يجد ما يغذيه في بلد معين يصبح ابن هذا البلد، شأنه في ذلك شأن المولود فيه. وفي علم الاشتقاق الشعبي تحمل كلمة «بلد» أيضاً معنى «الأرض المغذية»، و«ممارسة الحب» في جميع انحاء بولينيزيا تعني «الأكل».

*** وعلى هذا فكيف «يأكلون» في هاواي؟**

- يثير الجنس، من وجهة النظر الليبيدوية -نسبة إلى الليبيدو -Libido[١٥]-، اهتماماً متقداً، ولكن يجب الا ننسى انه أيضاً عشق مستفيد، بالنظر إلى المنافع العملية التي يقدمها! ويهتم أفراد الشعب اهتماماً بدهياً بالمفاخر الجنسية للنبلاء، ويطمحون إلى ان يصيروا هم انفسهم موضوع

تعلقهم، وذلك بعلاقة جنسية صرف اذا أمكن. والزعيم هو «الانتفاخ الكبير» أو «القضيب الكبير»، وهو تناسلي عظيم، وبما ان الانجاب مشكلة كونية، فان الزعيم يدخل في اللعبة كمخصب للأرض (والنساء). وتجب رؤية موضع الحب في العلاقات الاجتماعية بدءاً من النظام النسبي. ففيما يتعلق بعامة الناس ليس هناك اذن أية حماية نسبية ما دام النسب معدوماً على اعتبار ان الزعماء المحليين انما يقبلون من الخارج. وعلى العكس فيما يتعلق بالزعماء، فانهم يجدون في ذلك منفعة حتى لو استفادوا من الانتماء إلى نسب، وحتى لو استقروا في وضع نسابي يخلق الدولة بطريقة ما، وذلك لان الزعماء يتقاربون فيما بينهم أكثر من تقاربهم من عامة الناس، كما انهم يفوقون الآخرين بتطابقهم النسبي. والعلاقة بين الزعماء والآخرين علاقة على الأقل مادية، لانهم يتصارعون فيما بينهم ويحتاجون، ليكونوا هم الأقوى، إلى خلق صلات خارج النسب، أي صلات مع عامة الناس. وعلى هذا يجب ان يتبادلوا الافتتان، الأمر الذي يفسر ألعاب الحب، والأسماء، وتمجيد البطولات الجنسية بأغان تناسلية.

* **الحب اذن سياسي في جوهره؟**

– بنية المملكة هي الشكل التصعيدي لقوى جاذبيتها الجنسية. والحب هو البنية التحتية، والغزوات الجنسية هي الوسيلة للحصول على سلسلة من المنافع المادية، كما فسرت ذلك. وفيما يتعلق بالزعيم يجب ان نحدد بدقة ان علاقاته مع انسبائه ومع اخوته الأصغر منه سناً تبلغ حد التوتر الأقصى، فلهم الوضع النسابي نفسه، ويشكلون جزءاً من خط النسب ذاته، ولكنهم فيما يتعلق بالسلطة منافسوه. ولأسباب كونية فان الأصغر سناً ليس الخلف بمقتضى القاعدة، ولكنه بحسب الاساطير وبشكل عملي هو الذي يكسب دائماً. ويمثل الأصغر سناً الانسان، بينما يمثل البكر الإله، وبينهما تقع المنافسة. وعلى هذا فالحب «ألوها aloha» هو الوسيلة لتوسيع المصاهرات مع اناس أدنى يمكن إحلالهم محل الانسباء لادارة الدولة. كل شيء يتعلق

بالمصاهرة وبأنماط هذه المصاهرة أكثر مما يتعلق بالنسب. فالتنظيم النوعي للسياسة يرتبط اذن بالنساء اللواتي يتزوجهن الزعيم، وبالمصاهرات التي يتوسع بها لابعاد انسبائه. وثمة احساس بان الزعيم على اطلاع دائم بانه سوف يُقتَلُ أو يُنحَّى عن طريق الحرب. ويتّهم الخَلَفُ دوماً بانه على الأقل قد سمَّم سَلَفَه أو سحره. ومن المؤكد ان الزعيم الخلف هو نفسه من الوجهة النسابية، ولكن ذلك لا يمنع ان يكون الآخر قد مات وفعلاً مات! ويمكن القول ان كل ملك في هاواي هو غازٍ ما دام قد قتل سَلَفَه بطريقة أو بأخرى. وهذا هو ما يعطيه على أية حال حق اعادة توزيع الأراضي على أحلافه أكثر من توزيعها على من هم أصغر منه سناً، والمقصود احلافه من ابناء الشعب الذين يثق بولائهم عن طريق العلاقات الغرامية التي يقيمها معهم.

اما فيما يتعلق بعامة الناس، فالخطر يكمن في عدم اقامتهم علاقات مع الزعماء المتعاقبين الذين يفرضون انفسهم، وهكذا يُعزلون من السلطة ويصبحون عملياً بلا موارد، وكل زعيم يصل يعيد توزيع الأراضي، ويستبعد الاشخاص الذين لا يعقدون معه أية صلة. ومن الجوهري، فيما يتعلق بمن يريدون ان يحتفظوا بالأراضي في الأسرة، ان يعقدوا معه دوماً صلات جنسية، ما داموا لم يرتبطوا معه بعد بعلاقات نسبية ثابتة. والأرض هي لعبة ومجازفة سياسية، وتقوم هذه اللعبة على العلاقات التي تُعقد مع الزعيم. والوسيلة الوحيدة، فيما يتعلق بعامة الناس، هي ان يتميزوا بالعلاقات الجنسية.

*** ومن أين أتت اسطورة هاواي، أو هذا الاتجار بالجنس مع الغربيين؟**

- من سوء فهمٍ حتماً. أروي حكاية القبطان كوك COOK وبحارته. وما حصل مع سكان هاواي قد أدى في النهاية إلى الغاء ألوهة الملاحين الانكليز، وإلى كسر المحرَّم. وهكذا حُفرت هوةٌ بين حضارتينا. في البدء ارتبط سكان هاواي، من رجال ونساء، بصلات مع هؤلاء الغربيين كما لو

انهم كانوا آلهة. ثم تغير التعامل، وانحرفت علاقات النساء في هاواي نحو البغاء: اصبحت أكثر فأكثر وسيلة للحصول على الموارد الأوروبية. وكان الزعماء هم الذين بدأوا، ان امكن القول، فخلقوا بمنافساتهم، وهاجس التميز لديهم (وهو مشكلة سياسية حقيقية)، وتذوقهم للجدة، تضخم المواد: فبعد الفؤوس ارادوا الحصول على بنادق، وبعد البنادق على أقمشة الخ... وباختصار على زينات وأشياء جديدة دائماً، ما إن يحصل عليها زعماء آخرون أو تستعملها العامة في أسوأ الأحوال، حتى تصبح عديمة الفائدة أو محرّمات.

*** يشعر المرء بأن بولينيزيا تشكل مجتمعاً يقوم على البحث الدائم عن الجدة.**

- الجدة هي في الواقع الطريقة التي يتمكن بها زعماء السلطة من التميز بعضهم من بعض. وكما قلت سابقاً فان المشكلة فيما يتعلق بهم تكمن في استطاعتهم جميعاً أن يصعدوا بنسابتهم حتى الآلهة. كيف يتم انجاح التميز بين الكائنات: بالاختلاط مع الآخرين وبالحركة والتغير أيضاً. انهم يبحثون باستمرار عن اشياء جديدة ومبتكرة. فهم يحبون الظهور إلى أبعد حدا والمقارنة مع هنود الساحل الشمالي الشرقي لامريكا الشمالية مثيرة للاهتمام: فقد كان هؤلاء الهنود يبحثون دائماً، في علاقاتهم مع الأوروبيين، عن الشيء ذاته: عن اغطية - كانوا يستعملونها بشكل خاص من أجل البوتلاتش Potlatch-[١٦]. وتختلف هنا كوزمولوجية الزعامة عما هي عليه في هاواي. فللهنود انساب أو «بيوت»، كما يقول ليفي-ستراوس، تختلف آفاقها تماماً ولا مثيل لها: فأحدها يأتي من حيوان ما، والآخر من حيوان منحدر من السماء أو مقبل من البحر. وباختصار فلا مجال للمقارنة بين زعيم وآخر. أما فيما يتعلق بالأغطية، وغالباً ما تكون جميعها متشابهة -أو غير متشابهة- فانهم يوزعونها ليتفاضلوا بثروة الاسلاف، ويقيسوا الفروق بينهم جماعياً وكمياً. وليست المشكلة في

هاواي مشكلة كم، بل مشكلة نوع وطرافة، وتُرتِّب كوزمولوجيةُ الزعامة امورها بطريقة أخرى مع التجارة الاوروبية.

أنباء ثقافية عالمية

* ***تُوجَّه في الارجنتين انتقادات لاذعة إلى ماريا كوداما KOD-AMA، أرملة خورخيه لويس بورخيس، لانها سمحت في نطاق الأعمال الكاملة لبورخيس بنشر نص يعود إلى ١٩٢٦، كان الكاتب الكبير قد تنصل منه.*** عنوان هذا النص (مقدارُ أملي) وهو يتضمن جميع محاسن الشباب ومساوئه بينما كان بورخيس تحت تأثير التطرف يلعب لعبة الخط والنحو. وكان قد سمح بنشر قسم من هذا النص بالفرنسية في طبعة أعماله الفاخرة -البلبياد-، على اعتبار ان الاختلافات الخطية والنحوية تختفي في الترجمة. وتسوِّغ ماريا كوداما -التي يتهمها ناقدوها بانها قبضت لقاء ذلك مبالغ جيدة- اقدامها على هذا العمل بان الناس يتداولون عنه نسخاً مشوَّهة وضارة، وان بورخيس قد استسلم آنذاك للأمر الواقع. والجدير بالذكر أن المجلد الذي يحوي هذا النص قد بيع منه في الارجنتين وحدها ما يتجاوز الخمسة عشر ألف نسخة.

* ***كان تي.إس.إليوت عام ١٩٢٦، وبكلية الثالوث في كمبردج، قد القى أمام جمهور مشدوه عدة محاضرات حول موضوعات كان مشغوفاً بها وهي:*** (دانتي وابطاليا القرنين الثالث عشر والرابع عشر)، و(جوان دون DONNE وشعراء الميتافيزياء في مطلع القرن السابع عشر) و(الشاعران الفرنسيان جول لافورغ LAFORGUE وتريستان كوربيير CORBIÈRE في فرنسا أواخر القرن التاسع عشر). واعاد النظر في محاضراته من أجل القائها في سلسلة من الدروس في بالتيمور عام ١٩٣٣. ولقيت هذه الدروس النجاح ذاته. على ان اليوت، في نزوعه الدائم إلى الكمال، لم يرضَ عن هذه النصوص ولم يشأ ان ينشرها بعد ان وجد أنها لا

توفي الموضوعات التي ارادها حقها. وهاهم ورثته ينشرونها الآن تحت عنوان (تنويعات حول الشعر الميتافيزيائي، منشورات فابر). وهكذا تبين ان اليوت قد اخطأ للمرة الأولى في نظرته إلى أعماله.

* *هل يمكن ان نتصور اوسكار وايلد وقد تنكر بزي الاميرة والراقصة التوراتية الشهيرة سالوميه مرتدياً لباس راقصة شرقية شبه عارية بجواهرها وحجبها الشفافة؟* بلى، يمكن ذلك ما دامت امامنا صورة له ضوئية تمثله بهذا الزي، وهي صورة ظهرت في عدة صحف ومجلات منذ اوائل الثمانينات من هذا القرن. واذا كان بعض الاختصاصيين ما يزالون يشكون بصحة هذه الصورة فان ريتشارد إيمان يؤكد أنها صحيحة حين نشرها في السيرة الشهيرة التي كتبها عن اوسكار وايلد والتي صدرت عن دار هاميش هاملتون. وبنشره هذه الصورة اقترف خطأ، اذ يروي مارلين هولند، وهو المسؤول عن طبع الأعمال الكاملة لوايلد وقد ظهرت في لندن منذ عدة سنوات، قصة هذه الصورة وما يحيط بها من جو اسطوري. ففي الخمسينات سمح هاو من هواة جمع الصور هو غيبو روسيكس للهاوية الكبيرة السيدة روجيه - فيوليه ROGER- VIOLLET ان تنقل محفوظاته عن وايلد. وتبين لهذه السيدة انه توجد صورتان لسالوميه: الأولى تمثلها أو تجسدها الراقصة «ليونور سانغيرن» التي مثلت دور (سالوميه) اوسكار وايلد، والثانية تجسد سيدة من مدينة كولونيا بألمانيا تدعى «مدام غوزاليفيتش». وقد احتُفظ بصورة سانغيرن وضاعت الصورة الثانية إلى ان عُثر عليها بألمانيا مؤخراً فاذا بها تجسد مغنية ذات صوت صادح هي «أليس غوزاليفيتش» التي غنت بموهبتها ومهارتها (سالوميه) الموسيقار الالماني ريتشارد شتراوس (١٨٦٤ - ١٩٤٩) وتحت قيادته في ٢ تموز ١٩٠٦. وبهذه الصورة قُطع الشكُّ باليقين، وتبين ان وايلد لم يمثل دور الراقصة المشهورة.

* *التقى نورمن مايلر الممثلة والمغنية والراقصة الامريكية اللامعة مادونا* MADONNA، *وكان لقاء صريحاً وقاسياً بعض*

الشيء وان يكن قد بدأ بارتفاف الجفون وهديل الغزل. ووجد نورمن مايلر الذي تزوج حتى الآن ست مرات، امرأة تقول له للمرة الأولى: «لا شك في انك مصيب»، وذلك بخصوص كتابه (الجنس) الذي يراه ما يلر رديء الكتابة، مخيباً للآمال الخ. . . وفوراً اعلن أن مادونا امرأة ذكية. وارتفع تبادل الحديث بينهما إلى مستوى عالٍ. وعرف مايلر وهو الاستاذ المحنك ان عليه، لكي يستدرج مخاطبته إلى الافاضة بالحديث عن افكارها واسرارها، ان يكون صريحاً: «علينا ان نكون واقعيين وندفع الثمن. . . ان الفراغ هو أهم عامل من عوامل وجودنا. انني أعمل، وأعمل، وأحياناً اعطي كل شيء، ولكني بالمقابل لا اتلقى شيئاً». وتعقب مادونا: «هذا ما يشعر به المرء على المسرح. . . ألوف من الناس يأتون ليروك ويسمعوك. وفي خلال ساعتين تحس بمسؤولية ساحقة. ولكنك لا تستطيع ان تغادر غرفتك بالفندق من دون جيش من الحرس ومع ذلك تبقى وحيداً. وتفكر: «عجباً! أهناك شيء ما يسيء إلى اللوحة بمجملها؟»».

هوامش

(١) جورج فيدو FEYDEAU: كاتب مسرحي فرنسي كبير (١٨٦٢ - ١٩٢١). يعتبر ثاني المسرحيين الهزليين في الأدب الفرنسي بعد موليير. له مسرحيات اجتماعية تعتمد النقد والتحليل النفسي أشهرها: (الديك الرومي)، (السيدة القادمة من لدى مكسيم، ١٨٩٩)، (اعتنِ باميلي! ١٩٠٨)، (لا تتنزّهي وانتِ عارية تماماً، ١٩١٢) وسواها.

(٢) بولينيزيا POLYNÉSIE: أحد قسمي قارة اوقيانوسيا. تشمل مجموعة الجزر الواسعة المتدرجة في المحيط الهادئ إلى الشرق من اوستراليا، وميلانيزيا، وميكرونيزيا. وأهم الارخبيلات التي تكون بولينيزيا هي: بولينيزيا الفرنسية، زيلندا الجديدة، الساموا، جزر هاواي الامريكية، جزر التونغا أو جزر الاصدقاء، ايليس، فينيكس البريطانية. ويسكن بولينيزيا - ماعدا زيلندا الجديدة- شعوب بدائية ذوو قامات طويلة وبشرة سمراء فاتحة. ويعيشون اجمالاً من زراعة اشجار جوز الهند، والصيد، والسياحة.

- جـزر هاواي HAWAÏ (أو سندويتش قـديماً): ارخبـيـل بركـاني في بولينيـزيا . ١٦٧٣١كم٢، ٧٥٠،٠٠٠ . تقريباً . الولاية الخمسون في الولايت المتحدة الامريكية منذ عام ١٩٥٩ . عاصمتها هونولولو . محصولاتها السكر والبن والأناناس . قاعدة حربية ومركز سياحي .

(٣) روبرت لووي R.LOWY : عالم سلالي امريكي، ولد في فيينا (١٨٨٣ - ١٩٥٧) . درس في اعماله بخاصة سلالات امريكا الشمالية وطرائق الإناسة أو الانثروبولوجيا الثقافية .

(٤) فرانتس بواس F.BOAS : عامل سلالي امريكي . انصب اهتمامه على دراسة منشأ الهنود الحمر وعاداتهم وانماط معيشتهم .

(٥) نسبة إلى ميلانيزيا MÉLANÉSIE (وتعني «جزر السود») : وهي القسم الآخر من قارة اوقيانوسيا . وتشمل غينيا الجديدة، ارخبيل بيسمارك، جزر سليمان، كاليدونيا الجديدة، الهيبريد الجديدة، جزر فيدجي، ارخبيل اللويزياد .

- جزر فيدجي أو فيجي FIDJI OU FIJI : ارخبيل في مالينيزيا . ٦٠٠،٠٠٠ نسمة تقريباً . قصب السكر، ومناجم ذهب . مرفأ جوي . دولة عضو في الكومنولث البريطاني منذ ١٩٧٠ .

(٦) بنية فوقية : SUPERSTRUCTURE : مجموع المؤسسات والافكار والثقافة في مجتمع ما .

(٧) عِرافة -بكسر العين- ETHNOGRAPHIE : علم يبحث في خصائص الشعوب .

(٨) المساحية -بكسر الميم- CADASTRAL : الموجودة في سجلات المساحة .

(٩) جيمس كوك JAMES COOK (١٧٢٨ - ١٧٧٩) : بحار ورائد انكليزي . تجول في اوقيانوسيا (بولينيزيا) وقُتل في جزر سندويتش (هاواي) . كان من اوائل الذين فتحوا الطرق للأسفار العلمية .

(١٠) جوهرية ESSENTIALISTE : صفة من الجوهرية ESSENTIALISME، وهي نظرية فلسفية تقر ان الجوهر يسبق الوجود، بعكس الوجودية .

(١١) البكورية PRIMOGÉNITURE : كون الولد بكر أبويه .

(١٢) الماووري MAORIS : سكان نيوزيلندا البدائيون .

(١٣) تعاوضية INTERCHANGEABILITÉ : حالة كائنات أو أشياء يمكن احلال أحدها مكان آخر .

(١٤) المانا MANA : قوى الطبيعة (في الاديان البدائية ، قوة خفية هي في رأي علماء الاجتماع أصل فكرة السبب) .

(١٥) الليبيدو LIBIDO : طاقة حيوية شبقية في جوهرها تتمثل فيها غريزة الحياة .

(١٦) البوتلاتش : مهرجان ديني عند هنود امريكا الحمر ، تُتبادل فيه الهدايا .

كتاب الشهر

الإدارات الأمريكية ... وإسرائيل

ميخائيل عيد

** قيل لنا أو قيل فينا: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» ومازلنا نلدغ من الجحر منذ عقود من غير أن نتعلم كيف نتجنب الأذى. والأدهى أن طائفة من أهلنا قد جعلت من عبها وكراً للأفعى فباضت هناك وفقست... وهم يزعمون، ليل نهار، أن لدغاتها القاتلات أشهى من قبل الحبيبة، والويل للذين لا يصدقون ما يزعمون..*

ـ ميخائيل عيد: أديب وشاعر من سورية، يكتب الشعر والقصة والمقالة، يهتم بالترجمة. من أعماله: «حكايات وأغاني»، «ملاحم الجبال الهرمة»، «أبطال وطباع».

وإذا كان صديق العدو عدواً، كما قالت القدماء، فإن عدونا وصديقه يتباريان في الاعتداء علينا، وفي إلحاق الأذى بماضينا وحاضرنا ومستقبلنا. . . وأما نحن. . . فبعضنا يتفرج وبعضنا يقبل اليد التي تلطم خده. . . . وبعضنا الآخر يتميز غيظاً. . . وكم يغيظ الحر أن يرى الشر يستفحل وهو عاجز عن ردعه أو الحد من خطره.

ولقد خبرنا من أذاهم مايجعل كل قول خطير يبدو غير خطير، وصرنا نشعر، على فظاعة مانرى ونسمع، أن المخفي أفظع وأبشع. . .

كتاب الشهر الذي يثير هذه الشجون هو «الادارات الامريكية. . . واسرائيل» للاستاذ الباحث هشام الدجاني. . . والكتاب يحمل الرقم(١١) من سلسلة «دراسات سياسية وفكرية» التي تصدرها وزارة الثقافة في دمشق.

يضعنا الكاتب مباشرة، في الأسطر الأولى من مقدمة الكتاب أمام العلاقة الفريدة في نوعها «حيث ترتبط قوة عالمية كبرى بدولة صغيرة ارتباطاً لم يحدث له مثيل في تاريخ العلاقات الدولية. وهي علاقات أكدت على الدوام أنها أقوى من أي تحالف مكتوب». لم تقم امريكا أية علاقة مشابهة مع دولة أخرى، علاقة يزود الأمريكيون اسرائيل بموجبها بكل مقومات الحياة اليومية». ويرتبط «البلدان بشبكة وثيقة من العلاقات السياسية والعسكرية والثقافية.»(ص٩).

أما علاقاتهما على صعيد الاستراتيجية فتقوم على أساس من مصالحهما المشتركة. . مع أنها لاتخلو «أحياناً من بعض التعارضات المحدودة والمؤقتة».

ويلخص المؤلف أسس توافقهما الاستراتيجي بالنقاط التالية:

- تفوق عسكري اسرائيلي دائم. فاسرائيل في المنظور الأمريكي «مصلحة وطنية أمريكية».
- تكريس حالة الانقسام في العالم العربي، وتحييد سلاح النفط.
- تعزيز النفوذ الامريكي في المنطقة.
- ضرب القوى الراديكالية العربية وخاصة في بلدان الطوق. وقد «ارتضت اسرائيل بنوع من التبعية للولايات المتحدة نظراً لحاجتها الماسة لمساعداتها الاقتصادية والعسكرية، بل واستمرار وجودها نفسه، مقابل أن تقدم للولايات المتحدة «خدمات متنوعة» ترتبط بصورة مباشرة أو غير مباشرة بمصالح أمريكا، والغرب عموماً في المنطقة»(ص١٠).

وتبقى خصوصية العلاقات بين «الحليفين» موضوع جدل . . وقد تباينت الآراء حول طبيعة جوهر هذه العلاقات.

ثمة من يتكلمون على دور اللوبي الصهيوني «في أوساط صناعة القرار الامريكي ويشتط بعض هؤلاء فيقول إن اسرائيل هي التي ترسم سياسة امريكا الخارجية في المنطقة!» ويرى آخرون أن «اسرائيل مجرد أداة ووسيلة لتحقيق أهداف السياسة الامريكية في الشرق الأوسط» ويسلك فريق ثالث «مسلكاً وسطاً فيرى أن اسرائيل مهمة بالنسبة للولايات المتحدة بحيث لاتستطيع الاستغناء عنها، كما أن حبل السرة الامريكي حيوي جداً بالنسبة لاسرائيل بحيث لاتستطيع أن تقطعه».

أما لماذا اسرائيل ضرورية للولايات المتحدة؟ فالجواب عنه في دراسة امريكية تقول «إن اسرائيل مؤسسة عسكرية متطورة ومتقدمة، وقدرة أمنية جيدة، بالإضافة الى موقعها الاستراتيجي مما يساهم في تحقيق الأهداف الامريكية في المنطقة» (ص١١) وهي «على مقربة أيضاً من المصادر النفطية في الخليج».

الدور الاسرائيلي، إذن، مرسوم من الخارج وقد فصلت اسرائيل على قده «وهو دور مأجور ومدفوع الثمن، وليس من أجل محبة اسرائيل أو يهودها في الولايات المتحدة» فالولايات المتحدة لاتنفق «بلايين الدولارات على المساعدة العسكرية والاقتصادية لمجرد الشعور بالالتزام الأخلاقي تجاه اسرائيل، أو بسبب ضغط اثنين بالمائة من سكانها. لابد أن هناك شيئاً أكثر واقعية ومادية في الرهان، وهو أن اسرائيل يجب أن تكون مصدر قوة لأمريكا.»(ص١٢).

«ولكن كيف تكون مفيدة ومؤدية «لدورها» على أفضل وجه!» يجيب شمعون بيريز «تحقق الولايات المتحدة مزايا عديدة من دعمها الواسع لاسرائيل. فهزيمتنا لمصر أدت إلى تحويلها من حليف للسوفييت إلى حليف لأمريكا.» وأسرائيل بهذا المعنى هي «رجل امريكا في المنطقة. الرجل الذي يقوم بالمهمات الصعبة والقذرة التي لا تستطيع الولايات المتحدة القيام بها مباشرة»(ص١٣).

إن التركيز على دور اسرائيل المعد لها من الخارج لاينبغي أن يجعلنا نغفل «دور اللوبي الصهيوني داخل الولايات المتحدة، وداخل المحافل المهمة الصانعة أو المؤثرة في القرار السياسي الامريكي تحديداً. ولعل التشابك في المصالح

والعلاقات والتأثيرات المتبادلة على الصعيدين الداخلي والخارجي هو مايجعل هذه العلاقات فريدة بحق».

«كما أن المبالغة في دور اللوبي الصهيوني وتأثيره الاسطوري» هي بدورها «نوع من السذاجة السياسية المفرطة ومن المؤسف أن نجد كثيرين من المسؤولين السياسيين العرب، وكذلك بعض المفكرين السياسيين ينحون هذا المنحى في المبالغة بدور اللوبي الصهيوني.» مع أن هذا اللوبي «يعمل في أجواء مشجعة ومتجاوبة أصلاً» وخصوصاً على «صعيد الرأي العام والإعلام»(ص١٤).

أما التزام الولايات المتحدة نحو اسرائيل فقد اعتبره الرئيس ريغان تقليداً إذ قال: «أنا أعتقد، وهذا ليس حكراً على إدارتنا، بأنه منذ عام ١٩٤٨ عندما أصبحت اسرائيل دولة، كانت سياسة الحكومة الامريكية، في عهد المشرعين والرؤساء الديمقراطيين والجمهوريين، ترتكز على التحالف مع اسرائيل، والتأكيد على استمرارية اسرائيل كدولة. ولاأعتقد أن أية إدارة أمريكية ستتخلى أبداً عن اسرائيل».

ويعمل اللوبي الصهيوني «وفق خطط مبرمجة ومنظمة لتعميق واستغلال مصلحة الولايات المتحدة بوجود اسرائيل قوية وحليفة لتحقيق مزيد من المكاسب لدولة اسرائيل، أو للحيلولة دون ما يتعارض مع مصالح اسرائيل ومطامحها الاقليمية قدر الإمكان» وهو يفعل ذلك «عن طريق الكونغرس والإعلام الامريكي»(ص١٥).

أما الكلام على التعارض بين المصالح بين الجانبين، فهو كلام مبالغ فيه يضخمه الإعلام الامريكي والاسرائيلي... فجماعات الضغط الصهيوني تعرف «متى تقف وأين تقف، وإلى أي مدى يمكن أن تذهب».

ويستغل اللوبي الصهيوني الخلل في النظام السياسي الامريكي «وفي النظام الانتخابي تحديداً لتحقيق مكاسب ونفوذ لصالح الأهداف الصهيونية» (ص١٦) وهم يركزون أصوات اليهود «حيث تكون مهمة جداً» خصوصاً في ولايتي نيويورك وكاليفورنيا. وأكثرية السياسيين من نيويورك «يتكلمون وكأنهم، تقريباً، سفراء لاسرائيل»... فهذه القوة الانتخابية الموظفة جيداً «كانت باستمرار عاملاً مساعداً للوبي الصهيوني للسيطرة على عديد من أعضاء الكونغرس» وهناك عامل «التبرعات اليهودية» (ص١٧) فالمال «اليهودي لعب

دوراً رئيسياً في الممارسة الحالية للقوة اليهودية» وهذا العامل لايغيب عن ذهن المرشحين للانتخابات وحتى بعد نجاحهم. ومرشحو الحزب الديمقراطي «كانوا ولايزالون يعتمدون أساساً على التبرعات اليهودية في تمويل حملاتهم الانتخابية»(ص١٨). وكثيراً مايصور الكونغرس على أنه «الوحش الصهيوني» وتعود أهمية الكونغرس إلى تأثيره غير المباشر على كل من الرأي العام والاعلام» (ص١٩) ومواقف «الكونغرس متعاطفة إجمالاً مع اسرائيل» وهو «الذي يقرر مستويات المعونة ويصادق عليها» (ص٢٠).

«إن عملية الانتخابات كل أربع سنوات تترك اثارها المؤذية على السياسة الخارجية» والصهاينة يعرفون كيف يستغلون «عيوب الدورة الانتخابية» (ص٢٣).

وإذ يستقرىء المؤلف خلفيات النفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة «الأشبه بالاسطورة» يجد أنه لايعود الى «قوة يهود الولايات المتحدة الصهاينة» بقدر مايعود الى «الصهيونية غير اليهودية، أي الصهيونية المسيحية»، «فهناك مايزيد عن ٢٥٠ جمعية صهيونية مسيحية يعود تاريخ تأسيس بعضها إلى القرن الماضي» (ص٢٤) والتعاطف مع المسألة اليهودية ملازم «للثقافة الغربية منذ أوائل القرن الماضي» «وهناك بعض الطوائف المسيحية «المعمدانية» تؤمن بأن عودة المسيح مرهونة بإقامة دولة إسرائيل».. ثم يقول المؤلف، لكن هذا التيار المتعاطف «مع اليهودأو مع اسرائيل بمشاعره الدينية ليس هو التيار الفاعل أو الصانع للقرار» إن التيار الأقوى هو «الموجود داخل الكونغرس، وداخل الحزبين الجمهوري والديمقراطي، وداخل عدد من المؤسسات الفاعلة والمهيمنة على صناعة القرار السياسي» وهو يرى أن «اسرائيل حليف استراتيجي رئيسي للولايات المتحدة وضرورة استراتيجية» (ص٢٥).

ويتكلم المؤلف على «حدوث بعض التعارضات في مسيرة العلاقات التحالفية الطويلة بين البلدين» وهي أمر طبيعي... وهي خلافات «في وجهات النظر حول تقويم الأولويات، أو تقدير أهمية المصالح» ومثل هذه التعارضات تنتهي «في معظم الأحيان بانتصار وجهة النظر الأمريكية، وهذا أمر طبيعي»(٢٩).

«ربما كان شعور اسرائيل بأهميتها الاستراتيجية» «قد جعل قادتها ينتهجون

سياسات طموحة وجريئة، تبدو مستقلة ظاهرياً عن سياسة حاميتها وحليفتها . . . الأمر الذي كان يدفع بعض الادارات الأمريكية الى القيام «بفركة اذن» صغيرة للمسؤولين الاسرائيليين لتذكيرهم بأن «السلسلة» الامريكية ماتزال معلقة في رقبتهم، وبأنهم ساروا أبعد قليلاً أو كثيراً مما ينبغي» (ص٣٠).

«ولعل أكثر مايغيظ الاسرائيليين أن الولايات المتحدة كثيراً ماتكبح جماحهم، وتمنعهم من إكمال انتصارهم المحقق أو المرتقب حتى نهايته. وأنها تتدخل في الوقت المناسب لجني معظم ثمار الخدمات التي يقدمونها.» ويسأل بعضهم: «لماذا يجب أن تتحمل اسرائيل وحدها أخطار الخدمات التي تؤديها في حين أن أمريكا هي الرابحة دائماً»(ص٣٣).

ويميز المؤلف مراحل «مسيرة العلاقات الأمريكية ـ الاسرائيلية» فيشير الى «مرحلة ١٩٤٨ ـ ١٩٥٣» ويطلق عليها اسم «مرحلة تأسيس العلاقات الوطيدة والخاصة والتعاطف الكامل» و«مرحلة ـ ١٩٥٣ ـ ١٩٦٣» حيث عززت الادارات الأمريكية علاقات بلادها باسرائيل «في أعقاب انحسار النفوذ البريطاني والفرنسي في المنطقة» و«مرحلة ـ ١٩٦٤ ـ ١٩٧٣» فقد «تميزت بالتأييد السافر لاسرائيل» (ص٣٤) وباتت علاقات البلدين توصف بالعلاقات الخاصة» وصارت اسرائيل «عنصراً أساسياً في السياسات الامريكية في المنطقة، وركيزة استناد رئيسية» (ص٣٥).

«مرحلة ١٩٧٤ ـ ١٩٨٠» تميزت، بعد حرب تشرين بأنها كانت نقطة «تحول في حجم المساعدات الامريكية العسكرية والاقتصادية المقدمة الى اسرائيل» «وارتفعت نسبة الهبات في هذه المساعدات بصورة متصاعدة حتى وصلت الى ١٠٠٪ عام ١٩٨٥».

وشرعت اسرائيل تطور تقنية عالية ومتقدمة «في مجال الصناعات الدفاعية» ولم يكن هذا ممكناً «البلد بحجم اسرائيل وامكاناته الاقتصادية، لو لم تفتح الادارة الامريكية الباب على مصراعيه أمامه» (ص٣٦) وفي هذه المرحلة عزلت «مصر عن الصراع العربي ـ الاسرائيلي» بعد المعاهدة «المصرية ـ الاسرائيلية عام ١٩٧٩».

«مرحلة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨» وهي «مرحلة ريغان أو مرحلة اطلاق يد اسرائيل في المنطقة» فأعلنت ضم الجولان، وضربت «المفاعل النووي العراقي (١٩٨١)،

وغزو لبنان (١٩٨٢) والإغارة على مقر منظمة التحرير في تونس» وغيرها، وقد «تولت ادارة ريغان في هذه المرحلة توفير الغطاء السياسي والدبلوماسي لهذه العمليات، من خلال منع إدانة اسرائيل في المحافل الدولية، أو تمييع أي قرار دولي يتخذ ضدها».

«مرحلة ١٩٨٩ ـ ١٩٩٢: مرحلة بوش» وقد واكبت انهيار المعسكر الاشتراكي وهزيمة العراق العسكرية (ص٣٧).

وحدثت «متغيرات جوهرية في المنطقة دفعت ادارة بوش نحو التحرك الجدي لوضع تسوية نهائية في المنطقة، وتحقيق «السلام» في إطار ومنظور النظام العالمي الجديد».

ويستكمل المؤلف «رسم صورة العلاقات الخاصة» الامريكية ـ الاسرائيلية» فيتطرق الى المساعدات «الامريكية المباشرة وغير المباشرة لدولة اسرائيل» وتكون الحصيلة حتى عام «١٩٩١ ما يزيد عن ٥٠ مليار دولار» «وتبلغ حصة الفرد الواحد في اسرائيل من المساعدات الأمريكية ٦٢٧ دولاراً، وهو دخل يزيد عن متوسط دخل الفرد السنوي في العديد من البلدان النامية» والمساعدات «الرسمية المعلنة قدلا تشكل أحياناً إلا ثلث أو مايقارب ثلث مجموع المساعدات الامريكية الى اسرائيل»(ص٣٨ـ٣٩).

«أما شولتز (وزير الخارجية في ولاية ريغان) فقد رأى في المعونات الضخمة لاسرائيل أفضل الاستثمارات الامريكية على الإطلاق ليس لأمن اسرائيل فحسب، بل لأمن امريكا نفسها!» وهذا الوضع «مرشح للاستمرار لسنوات طويلة قادمة»(ص٤١).

ويسأل المؤلف: ألا يعود جانب من هذا الإجحاف، بل والاستهتار بالعرب الى تقصيرنا نحن؟» علماً بأن العلاقات «الخارجية لدولة ما، وخاصة لدولة عظمى ذات مصالح استراتيجية متعددة كأمريكا هي علاقات متشابكة ومترابطة وذات مسالك متعددة».

ويأخذ من «الادارات الأمريكية والقضية الفلسطينية» مثلاً . . . فالقضية الفلسطينية «كانت دوماً قضية مثيرة للجدل داخل الولايات المتحدة . . .» لكن الرؤساء الامريكيون أحجموا عن «التورط في معالجتها» (ص٤٢) ولم تواجه أية إدارة امريكية «ضغوطاً عربية فعالة» مع أن مصالح الامريكيين في المنطقة

«تكافؤ أو توازن الضغوط الاسرائيلية» لكن «الفلسطينيين لم يكن لهم قاعدة محلية، بمعنى أنه ليس لهم لوبي عربي له نفوذ ضاغط» (ص٤٣) «ولاشك أن الحظ حالف امريكا أكثر مما تستحق، إذ نجحت في أن تكون صديقة لاسرائيل من دون أن تخسر مصالح مهمة في العالم العربي» وفق تعبير مالكوم كير (ص٤٤).

وقد تراجع كارتر «عن دعم القضية الفلسطينية» حين «بدا أن السادات غير مهتم بمصيرهم» فهل يكون كارتر «أكثر اصراراً على الوقوف الى جانبهم من زعيم أكبر دولة عربية!» وفي الوقت «الذي كانت فيه امريكا تبني أقوى وأعمق علاقات مع اسرائيل، فإنها أقامت أيضاً موقعاً لانظير له من النفوذ في العالم العربي!». . . والولايات المتحدة لاتتدخل إلاّ حيث «تملي عليها مصالحها ذلك. تتدخل في أوقات الأزمات الكبرى والحروب» «لتحصد الثمار السياسية لهذه الحروب»(ص٤٥) وهي الآن تعد لترتيب «الأوضاع في المنطقة بما يتفق ومصالحها الكونية» (ص٤٦).

ويتكلم المؤلف عن «مرحلة التأسيس» في ظل ادارة ترومان. . . فيقدم عرضاً تاريخياً موجزاً. . . فقبل عهد روزفلت ظلت الادارات الامريكية «تعتبر فلسطين ومشكلات الهجرة اليها شأناً بريطانياً» ثم تزايد النشاط الصهيوني في الولايات المتحدة. . . وانعقد «مؤتمر بالتيمور» في نيويورك عام ١٩٤٢ وكان من قراراته فتح «أبواب فلسطين أمام الهجرة اليهودية، وإعطاء «الوكالة اليهودية» سلطة الإشراف على هذه الهجرة» «وأظهرت مقررات المؤتمر سيطرة القوى الصهيونية على غالبية القوى اليهودية الأمريكية الفاعلة»(ص٥١)

«وكان الرئيس روزفلت نفسه على صداقة وطيدة مع الحاخام وايز، أحد كبار مؤيدي سياسة تهويد فلسطين، والذي كان في الوقت نفسه مستشاراً للرئيس الامريكي في القضايا المتعلقة باليهود»(ص٥٢) وكان ترومان أشد تعاطفاً مع القضية الصهيونية «وسرعان ماتبنى المطالب الصهيونية الرامية الى إثارة ملف القضية الفلسطينية، والسماح بالهجرة اليهودية المطلقة الى فلسطين في مؤتمر بوتسدام» «وبدا واضحاً منذ بداية ولايته انحيازه للمطالب الصهيونية»(ص٥٣) وفي عهد ترومان صدر قرار الأمم المتحدة «بتقسيم فلسطين» وضغط على «بريطانيا لقبول المزيد من المهاجرين في فلسطين»(ص٥٤) ويرى الكاتب الصهيوني ج. رافائيل أن ترومان «كان تجسيداً للصهيونية الامريكية غير اليهودية»

على المستوى السياسي» وحين احتلت اسرائيل النقب صرح ترومان: «إنني أرغب في تقديم المساعدة لبناء دولة قوية وغنية وحرة ديمقراطية ومستقلة في فلسطين. يجب أن تكون كبيرة وحرة وقوية بدرجة كافية تمكن شعبها من الشعور بالأمان والكفاية»(ص٥٥) «لقد كانت مرحلة ترومان مرحلة التعاطف الكامل مع المطالب الصهيونية، والدعم المطلق لقيام الدولة العبرية وحماية وجودها»(ص٥٦).

ومع ذلك لم تنتقل اسرائيل «نهائياً الى «حضن» امريكا» في تلك المرحلة. وكان دعم ولاية ايزنهاور الأولى لها معتدلاً. (ص٦١) واحتدم الصراع الخفي «بين كل من بريطانيا والولايات المتحدة على النفوذ وجاء اخفاق الاستعمار التقليدي في حرب السويس عام ١٩٥٦» وراحت الولايات المتحدة تولي مزيداً من الاهتمام بالمنطقة... (ص٦٢) وقد حاولت «دخول المنطقة «من البوابة المصرية» وليس من بوابة اسرائيل، وهذا مايفسر الغزل الامريكي للثورة المصرية في بداية الخمسينات» وقامت فرنسا بتزويد اسرائيل بما تحتاج اليه من طائرات مقاتلة حديثة وساعدت «في بناء مفاعل ديمونة (النووي) الشهير في صحراء النقب» (ص٩٦٤) وقدمت بريطانيا لاسرائيل دبابات «السنتوريون» «فضلاً عن المدفعية والمعدات الأخرى» (ص٦٥).

واستوعب بن غوريون درس السويس فحول «دفة سفينته باتجاه البحار الامريكية» وكان ذلك قد واكب «تحول الولايات المتحدة الى الاضطلاع بالدور الأول، المهيمن، والمباشر في المنطقة» وقد أعلن بن غوريون: «ليس أمام اسرائيل الآن إلا الولايات المتحدة الامريكية» «والآن فإن هدف اسرائيل يجب أن يكون تحويل الولايات المتحدة من صديق الى حليف» (ص٦٧).

ويخاطب دالاس ايبان فيقول: إن الولايات المتحدة لاتتصرف بوحي لحظة عابرة، أو بإيحاء اتصالات تقوم بها اسرائيل أو أصدقاؤها، وإنما تتصرف وفق سياسة جديدة رسمتها للمنطقة وهي مصممة على تنفيذها» «إننا لم نعد بحاجة الى التواري وراء أصدقائنا القدامى، فقد لعبوا أوراقهم بحماقة وخسروا، وتركوا وراءهم في الشرق الأوسط فراغاً يتحتم على الولايات المتحدة أن تملأه» (ص٦٨).

وغضت ادارة ايزنهاور (١٩٥٧ - ١٩٦٠) النظر عن نشاط اسرائيل النووي

وقدمت «المساعدات المالية والفنية للمفاعل الصغير في ناحال سوريك.» (ص٧٠) وكانت البحرية الامريكية «تمول أبحاث الفيزياء النووية السرية» «لقد كانت إدارة ايزنهاور متورطة منذ البداية» وقدمت لها معدات «اتصال لاتوجد إلا في عدد قليل من الدول» (ص٧١).

وأهم ماتميزت به مرحلة ادارة جون كينيدي القصيرة إزاء الشرق الأوسط «أنها تابعت باسلوب هادىء، اسلوب دبلوماسية الرسائل، محاولة تحقيق نوع من الحل لمسألة الصراع العربي-الاسرائيلي» وقد فعلت ذلك مع وجود «تيار صهيوني قوي داخل ادارة كينيدي» وكان كينيدي يرى: «أن السبيل الأمثل لخدمة مصالح اسرائيل الوطنية من جانب الولايات المتحدة هو المحافظة على صلات امريكا بالدول الأخرى (الدول العربية) وتطويرها» (ص٧٣-٧٤).

وحين حدد كينيدي «مسارات السياسة الامريكية في الشرق الأوسط» ومن بينها «أن الولايات المتحدة تعارض استعمال القوة في الشرق الأوسط، أو التهديد باستعمالها» وأنها «تسعى الى الحد من سباق التسلح في المنطقة» «فوجىء العالم» في ٢٢ تشرين الثاني عام ١٩٦٣ «باغتيال الرئيس جون كينيدي» وانتهى «عصر الادارات الامريكية القوية» التي «تحاول أن تبقى على سياسة متوازنة نسبياً بين العرب واسرائيل» (ص٧٦).

«تعتبر فترة حكم الرئيس ليندون جونسون من أهم المحطات النوعية في تاريخ العلاقات الامريكية-الاسرائيلية، حيث شهدت هذه العلاقات قفزة كبيرة أوصلتها الى حد «الشراكة»» وحدث التحول «الى مرحلة الانحياز السافر نحو اسرائيل».

ويتكلم المؤلف على «صهيونية» جونسون الذي عبرت الصحافة الاسرائيلية عن حماستها لرئاسته: «لاريب أنه مع قدوم جونسون ستتوفر لنا فرصة أكبر للوصول الى الرئيس مباشرة» وكان جونسون لايؤمن بجدوى «التعاون مع الأنظمة العربية الوطنية، وخاصة مع مصر في فترة حكم جمال عبد الناصر» وقد عبر عن «كراهيته الشديدة لعبد الناصر» «ينبغي قص عبد الناصر الى حجمه الطبيعي» (ص٨٢) وكانت «عواطفه الشخصية تجاه اسرائيل تبدو راشحة بالمحبة والإعجاب».

إضافة الى ذلك كانت إدارته وجيوشه «غارقين في أو حال فيتنام»

(ص٨٣) وأخيراً «كان إطلاق يد اسرائيل في المنطقة لايغضب كل العرب، بل سيكون هناك سعداء إذا استطاعت اسرائيل حصر الدور المصري وخنقه، وهو ماتبتغيه السياسة الامريكية» (ص٨٤) وجاءت استعدادات اسرائيل للحرب «في نطاق التنسيق الوثيق مع البيت الأبيض في عهد ليندون جونسون».

وقـدمت الولايات المتحـدة الدبابات والطائرات... فلم تكن ادارة جونسون «راضية عن النشاط السياسي لمصر في مجال عدم الانحياز» (ص٨٥) واشعلت الولايات المتحدة الضوء الأخضر لاسرائيل كي تعتدي... وقدمت لها السلاح والعتاد اللازمين...

وحين انتصرت اسرائيل عام ١٩٦٧ «تبددت مخاوف جونسون وأصبح بإمكانه معالجة الموقف من موقع ممتاز!» (ص٩٠) «كان الدعم الدبلوماسي الامريكي في مجلس الأمن لاسرائيل يعني أكثر من كسب الوقت لتحقيق مزيد من الاحتلالات بعد أن انهارت الجيوش العربية» (ص٩١).

وتوثقت الصلة بين البلدين «فلقد هيأ التطابق والانسجام في الأهداف والسياسة قاعدة صلبة لنمو العلاقات الثنائية في شكلها الجديد» (ص٩٢).

وتدفقت الأسلحة على اسرائيل. «تأكيداً على أهمية اسرائيل الجديدة وعلى دورها العدواني كشرطي المنطقة القادر على ضرب أي مناوىء لمصالح أمريكا» (٩٤).

ويزور نيكسون الجولان ويعلن: «لو كنت اسرائيلياً لرفضت أن أنزل من هنا.» ويكثر من الوعود قبل انتخابه. يقول رابين: «سيكون رئيساً سهلاً لنا حتى أكثر من صديق اسرائيل القديم هيوبرت همفري» (ص٩٧) وتولى الرئاسة وصرح «انني اعتبر الشرق الأوسط برميلاً من البارود شديد الانفجار، وهو يحتاج الى إزالة الفتيل الصاعق» وطرحت خطة روجرز التي تستند «في خطوطها العريضة الى مبدأ مقايضة الأرض بالسلام والتوصل الى سلام تعاقدي بين مصر واسرائيل» (ص٩٨) وجرت اتصالات بشأن مشروع التسوية لكن اسرائيل رفضت الخطة كما رفضها الاتحاد السوفييتي... وفشلت الخطة لأن «نيكسون وكيسنجر لم يضعا ثقلهما وراءها» وشرعت اسرائيل، مستخدمة طائرات الفانتوم الحديثة، تشن غارات في عمق مصر. ودخلت صواريخ سام وطواقمها الى مصر... وتدفقت الطائرات على اسرائيل.. كي تبقى «أقوى من جاراتها»

ويصرح رابين: «إن استعداد الامريكيين لتزويدنا بأسلحة أخرى مشروط أكثر بزيادة النشاطات العسكرية ضد مصر وليس تخفيفها. فإعطاء اسرائيل أسلحة لهذا الغرض يخدم مباشرة المصلحة الأمريكية» (ص١٠١).

وأجرى نيكسون «مع مائير مباحثات وصفت بأنها أهم محادثات بين البلدين خلال ٢٢ عاماً!» وجعلت أزمة الأردن عام ١٩٧٠ «العلاقات الأمريكية ـ الاسرائيلية أقوى في أي وقت مضى.» (ص١٠٢) وازدهرت علاقاتهما في أعوام (٧١، ٧٢، ٧٣) «حيث قدمت واشنطن مستويات من المساعدات لم يسبق لها مثيل» (ص١٠٣).

وأعلن نيكسون: «إن بلادي لن تسمح بوضع اسرائيل في موقف دبلوماسي أو عسكري غير مؤات» (ص١٠٤) وكان معنى ذلك على «حد تعبير وليم كوانت، أن الولايات المتحدة قد قيدت نفسها كلياً، تقريباً، بالموقف الاسرائيلي» وكانت إدارة نيكسون» أكثر الادارات الامريكية تعاطفاً مع اسرائيل على الصعيد العملي» (ص١٠٥) وقد ضم البيت الأبيض في عهد تلك الإدارة «أكبر عدد من المستشارين اليهود في تاريخه» وكانت تلك الحقبة بحق «حقبة كيسنجر» إذ كان نيكسون مشغولاً بلقلقة «فضيحة ووترغيت» (ص١٠٦) وابلغ كيسنجر بعض اليهود «أنه ساهم بالدور الأكبر في اتخاذ قرار إقامة الجسر الجوي لتزويد اسرائيل بالسلاح أثناء الحرب» عام ١٩٧٣.. وقد أعطيت اسرائيل «الأولوية، على كافة الطلبات الخاصة بالجيش الامريكي» (ص١٠٧) «وكان كيسنجر يرى أن علاقة امريكا الخاصة باسرائيل هي التي ستجبر العرب على التعامل مع الولايات المتحدة في الميدان الدبلوماسي. فما يحسب حسابه هو القوة، وليس العواطف.».

وفرضت امريكا «وقف اطلاق النار على خطوط لاتنضر باسرائيل» وجرى «تحييد سلاح النفط الذي استخدمه العرب... وتم «تحييد مصر» إن لم نقل جرى كسب مصر(راجع ص ١٠٨).

واستقال نيكسون وجاء فورد وكان «يعرف أنه صديق حميم لاسرائيل فحسب» ولم يكن له «صوت متميز داخل دوائر صنع القرار» وتابع كيسنجر نهج «الخطوة خطوة» وعمل على عزل «مصر عن سورية» (ص١١٠) وظلت

الولايات المتحدة ملتزمة «بتلبية احتياجات اسرائيل من العتاد الحربي» «وكل احتياجاتها من الطاقة» (ص١١١).

وكانت اتفاقية سيناء «التي دعمتها ورعتها الولايات المتحدة» «اتفاقية سيئة جداً، لأنها خططت أصلاً لقسمة العالم العربي من دون أن تحل أية مشكلة جوهرية.» (ص١١٢).

وتميزت ادارة كارتر بإبداء «بعض التفهم والتعاطف مع القضية الفلسطينية» «يجب أن يكون هناك وطن للاجئين الفلسطينيين الذين عانوا لسنوات عديدة» وأثارت كلمة «وطن» حساسية «اللوبي الصهيوني في امريكا» وتراجع كارتر، فما كان «يقصده بكلمة «وطن» هو مجرد مكان يعيش فيه الشعب» ووصف بريجنسكي تصريح كارتر ذلك بأنه «زلة لسان عفوية وغير متوقعة» (ص١١٧).

وشهدت ولاية كارتر «عدة تراجعات من هذا النوع» ولعل أهمها تراجع «إدارته عن البيان الأمريكي ـ السوفييتي» الذي دعا «الى تسوية عادلة وشاملة لقضية الشرق الأوسط، وانسحاب اسرائيل من الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧» (ص١١٨).

وأعلن ولتر مونديل نائب كارتر: «إننا لانعتزم أن نستخدم معونتنا العسكرية لاسرائيل في الضغط عليها» ولم «تتوقف المعونة العسكرية لاسرائيل» رغم مظاهر الخلافات بينهما. وظل الاعتبار الأهم «هو أمن اسرائيل فوق كل شيء» (ص١١٩ ـ ١٢٢).

ويعرض المؤلف وجهة نظر السيد محمد ابراهيم كامل وزير خارجية مصر الأسبق الذي قال: «إن الولايات المتحدة خانت أمانة تعهداتها بعرض مقترحات علينا قبل تقديمها، ودور الشريك الكامل الذي تعهدت بالالتزام به إزاء الطرفين» «عندما تلقينا المشروع الامريكي في صباح ١١ سبتمبر كان بعيداً كل البعد عن تصوراتنا» «كان مشروعاً اسرائيلياً دماً ولحماً، ولكنه يحمل الجنسية الامريكية» «لقد خذل كارتر السادات وغرر به، فقد بنى السادات كل آماله عليه ووثق في وعوده المعسولة أكثر مما يجب» (ص١٢٢ ـ ١٢٣).

وقدم محمد ابراهيم كامل استقالته إذ «لم يستطع تحمل تنازلات رئيسه

المتتالية وتهافته على الوصول الى اتفاق» (ص١٢٤) ولأول مرة وقعت «دولة عربية معاهدة سلام كامل مع اسرائيل» . . كان ذلك في ايلول ١٩٧٨ . . وظلت «المشكلة الفلسطينية ماثلة، وظلت الاحتلالات باقية بالنسبة لباقي أطراف الصراع، لابل أن هذه الاحتلالات توسعت باحتلال جنوب لبنان بعد ذلك . » .

ويعترف بريجنسكي بأن «الولايات المتحدة قدمت أكثر مما ينبغي من التنازلات لبيغن، في الوقت الذي لم يقدم فيه بيغن شيئاً لدفع عملية السلام . » (ص١٢٥) .

«ويتساءل كارتر بدهشة : فما الذي حصلنا عليه من بيغن؟» وبدلاً من أن يمارس ضغطاً على اسرائيل يصل الى استنتاج مفاده : «وإذا كان بيغن لايمكن زحزحته فإن على السادات أن يتزحزح . » (ص١٢٦) وكوفئت اسرائيل على عدم تزحزحها بمزيد من المال والسلاح . وتابعت الإدارة الامريكية «سياسة التراجعات إزاء القضايا العربية العادلة . » وظل كارتر يؤكد «بأكثر التعابير وضوحاً بأن الولايات المتحدة لاتدعم ولاتقبل أي وضع يعرض للخطر مصالح الأمن الحيوي لاسرائيل . . إن التزامنا بالأمن والرخاء الاسرائيلي يبقى ثابتاً وغير قابل للتغيير»(ص١٢٨) .

في عهد إدارة ريغان «وصلت العلاقات الامريكية - الاسرائيلية الى الذروة . » وقد لخص نظرته على الشكل التالي : «إن اسرائيل هي الدولة الوحيدة في المنطقة القادرة على مساعدة امريكا على الصعيد الاستراتيجي . إن سقوط ايران الشاه قد ضاعف من قيمة اسرائيل لأن الدول المعتدلة الصديقة لأمريكا ضعيفة ومعرضة للخطر . » (ص١٣٣) وشهدت المساعدات الامريكية بشقيها «العسكري والاقتصادي» «طفرة في عهد ريغان» وتم «تكامل دمج المجمعات الصناعية للبلدين بشكل فعال، ووضعت الأسس لجعل اسرائيل ثالث دول العالم تقدماً، إن لم نقل ثالث أقوى دولة عسكرياً»(ص١٣٤) .

وأعلن ريغان أن «الروابط بين الشعبين الأمريكي والاسرائيلي يجب ألا تُقوض أبداً» وكانت مرحلة ريغان «مرحلة اطلاق يد اسرائيل في منطقة الشرق الأوسط» وكانت الولايات المتحدة تشجع اسرائيل على الاعتداء بدلاً من «أن تردعها» وتشير الوقائع الى «أن إدارة ريغان كانت مؤيدة ضمناً» لعملية غزو لبنان (ص١٣٧) «وعطلت هذه الادارة كافة المحاولات لاتخاذ قرار جدي في مجلس الأمن وتنفيذه ضد الغزو» (ص١٣٨) .

وتضمنت مذكرة التفاهم في اطار «اتفاق التحالف الاستراتيجي بين الدولتين النقاط التالية: ١ ـ القيام بمناورات عسكرية مشتركة بين البلدين ٢ـ التخطيط الأمني المشترك. ٣ـ تخزين المواد العسكرية والطبية الامريكية في اسرائيل، واستخدام المستشفيات. ٤ـ استخدام القواعد العسكرية الاسرائيلية الجوية والبحرية وغيرها (راجع ص١٣٩ـ١٤٠).

وأعلنت ادارة ريغان «أنها لاتعتبر بناء المستوطنات الاسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة أمراً غير شرعي» وكانت أول إدارة امريكية «تعتبر منظمة التحرير الفلسطينية منظمة ارهابية» (ص١٤٢).

وكانت «اتفاقية التعاون الاستراتيجي «أول اتفاقية من نوعها تعقدها الولايات المتحدة مع دولة أجنبية» ويعلن شولتز «أن أي تهديد لحقوق اليهود في العالم هو تهديد للبشرية» (ص١٤٤) ودعا الى «مفاوضات مباشرة تكون اسرائيل فيها في موقع أمة» «وترفع اسرائيل الى مصاف عضو في حلف الناتو فيما يتعلق بكافة الامتيازات والتسهيلات» (ص١٤٥) لقد «وفر الامريكيون كافة التكنولوجيا والأسلحة المتقدمة لاسرائيل.. واستفادت اسرائيل بالتالي من هذه المعرفة وهيأت نفسها لتزيد من خبرتها واطلاعها التكنولوجي الخاص» (ص١٤٦).

وكان من الطبيعي أن تتطور العلاقات بين الدولتين «في الخط الصاعد ذاته في عهد ادارة بوش المعروف بصداقته لاسرائيل» وفي عهد بوش ألغي «قرار الجمعية العمومية» للأمم المتحدة رقم ٣٣٧٩ «الذي وصم الحركة الصهيونية بالعنصرية» (ص١٥١) وساعدت إدارة بوش «على ترحيل ماتبقى من يهود الفلاشا الى اسرائيل». وبعد تفكك الاتحاد السوفييتي حدثت «تطورات جذرية وخطيرة في مجمل النظام العالمي، وأحدثت مفاهيم ومعادلات جديدة في العلاقات الدولية» (ص١٥٢) «إن الوظيفة الاسرائيلية في المنظومة الاستراتيجية الامريكية كانت تتمركز في مواجهة النفوذ السوفييتي في الشرق الأوسط، وهذه وظيفة لم تَعُدْ لها تلك الأهمية» وبالتالي ستصبح فائدة الولايات المتحدة من اسرائيل أقل مما تنفقه عليها «وقد يواجه الاقتصادي الاسرائيلي مشكلة في اضطراب المساعدات الأمريكية» (ص١٥٣) وقد وافقت ادارة بوش على اقتراح «بتخفيض المساعدات الأمريكية لاسرائيل بنسبة ٥٪ في عام ١٩٩١» وقالت «عل

همشمار» صراحة: «إن الولايات المتحدة ستتجه نحو اوروبا الشرقية على حسابنا» (ص١٥٤).

أما «تعفف» اسرائيل عن «التورط في حرب الخليج الثانية فلم «يكن قراراً اسرائيلياً بقدر ماكان قراراً امريكياً.» (ص١٥٦) وقد ارتفعت «أصوات صقرية عديدة داخل اسرائيل تطالب بالانتقام من العراق» كي تحافظ على دورها التقليدي «دور العصا الغليظة للشرطي العالمي (امريكا) في المنطقة» لكن استراتيجية بوش كانت «تقوم على «تحييد» اسرائيل وإبعادها تماماً عن الواجهة» وقد أثار ذلك هواجس حكامها «حول مكانة وأهمية دورها العسكري الذي كان المبرر الأول لهذه المكانة لدى الولايات المتحدة» (ص١٥٧).

«ورأينا اسرائيل لأول مرة تصفع على وجهها ولاترد، وهي التي كانت ترسل احدث مالديها من طائرات لترد بمنتهى العنف والتدمير على بضع صواريخ الكاتيوشا تُطلق على حدودها من جنوب لبنان.».

لكن اسرائيل «كوفئت على «موقفها» هذا بالطبع من خلال جملة من المكاسب السياسية والدبلوماسية والعسكرية والاقتصادية»(ص١٥٨) ومع ذلك بقي لديها شعور يؤشر الى «تراجع دورها» (ص١٥٨) وقد تستغني الولايات المتحدة «عن خدماتها عند اللزوم، بل إن مثل هذا الاستغناء يكون ضرورياً» أحياناً...

ويطرح المؤلف السؤال: «ماذا عن مستقبل العلاقات الامريكية - الإسرائيلية؟ وهل ستحدث «تغييرات جذرية في طبيعة هذه العلاقات وفي مكانتها؟!» (ص١٥٩).

ويجيب المؤلف «إن الولايات المتحدة لايمكن أن تسقط اسرائيل من المعادلة الاستراتيجية في الشرق الأوسط. وستظل اسرائيل «احتياطياً» استراتيجياً امريكياً تستخدمه الولايات المتحدة عند اللزوم، كالأزمات الطارئة، أو لإجهاض تحولات جذرية في المنطقة العربية. اصولية كانت أو قومية، يمكن أن تلحق الضرر بمصالح الولايات المتحدة» (ص١٦٠).

وتتوالى الأسئلة: «هل تهيء الولايات المتحدة «شريكها الصغير» لدور جديد في المنطقة؟» «هل يمكن أن تتحول اسرائيل الى ذراع اقتصادي؟» (ص١٦٢) لكن «الاقتصاد الاسرائيلي يعاني اليوم من عدة مشكلات...» (ص١٦٣).

إن الآفاق لم تتضح بعد. . ماهو واضح أن الصدوع التي تنشأ بين الحليفين يسارع الطرفان الى رأبها. . . وتبقى الولايات المتحدة ملتزمة بتقديم «مساعدة أمنية واسعة النطاق لاسرائيل، والمحافظة على التفوق النوعي لاسرائيل على خصومها» فهي حليفة الامريكيين «الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط» أو هذا ماأكده بوش على الأقل. . (ص١٦٥).

إن الولايات المتحدة تريد أن تنفرد «بدور القوة العظمى الوحيدة في العالم» وهي لن «تسمح لأية مجموعة من الحلفاء أو الأعداء بأن تنافس دورها هذا» وفي الشرق الأوسط يريد الاستراتيجيون الامريكيون «شرق أوسط مستقراً تتأمن فيه المصالح الامريكية ويسوده النفوذ الامريكي» أي إن الولايات المتحدة تتطلع «الى سيطرة مطلقة على المنطقة لاينافسها فيها أحد.» فذلك يساعدها على «مواجهة المنافسة الضارية من جانب أوروبا واليابان وتطلع أوروبا الموحدة الى دور عالمي.» (ص١٦٧).

ولهذا ولعوامل أخرى لن يضعف «التحالف الامريكي - الاسرائيلي» بل «إنه سيتعزز» وستبقى «اسرائيل قاعدة خدمات استراتيجية لامريكا في المنطقة. وهذا وحده مايفسر تدفق المساعدات الاقتصادية والعسكرية الامريكية من جديد.» (ص١٦٨).

وإذا كان كتاب «الادارات الامريكية. . . واسرائيل» بمعنى من المعاني، شهادة للعرب وعليهم فإنه إدانة بالأرقام لأولئك الذين يتكلمون على القوانين والقيم والمبادىء وهم لايرون الا مصالحهم. . . التي يسيرون نحوها، حتى لو كان ذلك على جثث كل المبادىء وكل القيم التي تعارفت عليها المجتمعات البشرية واقرتها الشرائع والقوانين.

الكتاب في ١٧٦ صفحة من القطع الكبير.

* * *